فارس زرزور

حتّى القطْرة الأخيرَة

وقصص أخرى



أبو عبدو البغل

مدونة أبو عبدو

طبعة ثانية

فارس زرزور

حتّى القطْرة الأخيرَة

وقصص أخرى

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨١

حتّى القطرة الأخيرة

كان هو والرشيش وحيدين متعانقين في الظلام ، كانا اسودين صامتين كأنهما قطعة من الارض التي افترشاها ، جاثياً أحدهما على الآخر كتوأمين ملتصقين ، ينبض في جسدهما قلب واحد .

كانت حياة احدهما متعلقة بالآخر ، لايمكن لأحدهما أن يعيش دون رفيقه بأي حال من الاحوال . ولعل في وجود السر الذي يجمعهما يكمن السبب الحقيقي لكل ذلك ، إذ على حياتيهما مجتمعين تتوقف ارواح احد عشر جندياً وضابط . . .

كانت الحفرة التي يفترشانها تقع على سفح مرتفع بسيط من الأرض تخفيهما عن الانظار وتقيهما من نيران العدو التي قد تأتي بخط مستقيم ، وهذه الحفرة تطل على سهل منبسط الى اليمين ، وتشرف على واد ضيق في الوسط ، يحده من اليسار مرتفع آخر مناظر للمرتفع الذي انبسطت الحفرة على سفحه .

كان الرامي منذ ساعتين انقضتا يسلي نفسه بترتيب وضع

مريح يسهل له المهمة التي عهد اليه بتنفيذها ويكفل له قضاء ليلة سعيدة يناجي فيها النجوم قبل ان يبدأ حديث النار .

وعندما انتهى من تهيئة الوضع ومهد لجسده طولاً وعمقاً كافيين وضع امتعته الى جانبه ، وثبت ركيزة الرشيش في مكانها حسب قياس معين ثم تنفس الصعداء .

واستلقى الى جانب سلاحه واضعاً يديه تحت رأسه كوسادة ووجهه شطر السماء .. ومالبث في هذا الوضع بضع دقائق حتى أحس بأنه على وشك الضياع ، فقد الفى نفسه شيئاً فشيئاً دون ان يشعر قد اصبح في السماء نجماً متألقاً وسط النجوم .

وكاد يغمض عينيه على هذه الحقيقة . . على هذا الحلم اللذيذ .. كاد يستسلم لاغفاءة طويلة الامد ، لولا أن أحس بهاتف يصرخ فيه من قرارة نفسه : حسين أين أنت ..؟ لماذا جئت ؟ وماذا تفعل ؟..

وغيَّر حينئذ من وضع استلقائه فأخذ وضع الرامي منبطحاً ، وراح يخترق ظلمة الليل . . لم يكن يرى شيئاً الى أبعد من خطوتين .. كان الظلام دامساً أسود .. ومع ذلك راح ينظر ويجهد نفسه في النظر . لاشيء . . كل شيء أسود . . لايهمه ذلك ، انه يعرف الهدف ، وقد وضع السلاح باتجاهه ،

وما عليه فقط إلا أن يضغط الزناد ويلقم الرشيش ذخيرته مخزناً وراء مخزن .. هذا كل مايراد منه .

وعلى كل حال انه يعرف هدفه ، لقد درسه دراسة تامة ، ورآه بعينه ، وقاس بعده وارتفاعه ، وتعرف على حدوده من اليمين والشمال والأمام والخلف ، ان هذا لايهم ، عليه فقط ، عند بدء الاشارة ، ان يضغط على الزناد ..

وراح يقدر الوقت بذهنه ، اذا كانت الامور تسير سيراً حسناً فسيبدأ مهمته بعد ربع ساعة أو عشرين دقيقة على أبعد تقدير .هاقد مضت عليه ساعتان وحيداً، وساعتان كافيتان لأن يصلوا الى الهدف ،وربع ساعة للقيام بالمهمة ، إذن بعد ربع ساعة سينتهي كل شيء ، وأصاخ السمع.. كان الطقس لطيفاً في ذلك اليوم من أيام مايو ، وفي النسيم الدافىء يحلو للحشرات والزواحف ان تتنزه على طبيعتها،وللطيور السوداء ان تصدر بين آونة وأخرى صوتاً أو صوتين لتتعارف أو لتنشد نشيد السعادة ، ولكن هل هذا ممكن ..! واصاخ السمع بكل جوارحه .. ان حركة تصدر من الوادي الى جانبه .. ولكن .. هـــل رجعوا ؟ كيف ؟ كيف يرجعون دون أن تنتهي المهمة ..؟ هل هم الذين يرجعون ؟ لاشـك في ذلك . . . انها أصوات اقـدام . . . اقدام حقيقية تصطدم بالاحجار .. انها ليست أصوات زواحف أو طيور .. لا .. انها اصوات آدمية تصدر منها دمدمة مكبوتة . . وتمنى لو يصير جميعه أذناً كبيرة .. أذناً فقط ، ليفهم شيئاً مما

يدمدم به العائدون ، وكاد يصرخ فيهم : من هناك ؟ ولكن . . كيف يصرخ ؟ ربما يسمع الاعداء فتفشل الخطة .. ووضع يده على الزناد .. هل أطلق النار ؟ وعلى من أطلق ؟ لست أدري .. ان هذه طريق عودتهم . ولكن ليس الآن . . انها طريق العودة عندما ينتهون من المهمة .. والمهمة لم تنته بعد . . كيف حدث ذلك ؟.. هاهم .. انهم يقتربون اكثر .. لقد اصبحوا على بعد خمسين متراً .. ان أشباحهم تتراءى له في الظلال .. انهم آدميون.

وحبس انفاسه .. وتقلص على نفسه ، وأصبح كتلة من عصب ، ووجد اصبعه من تلقائها تشد نفسها الى الخلف والزناد يتراجع شيئاً فشيئاً ، فتمالك نفسه وأرجع أصبعه الى الامام ..

هل أبدلوا المهمة ؟ هل أسروا قبضة من الاعداء واكتفوا بهذا الانتصار ؟ لايمكن .. ان المهمة الاساسية غير هذه ، ولايمكن ابدالها مهما كانت الظروف .. اذاً ؟.

وترامى الى سمعه صوت .. ان هذا ليس كلاماً عربياً . . لاشك انها دورية يهودية .. ولكن ماذا أتى بها في هذه الساعة ؟ هل يطلق النار ؟ ستفشل الخطة .. وليس معه ـ فضلاً عن ذلك ـ امر باطلاق النار في مثل هذه الحالات . . ان المهمة الاساسية هي في مقدمة كل شيء .

٣

واقترب اليهود .. اقتربوا بصورة لم يبق معهـا مجال للتفكير ، لقد اصبحوا الى جانبه تماماً .. خطوتين فقط ، ويضحون فوق رأسه .. ترى هل يوجد معهم أحد من الاصدقاء ، هل هم أسرى ؟ لا .. انهم يسيرون ملء حريتهم اذن .. هه ..

ولمع حذاء قرب رأسه ، وسمع صرخة هائلة تبعها طلق ناري.. ثم .. ثم صمت كل شيء ..

عندما أفاق الرامي من دهشته ايقن تمامـاً على نحو لا يقبل الشك أو الجدل ان اليهود قد ولوا هاربين وذلك لسبب بسيط جداً ، فقد ظنوا أنفسهم قد وقعوا في كمين كبير ، اذ لم يعـد يسمع او يرى لهم أي أثر ..

ولكن ماهذا الذي .. آه .. حقاً ، هل ممكن ؟ وتحسس ساعده ، كان هناك شيء حار يسيل من ساعده ويتدفق كالينبوع من أطراف أصابعه اليسرى .. لاشك انني جرحت . ان ذلك الصوت الثاقب الذي تبع صرخة الرعب لم يكن غير رصاصـــة استقرت في ساعدي ، وعلى هذا فأنا الآن جريح ، لا بأس ..

وعندما هدأت أعصابه ، أحس بصورة واضحة بأن هذا السائل الحار الذي يتدفق من بين أصابعه لم يكن غير الدم .. وهو على كل حال بدأ يشعر بوخزة مؤلمة في مكان انبثاقه .. نعم .. لقد استقرت

الرصاصة في ساعده ، فتح جعبته الامامية في هدوء واخرج منها الضماد . . وفكر : هل أنزع ملابسي أم أضمد فوقها ؟ وقدّر الزمن اللازم لذلك وهز رأسه .. لقد انتهى الوقت ، علي أن أتأهب لفتح النار . .

واستطاع بطريقة ما أن يربط ساعده من أعلى الجرح وفقاً للتعليمات الاولية التي يتلقاها كل جندي ليمنع تسرب الدم من القلب الى الخارج ، وجفف يده بالضماد واتخذ وضعاً يستريح فيه بعض الشيء .. ليس هناك اقسى من أن يعد الانسان الزمن ،ثانية وراء ثانية ، خاصة اذا كان هذا الانسان ينتظر في كل ثانية أن يحدث انفجار مدمر يهز الارض والسماء ، ويطيح بآلاف الصناديق من الذخيرة والقنابل والعتاد،ثم يبدأ بعدها فتح النار ، ليحمي رفاقه الجنود الذين قاموا بعملية التفجير ..

ورامي الرشيش الجندي الأول حسين هايل العلي الذي جرح في ساعده ، والدم راح يتدفق من يده .. ينتظر هذه اللحظة . انه الجندي الذي كلف بحماية رفاقه اثناء الانسحاب من اغارتهم على مستودع ذخيرة العدو ، عليه عند سماع صوت الانفجار ان يفتح النار على بناء مجاور لمستودع الذخيرة يكون مهجعاً للحرس ، « بناء أبيض له نافذتان » ، انه ينتظر هــــذه اللحظة وينتظّرها بدقات قلبه وهيجان اعصابه . ان تعبير (بدقات قلبه) ينطبق

على الحقيقة تماماً لأن قلبه بدأ يعمل بشكل سريع لسببين : لحساب الزمن ، ولشيء آخر صار اكثر منه اهمية ، هو خلق دم جديد.

ومضت دقيقة .. فدقيقتان .. فعشر .. فعشرون .. فساعة .. تعب فيها القلب وكاد يكف عن الخفقان كان الرامي خلال الدقيقة الاولى لايفكر في شيء على الاطــــلاق .. صوت انفجار .. ثم الضغط على الزناد .. غير أنه بدأ بعد مضي ذلك الزمن الطويل يبدل تفكيره .. بدأ يهتم بساعده ، خاصة وان ألماً حاداً عميقاً بدأ يمزق جسده .. وكاد يصرخ من الذعر عندما تحسس كم معطفه فوجده يقطر دماً مما اضطره الى عصره بيده السليمة ليخفف وزنه قليلًا ، فلايسبب ثقلاً اكثر على ساعده .

وأيقن بعد قليل أنه لم يعد يستطيع الاستفادة من ساعـده الايسر بأي حال من الاحوال .. واعقب هذا اليقين شعور بأن كل شيء قد فات . . ودغدغت احاسيسه اشياء سموها . . الفراغ والراحة والنوم الابدي ..

أحس بهذه الرغبة بصورة اكيدة ، فراحت تلح عليه : نم .. نم .. واسترح .. وأحس شيئاً فشيئاً بأن قواه تتلاشى وتسحب منه كما تسحب الشعرة من العجين .. وراحت عينـــاه تذبلان ، وتوحيان اليه بأنه اذا ضم جفنيه ودانى مابينهما ملك سعادة ابدية .. سعادة لايمكن ان يحصل عليها مادام على قيد الحياة ..

سعادة ، لايمكن ان توصف او ان تعرف . . سعادة فوق سعادة البشر ..

وفعلاً راح الخدر يتمشى في اوصاله ، ويزحف وئيداً وئيداً مع الدم الذي ينبثق من قلبه ليداعب الشعيرات الضئيلات التي تكسو جلد صدره وظهره .

وتمثلت له الحياة الغالية طفلاً صغيراً اسمه النوم تهزه أمه هزاً رفيقاً وهو يطبق جفنيه بهدوء وهناء .. واوحى له الليل بأن مابينه وبين مايتمنى ، من عظمة وقداسة وسمو وكل ما انفعل وثار وأحب وكره بسببه ، وكل ما عاش حياته كلها من أجله .. يتمثل جميعه بين حيزين بسيطين .. يتمثل جميعه بين جفنيه . . النوم .. يالهذه البهجة ! يالهذه السعادة ! يالهذا الخلود !. نعم ، في النوم الخلود .

وصحا فجأة .. لم يدرك كم مضى من الليل ، وتطلع الى السماء فوجد النجوم تتغامز ، وأحس مرة ثانية بأنه يشارك النجوم السهاد . . النجوم .. هذه المخلوقات الضئيلة في السماء ، انها تشتهي النوم .. لقد نقصت قليلاً عن ذي قبل ، لاشك انها ذهبت لتنام .ولاك لسانه في فمه ، فوجده يابساً كالحطبة ، ومد يده الى مطرته فوجدها فارغة . . وكاد يلعن نفسه لولا انه تذكر انه شربها على دفعتين بعد اصابته بالجرح . . وامتدت يده الى

الحقيبتين الى جواره ، وحاول أن يرفع احداهما فسقطت . . حسناً واليد الاخرى اصبحت عاطلة ، ولكن يجب أن أحمل المخازن الى الرشيش .

وتحسس السلاح .. كان بارداً كالثلج .. صامتاً .. أسود .. أخرس لاينطق .. لابأس .. ووصلت يده الى المخزن المملوء بالخرطوش فوق فتحة الرشيش .. كان ثابتاً جاهزاً . .

ماهذا الطنين ؟ . . واصاخ السمع . . انه صادر من رأسه ولاشك .. طنين متواصـــــل : وش .. وش . . وأحس بقواه المجردة ـ بكل مابقي له من قوى ـ أحس بالرعب ، ماذا لو حدث الانفجار ولم اسمعه ؟ هل يمكن ؟ تُرى أتكون المهمة قد انتهت ؟ وماذا حدث للملازم ورفاقي الاحد عشر جندياً بينهم سليمان وخالد وخضر ومحمود وحسان و ..؟

وأحس بيد ساخنة تهدهد ظهره .. نم .. نم .. ايها الطفل الصغير .. ورأى الملازم يقلده وساماً حربياً كبيراً بينما أمـــه تبكي من الفرح وأخته الصغيرة تغني أغنية حزينة ووجها مطـلي بطلاء اصفر .. كل شيء اصفر .. حتى الوسام كان اصفر . . والملازم يرتدي بزة صفراء .. ثم رأى نفسه يأكل بطيخة صفراء ، مُرَّة وحامضة ، أحس بعدها بالغثيان ، فأراد ان يتقيأهـا فلم يستطع . وأحس بالألم .. وراحت امعاؤه تتفتت ، قطعة إثر قطعة ،

فسفحت أمه على بدنه العاري سطل ماء ساخن ، ساخن جداً .. ووقع السطل فوق رأسه فأحدث ... أحدث انفجاراً اهتزت له الارض ، وتصاعدت ألسنة عالية من اللهب تبعها انفجار ..وانفجار..

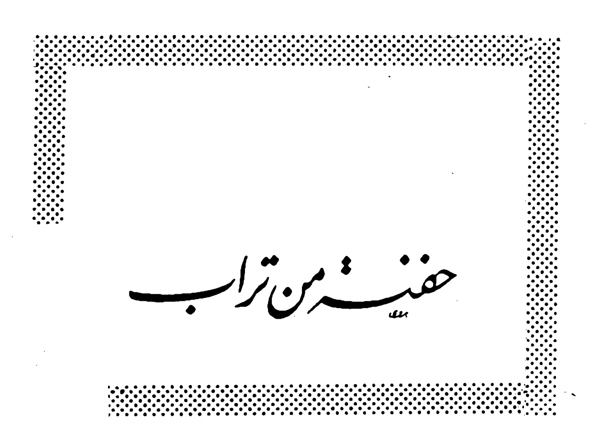
وفتح عينيه .. كانت اصبعه تضغط ، على الزناد ومن فوهة الرشيش ينطلق انبوب طويل من النـار يصل الى بنـاء أبيض ، ويخترق نافذتين كبيرتين الى جانب ألسنة اللهب التي تغزوالسماء .

وفي الساعة الثالثة من صباح السادس عشر من أيار سنة١٩٤٨ تلقى آمر احد افواج الحدود البرقية التالية :

نفذت المهمة : . . . الخسائر شهيد واحد .. (الجندي الاول حسين هايل العلي)

ملاحظة : (أطلب له وساماً)




حفنة من تراب

عندما كان « محمد الجابه » يغوص في مقعـده وسط الطائرة الكبيرة ، راودته لأول مرة في حياته فكرة الوطن .

مامعنى هذه الكلمة ؟ ولماذا ينشدها الناس ؟ بل لماذا يموتون في سبيل هذا الشيء الذي يسمونه الوطن ؟ وتساءل لأول مرة في حياته ، أين هو وطنـــه ؟ أهو هنـاك في فلسطين حيث تتثاءب أمه العجوز ، وتفني حياتها في الصلاة وخدمـــة الناس والثرثرة مع هذه وتلك ؟ أم هنا حيث استطاع أن يجمع آلاف الليرات الانكليزية أم حصان ! وحيث تمكن من أن يملك بيتـاً ويفتح متجراً ويصاحب مئات الفتيـات الرشيقات الجميلات ؟ فأية صلة عادت تربطه بتلك الارض التي يسمونها مسقط رأسه وليس له هناك شيء من الاشياء . لا من أرض ولا من بيت ولا حتى من مسمار جحا . بل ربما لم يكن قـد ولد حتى في أرض من الاراضي . وقد تذكر فعلاً أن أمه كانت تقول إنه سقط منها منها بسهولة فائقة ، عندما كان يعذبها أحد الجنود الانكليز أثناء

بحثهم عن أبيه الذي كانوا يسمونه الشقي المارق الخـــارج على القانون . وانـه لايدري بالضبط أسقط في معسكر انكليزي ، أم في أحد قوارب الصيد في الطريق الى المنفى . وهو عنـدما يتذكر طفولته وصباه لايشعر بأية ذكرى حسنة نحو أحد من الناس أو نحو قطعة من الارض أو شجرة أو ساقية أو نحو أي شيء . حتى أن أباه الذي يحتفظ له بصورة باهتة لم تكن ذكراه بالنسبة اليه غالية جداً ان لم تكن لاقيمة لها على الاطلاق .

وهو على أي حال لم يكن يعرف عن أبيه سوى أنه أحد الفلاحين أو الأجراء الذين لايملكون غير كد اليمين وعرق الجبين ، وانه كان يكلفه ثمن الحذاء الفلاحي أو طاقية القطن مايزيد عن وزنها دموعاً . وعندما مات لم يبك عليه كثيراً بل ربما لم يشعر بشيء من الحزن عليه . فلقـد مات ابوه والسلام . وكل ما كان قد جمعه خلال حياته القصيرة أخذه معه . واذا أراد أن يتحرى الصدق والحقيقة في هذه القضية فيجب ان يقول انه مات مديناً .. بطفله وزوجته وثمن الكفن .

أما أمه — وهذا هو السبب الوحيد الذي جعله يحرك دماغه بعض الوقت — فيمكن نقلها كأي متـــاع آخر غير ملتصق بالارض . ومسبحتها تعلقها برقبتها وتريحها من عناء كبير ، وأرض الله واسعة وفي ميسورها أن تصلي في أي مكان .

واذا كان مفهوم الوطن ، هو المكان الذي يعيش فيه الانسان عزيزاً حراً وسيد نفسه ، فهنا في « البرازيل » خير مكان . هنا ينادونه الناس « سنيور جاجـه » ويحس في قرارة نفسه أنه « سنيور » حقاً وفعلاً . انه ليس « جاجة » فقـط بل ديك رومي ضخم يشق بمنقاره الحديد . وله هنا بيت كبير بل « فيللا » فخمة، وبستان كجنان السموات ، ومتجر ضخم يلعب في خزائنه الذهب كما يلعب الفأر في حواكير قريتـه . وهو اذا مادعي يوماً للدفاع عن شيء من الأشياء ، فلن يكون دفاعه عن غير بيته ومتجره ومكان سعادته .

ولقد مضى عليه هنا ما ينوف عن عشرين سنة ، تعلم خلالهـا اللغة « السبنيولية » قراءة وكتابة وكلاماً في حين أنه خرج من قريته أمياً أعجم كالحمار .

وهو اذا ما أراد أن يفتش هناك عن الاهل والاصحـاب والأحباب ، فلن يجد شيئاً من كل هذا ، حتى مرتع الصبا الذي يتغنى به الشعراء مفقود أيضاً . لقد كان هناك صبياً حقاً ، غير أنه لم يكن يرتع كما يرتع الراتعون . فقد بدأ يعمل أجيراً منذ أن حمل نفسه ، فلا اصحاب ولا احباب حتى ولا من يحس بوجوده على الاطلاق .

واذا كانت أمه هناك قد استسلمت الى حياة الركود والطمأنينة

والسلام في ظلال خدمة الناس والعيش على فتـات موائدهم حتى مات فيها كل شعور بالكرامة الانسانيـة اذا كانت أمـــه هناك قـــد اعتادت على كل ذلك ،فليس أسهل من أن يعاد إليها رشدها ، وتكفر شيئاً فشيئاً بحيـاة العبيد ، وأن تؤمن بأنها انسانة لها حق العيش والحياة .

وعاد « السنيور » الى رشده دفعة واحدة ، ونظر في ساعته، وتنهد كمقامر خاسر . لقد أضاع نصف ساعة في جنون فارغ . سيقفز الى هناك من الطائرة ، فيضع على قبر أبيه (جرزة) آس، ويجلب أمه معه وينتهي كل شيء .

وراحت الطائرة الكبيرة تحلق بين الغيوم يملأ هديرها الفضاء، وربما الأرض أيضاً ، ثم تهوي دفعة واحدة لتستقر على طبقـة جديدة من الهواء كأنما هي سفينة تتلاطمها أمواج غير منظورة .

وعلى المقاعد المصفوفة يستلقي أناس ، قبعاتهم فوق وجوههم وأيديهم على صدورهم ، ينامون أو يتناومون .

وبين لحظة وأخرى تنزلق في الوسط مضيفة ، رشيقة تبدو من الخلف كبنت مدرسة ومن الامام كجد ضئيل عجوز ، طلي وجهه للتسلية . وخلال ذلك أخذ السنيور محمـد يطل على الارض أو البحر ويفكر . ست وثلاثون ساعة ذهاباً وأخرى إيابا ويومان احتياط . لن يتأخر على أي حال . ان المتجر سيفوته كثير من الارباح . لعن الله اليهود . وهذه القضية كم هم مزعجون ! كان لولاهم خالي البال ، لايفكر في أشياء عميقة ولا سفر ولا مايحزنون.

ألم يجدوا في غير فلسطين أرضاً يسكنونها ؟ لقد قرأ اخيراً في بعض الجرائد الأمريكية : « ان اليهود لا يكفيهم النصف بل انهم بحاجة لأن يقتطعوا أقساماً أخرى ، وان العرب أيضاً لم يرضوا بالتقسيم ، فراحوا يحتجون ويصرخون . يالله ! ما هـــذه المشاكل المعقدة التي تتعب الفكر وتقلق البال ؟ ولم يشأ أن يزعج نفسه اكثر من ذلك ، فاستلقى في مقعده واستسلم لرقاد عميق.

ووجد القرية هي نفسها : بضعة أكواخ طينية متفرقة متطامنة، وفي وسطها بيت ابيض ، يعلو نسبياً عمـــا حوله . التراب نفسه والقش نفسه ، والساكنون أنفسهم . رجال ونساء وأطفال وكلاب، كلهم يسيرون بكلال أو يستلقون تحت أشعة الشمس . لا شيء جديد ، هاهي عشر سنوات مضت في الخارج . بيد أنهم هنـــا لا يحسون بمرور الزمن . سنة ، سنتان ، قرون ، كل شيء هادىء ، الشمس تشرق وتغرب ، والمطر يهطـل أو يتوقف ، والكلاب تعوي وأطفال يولدون ويعمون ويموتون .. خرج الانكليز وجاء اليهود ، والخراب هو الخراب.

وسأل رجلاً صادفه : أين تسكن أم محمد الحاجه ؟.. لمـاذا لا يتكلم هؤلاء النـــاس ؟ أي نكبة سحقتهم .. لماذا ينظرون إلي هكذا؟ علهم يظنونني يهوديا ؟ يجب ان أظهر هويتي . انهم لا يجيبون بل لا يكادون يرونني !.. ونزع قبعته .

أين تسكن أم محمـد الجاجه ؟ .. وينظر إليه الصبي ببلاهة ولا يجيب . يبدو أنه لايتكلم العربية بصورة سليمة ؟ وراجـع سؤاله بينه وبين نفسه .. أين ؟ صحيح انني لا أخطىء . يجب أن أسأل رجلا .. ها هو ذا .. انه يحمل بندقية وقد طرز صدره بالرصاص.

ـ مرحباً ياشب

ـ مرحبا

ـ أنا محمد الجاجة

ـ أهلا

ـ ألا تعرفني ؟

ـ بلا صغرة

ـ ان أمي تسكن هنا .. أم محمد زوجة ابي محمد .. و ..

ـ ماذا تريد ؟

ـ جئت من البرازيل لآخذها ..

وجلس المجاهدعلى الارض ووضع بندقيته في حجره وراح ينظف فوهتها بخرقة بالية .

وأجاب بعد تردد قصير:

ـ انني لست من هذه القرية .. هل تريد أحداً ؟

وتجمهر حول السنيور بعض الاطفال العراة ، وراحوا يرفعون رؤوسهم الى أعلى ، ويغمضون اجفانهم المتورمة ،وتجرأ احدهم فتلمس بنطال الرجل فنهرهم .

ـ كش يا أولاد العمى ..

ولم يجد السنيور محمد بدأ من أن يتخذ طريقـه الى البيت الكبير .. ودخل المضافة .. هنا يصطف رجال مسلحون حتى ذقونهم . ويبدون ثقالاً كالمدرعات . يظهر ان القرية بحالة حرب.

ـ السلام عليكم .

كانوا يتناقشون :

ـ انا وسعيد وصالح على رأس التل وحسين والباقي في الوادي، هنا كمين جيد . سنحيط القرية من الجانبين .. نعم .. احسن طريقة .

وتقدم من السنيور كهل تلتمع في عينيه شرارات حمراء .

ـ أهلا وسهلا .

ـ هل استطيع ان أجد والدتي ؟ أنا ابن ام محمد ..

ـ ها . حضرتك محمد .. تفضل .

وتلاشى الرجل روحاً وجسداً كأنما سحقته قاطرة مسرعة عندما علم بالخبر . لقد ماتت أمه منذ ثلاثة اشهر . وفكر :

ليس لي هنا أحد . أنا غريب .. غريب جداً حتى على نفسي . يجب ان ارجع .. ارجع في الحال.. ان القرية في حال حرب وهي مهددة في كل لحظة بهجوم اليهود .. ماهذه المفاجأة .. امي ميتة والقرية مهددة، وبدأ يحرك دماغه من جديد كما لم يحركه في يوم من الايام .. سيحاول اليهود الهجوم على القرية فاذا عجز رجالهـــا عن صد العدوان .. في هذه الحال لن يخسر شيئاً مادياً ، فـاذا فكر

في نفسه فهو برازيلي ، ليست له أي صلة بهذه القرية ، وسيجد طريقة .. أي طريقة للخلاص . اما أمه التي جاء لينقلها الى هناك فهي الآن جثة باردة تحت التراب .

أمه جثة ميتة لايمكن نقلها .. سيتركها هنا . . حسناً . . وينصرف وحده .. لاشيء .. من هو ؟ .. وتحرك شيء في اعماقه ، شيء ثقيل جداً كالحوت النائم في قاع البحار . وبدأ هـذا الشيء يزحف ويتململ ويحرك زعانفه . لقد افاق . أحس بالجوع والظمأ فقد نام طويلا إثر سكرة من سكرات المـال والعمل . أمه في التراب ، تسكن في الارض وفوقها أحجار وطين وشاهدة بيضاء . وربما أبوه أيضاً . ابوه الذي لم يفكر فيه كما فكر في أمه ، ربما ينام الى جانبها ايضاً . هنا في هذه الأرض يسكن ابوه وأمـــه . وشاء ان ينفض عن رأسه هذه الافكار المقلقـة ، ان يضرب الحوت على أم رأسه . ماذا يفعل ؟ هل يترك كل شيء وينسى كل شيء إلا نفسه ؟ نفسه . نفسه . ولكن هذه النفس ألا يجب ان تمتلىء بشيء ؟ .. ان تختزن ذكرى من الذكريات ، عاطفة من العواطف .. أشياء تسليه ، تسعده ، أو تعذبه ، اشياء تشعره بأنه انسان . وأحس لأول مرة في حيـــاته بأن نفسه عارية .. عارية على الاطلاق ، فارغة قاحلة جوفاء ، لا يملؤها شيء . المال ، الذهب ، الحياة المترفة ، ماذا فعلت هذه الاشياء ؟ لقـد

اسكرت الحوت ، جعلته ينام نومة طويلة . ترى هل هذا هو الوطن ؟ هذا الحب هل هو حب الوطن حب الارض وحب التراب ؟

واذا داس الاعداء قبريهما بأحذيتهم ودكوا معالمهما ، فماذا يحدث ؟ هل يعتبر أن الأمر قد انتهى وان لاشيء يصله بأي كائن من الكائنات ؟ وبعد عشر سنين أو عشرين سنة أو أقل أو أكثر ، اذا أراد أن يفكر في لحظة من لحظات فراغه بأمه وأبيه ، بقبريهما فماذا يحدث ؟ ماذا يكون لو مد يده الى قرارة نفسه فلم يجد شيئاً يقبض عليه ؟ وأحس بدوار هائل كأنما سقط من الطائرة . شيء مخيف .. الذكريات .. انها أثمن مما كان يعتقد ، أثمن من الذهب . وحاول أن يذكر أعز شيء لديه ، متجراً ، « فيللا » ،فتاة رائعة ، ذهباً انكليزيا ، مئات الزبائن ، حفلات رقص وغناء .. موسيقى .. وأغمض عينيه . انه لايستطيع أن يمسك شيئاً . ليس هناك غير الفراغ البشع الرهيب .

ونهض المغترب وراح يجوس خلال المقابر . وبمساعدة بعض المجاهدين العرب عثر على قبرين متجاورين : الأب والأم . وجلس الرجل بين ابويه وطوق رأسه بساعديه ، وراح يتحسس مشاعره بهدوء . وقال للدليل :

— أخي .. هل يتوقع هجوم اليهود ؟

— ربما .. غير أن هنا رجالا يدافعون عن كل ذرة من هذه القرية .

— هل استطيع أن أعثر على بندقيـة . سأنام هنا ، هذه الليلة لأدافع عن أهلي .

— بكل سرور أيها الأخ .. خذ بندقيتي وخراطيشي .. ان عندي مسدسين ، وقنابل يدوية . ونحن بحاجة الى أعوان على كل حال . ابق حيث أنت وأطلق النار عندما تشاهد أحـداً . سنكون نحن في الجهة الاخرى على احتراس .

وخيم الظلام ، وطرزت صفحـــة السماء نجوم ناعمة بيضاء ونقت الضفادع في مستنقع قريب . وحركت الانســام رؤوس الاشجار . وراحت من جوانب القرية تسمع أصوات رجال وقعقعة سلاح . ووقع أقدام رائحة غادية . لابأس . ان المـكان ليس موحشاً الى حد بعيد .

وراح الرجـــل بين أبويه ، بين قبريها ، يستنبت مشاعره ويدغدغها وينميها . إن ذلك شيء جديد بالنسبة إليه . هذا بيت أبوي ، هنا يسكنان ، هنا وطنها في هذه الأرض . ومد يده الى القبر : تراب .. تراب خشن . وغرس أصابعـه في القبر فلذعته شوكة حادة . واستخرج قبضة من التراب وراح يعصرها عصراً شديداً حتى دميت أنامله ، هل لهـــذا التراب رائحة ؟ وغرس أنفه في قبضة التراب . ليست له رائحة معينة ، غير أن

فيه حياة .. حياة أناس ماتوا ، أعزاء عليه . حياة غريبة ، لا تشبه أي حياة من الحيوات . غير أنها حياة ، كحياة الانسان . لقد بدأ يشعر بها ويحسها بل يعيشها بأعمق جوارح كيانه كله .

يجب أن يستعمل السلاح . وأرجع مغلاق البندقية ، وراح يتفحصه . إنها ممتلئة ، تبتسم ابتسامة صفراء . يكفي أن يضغط الزناد لينطلق الرصاص الاصفر . إنه لم يحارب في حياته ، غير أنه الآن مكلف بالذود عن شيء . سيدافع عن قبري والديه .. عن الارض التي تضمها . عن الأرض التي عاش فيها أبواه وسيعيش هو نفسه عليها .

ورفع عينيه ونظر حوله . هل أصابه دوار ؟ إن القبور تتحرك . يبدو أنها تتقدم أو تتأخر ! وهذه الشواهد ، إنها تبرز شيئاً فشيئاً . كأنما هي جنود ينبتون من الخنادق استعداداً للهجوم . وأصاخ السمع .. ما هذا الدوي الهائل ؟.

لا بأس ، سيضغط الزناد عند أول حركة . وبعـــد فليحدث مايحدث . لن يدع أحداً يقترب على أية حال . إن عنده جناداً مملوءاً وانه ليعرف كيف يضغط الزناد .

هاهي الضفادع تثرثر بصخب . أي سعادة تمرح بينها ؟ هل تحس هذه الحيوانات بعاطفة من العواطف ، عاطفة الوطن مثلاً ؟. ماذا يكون شعورها لو أخرجت من مستنقعها وألقيت في صحراء من الصحارى أو في قفر من القفار ؟ . وهذه الأشجار السامقة انها

تهز رؤوسها بنشوة ، فهي تنشب أظفارهـا في الارض ... في أرضها ولن تقوى حتى فؤوس الحطابين على تحطيمها .. لن يؤثر فيها الرصاص أو شظايا القنابل . لقد تذكر أنه كسر ذات يوم غصناً من أغصان الكرمة فراحت تبكي بدموع غزيرة كدمعة الانسان .

والتفت فجأة الى الخلف . من هذا الذي ينظر إليه بهاتين العينين الحادتين البراقتين دون ارتعاشة جفن ؟ وحبس الرجل أنفاسه بل توقف نبضه وأحس شيئاً فشيئاً أن شعر رأسه ينتصب. ونسي أن يضغط على الزناد ، بل نسي نفسه .

... م .. من هذا ؟..

وارتفعت العينان البراقتان وسمع تصفيق جنـــاحين كقهقهة ساخرة شامتة . يالله .. كاد يموت . لو كان هـذا عدواً لخسر كل شيء . يجب أن يتعلم رباطة الجأش ... يجب أن يكون شجاعاً كهؤلاء الناس الذين مر بهم ... لقد بدوا له لأول وهلة انهم فلاحون عاديون لا يعرفون غير زراعـة الأرض ، والنوم في الشمس .

غير أنه لمس ، حين تفحص عيونهم ، أشياء مخيفة . هل هي قوة العزيمة ؟ أم الايمان بشيء أخطر من الموت ؟ إن في عيونهم نيراناً أشد مضاء من أسلحتهم . فهم يحملون أدوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ومحاريث الفلاحة . لابد أن لكل منهـــم

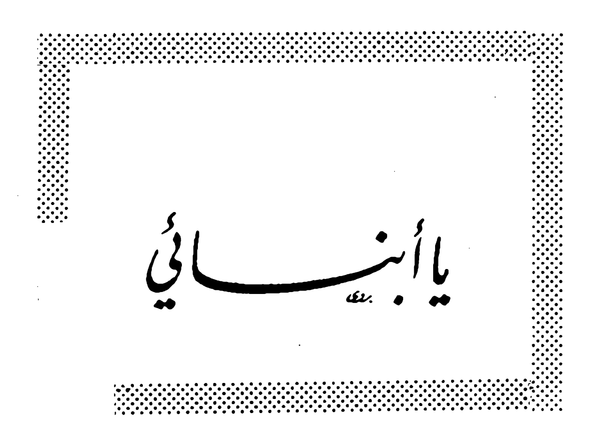
شيئاً يدافع عنه .. أرضاً ، بيتاً ، شجرة ، قبراً . . . أو ذكرى من الذكريات .

وعاد من جديد الى قبريه ، وتحسسهما بيديه ، وعانقهما . هنا يسكن أبواه . هذا ما تبقى لهما بعد طول الكدح والسنين . غير أنه شيء . . ثمين على كل حال . لعلهما يحادثانه الآن وينظران إليه ، دون أن يفهم أو يعي ما يقولان . وتذكر أنه سمع يوماً أن الأموات يتكلمون وينظرون كما لا ينظر الحي ويتكلم . وانقضت ساعة تلتها ساعات طويلة . النجوم في السماء تتغامز بنشوة . والقبور تتحرك ببطء ثم تقف ، والشواهد تنبت شيئاً فشيئاً . والضفادع يزداد ضجيجها والاشجار تخشخش أوراقها . ومن بعيد همهمة رجال غامضة . وكل شيء هادىء .

★ ★ ★

وفي مساء اليوم التالي تلقى متجر المغترب محمد الحاجة في في البرازيل هذه البرقية :

« بيعوا كل شيء وأرسلوا المال الى العنوان التالي : تل الزيوان ، يافا ، فلسطين » .



يا أبنائي

اصطف ماتبقى من الفئة بين البرا كتين المهجورتين . كان الجو غائمـــاً بعض الشيء والأرض مشبعة بالرطوبة ، والحرارة خانقة رغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً . وقد يعجب الانسان لصفات الجو المتناقضة هذه ، غير أن عجبه يزول عندما يعرف أن المكان ينخفض عن سطح البحر مائة وعشرات أخرى من الأمتار أو بصورة أقرب ، يقع خلف تل مرتفع اسمه ناقص ٩٨ ، وبالتحديد يقع المكان في حدود فلسطين .

وقد عاد أفراد ماتبقى من الفئة الأولى – وهي إحدى فئات بعض سرايا الاسناد – من الخطوط الأمامية فجر اليوم ليحصلوا على قسط من الراحة بعد معركة دامت عدة أيام لم يذق أفرادهـا طعم النوم خلالها .

وكان المكان الآنف الذكر يبعد عن الخطوط الأمامية عدة كيلو مترات قطعوها سيراً على الاقدام ، لتعذر سير الآليـات في الليل مما جعلهم ينتظرون اللحظة المناسبة ليتساقطوا على الأرض

اعياء ويستغرقوا في نوم عميق .. النوم ، ذلك الأمل الذي كان في الآونة الأخيرة ـ بالنسبة اليهم ـ جزءاً من أحلام اليقظة وفي الحقيقة كانوا يحلمون بالنصر لكي يناموا ولا شيء غير ذلك ، لأن الطعام كان متوفراً بشكل لم يكن بالحسبان .

كانوا أحد عشر جندياً ورقيباً أول وعريفين و .. آمر الفئة أيضاً . وهذا الاخير وهو ضابط برتبة ملازم ثان ـ بشر بالترفيع الى رتبة أعلى منذ يومين ـ كان يجب ان لا يكون معهم ، منذ ظهر أمس ، غير أنه رفض أن يسبقهم على نقالة أسوة ببقية الجرحى ، كما رفض أن يمتطي أحد بغال الذخيرة ، بل أصر على أن يرافق من تبقى من فئته حتى يصل الى مكان الراحة مضحياً بكل شيء .. بدمه الذي ينزف من قدمه الجريحة ..

وكان الملازم قد أصيب بشظية قنبلة يدوية سقطت في خندقه ظهر الامس واخترقت فخذه اليمنى عندما حاول اليهود القيـــام بهجوم معاكس لاسترداد مركز البوليس في مدخل صمخ ولولا هذه القنبلة لرجع أفراد الفئة أكثر عـدداً بعض الشيء بزيادة واحد أو اثنين على الأكثر ، استشهد أحدهم وأصيب الثـاني اصابة خطيرة ..

وبما أن الملازم آمر الفئة كان يعلم أن فئته ستعود للاستراحة بعد منتصف الليل ، فقد آثر البقاء حتى يعود معها الى الخطوط

الخلفية ليستمتع أفرادها ببعض الراحة والنوم ، بعد أن لف ساقه بضماده الاحتياطي وألبسها كاسية الساق ليحد من سرعة النزيف.

ولكن يبدو أن الجرح كان يستحق عناية أكثر ، لأن الدم المنبثق من الجرح خرق الشاش والقطن وكاسية الساق ، ثم راح ينبع بغزارة فامتلأ حذاؤه حتى الكعب ، وصارت خطواته تحدث صريراً كأنما هي تغوص في وحل رخو مما جعله يتخذ اجراءات أخرى لاتقل عن سابقاتها استهتاراً بالجرح ، حتى أضحت ساقه بعد أن ألبسها كاسية ساق أخرى وشالاً من القطن وقميصاً عتيقاً له ، أضحت كأنها جذع شجرة زيتون ضخمة ومزمنة. لاشك في أن هذا التعبير فاشل ، شجرة زيتون ضخمة ومزمنة . ان الشجرة لاتتألم وهذا هو الفرق .. فقد كانت الحياة تفارقه قطرة اثر قطرة . . كانت الحياة تنتزع من قدمه انتزاعاً وتنسل من أطراف أصابعه بهدوء حتى راح يشعر بها وهي تتبخر دون أن يستطيع عمل شيء حيالها .

كان الملازم لا يزال يقف جانباً ينتظر انتظام الصف ليقول لأفراد الفئة : ياأبنائي ـ وقد يقول شيئاً آخر بهذه المناسبة ، غير أن الرغبة في النوم وبعض عوامل أخرى جعلته يحس بأنه لم يعد يستطيع أن يقول شيئاً حتى ولا « يا أبنائي » .

أين هم أبناؤه ؟. خمسة وأربعون رجلاً أين هم ؟ . . هل

هذه فئته ؟! خمسة عشر رجلا فقط .. كان يتألم .. ولكن هذه الكلمة « الالم » لاتعبر عن شيء . . لقـــد كان يعيش الالم ، والألم يعيش فيه . . الالم بجميع أنواعه . كان يقول ياأبنائي انكم أسرة واحدة .. أسرتي أنا .. أنا ربيتكم .، وهذه هي أسرتي أصبحت الثلث فقط .

عشرون جريحاً وعشرة آخرون ، ثلاثة سقطوا بين القمح ، واحد في رأس الجسر ، علي أحمد المحمد .. كان بطلا ، سهل لرفاقه العبور . ألقى في روع اليهود حراس الجسر أنه على رأس لواء كامل .. فروا عندما تبعهم وفي صدره رشة كاملة من الرصاص .. كلهم أبطال .. أبطال حقيقيون ، إنها أسرة طيبة. وحامد الدرويش ، لا ، انه لم يمت .. ألم يقـل دعوني هنـا بين القمح واذهبوا .. سأعيش .. كان فلاحاً يحب القمح لذا لم يشعر بالموت وهو بين السنابل ، كان يتخيل بأنه سنبلة .. لقد حفر الارض بيديه ودفن وجهـه فيها .. إنه سنبلة. سينبت من جديد . . وفاضل الفلاح ، أنا ميكانيكي . . كان يصرخ وهو ينظف الرشاش الملتهب : أنا ميكانيكي سأرغم الرشاش على العمل. ذخيرة ياملقم ذخيرة من شان الله ، لقد احترقت يداه وفاحت رائحة شوائها بين حضيرة الرشاش ، ووسط المعركة ضحك أحدهم صائحاً : لحم مشوي ياشباب . . لقد سقط وهو يحمل الرشاش

مع منصبه ويقفز به كأنما هو يحمل قشةصغيرة .. كان حضيرة وحده .. ان الشجعان لايموتون .. صحيح لم يمت .. لا لقد مات ..

ورفع الملازم يده الى جبهته ، لقد أصابني الدوار .. وتطلع الى الحيز الذي كانت تشغله فئته قبل أن تتقدم لتحتل المستعمرات..

وصرخ الرقيب الأول ـ انه عصا الملازم ـ كان يقول ذلك ولم يكن كاذباً فهو يشبه العصا الى حد كبير . كان طويلاً ونحيلا ، له وجه ضفدع ، غائر الجبهة جاحظ العينين ، ولعل الصفة الاخيرة لازمته منذ أدمن على الصراخ .. يمينـــاً .. ترا .. صف .. لايزال الرقيب الاول ينشد الانضباط حتى في أحلك الاوقات ، وينبض عرق ازرق في عنقه فهـو يـكاد ينفجر من الغضب . ارفع بارودتك يا .. وابتلع الكلمة ..

وتقدم الملازم من الصف يتكىء على عود معكوف الرأس، يجر وراءه جذعه الدامي . لقد قصرت قامتـــه المديدة بعض الشيء وأصبح مائلا قليلا الى اليسار غير أنه مازال محافظاً على هيئته العسكرية ولا شك أن ذلك كلفه الكثير من الجهد .. جمدت امارات الطيبة والعزم على وجهه وتراكم فوقها ألم مرير .

نظر الى أفراد فئتـه وحاول أن يتقدم ثم وقف يتأرجح ورفع يده في وجـــه الرقيب الاول الذي هب لنجدته .. ولم ينبس بحرف واحد .. ثم وقف يتصبب من وجهه عرق غزير ..

لقد كسبتم المعركة أنتم ورفاقكم .. لا . . يجب أن أقول شيئاً آخر .. كلمة أبلغ .. انني أتألم .. لا لن أقول ذلك . . ضعف .. لقد علمتهم القوة . . الضعف كلمة لا يعرفونها . . أنا غير ضعيف .. ان كبريائي ..

كان الجنود يقفون كالأصنام التي ترتكز على قواعـــد غير ثابتة ، خيل إليه في بادىء الأمر أن عينيه تخدعانه . هذه هي الحقيقة انهم متعبون ولكن .. لماذا لا أتكلم .. يجب أن ينصرفوا..

كانت قيافتهم ، بنظر الرقيب الاول ، مخجلة .وخوذهم لاتزال ملطخة بالوحل ، راحوا ينظرون اليه ، يحدقون النظر الى وجهه، الى عينيه ، خيل إليه أنه سيسقط قبل أن يقول شيئاً ذا أهمية بالغة . ضاعت آمالهم بالنوم والراحة ، لم يعد أحد يفكر في التعب. ضموا بنادقهم الى سيقانهـم العارية بصورة أكثر حزماً ، بدأت قاماتهم تستقيم شيئاً فشيئاً . راحت تقلصات وجوههم تنفرج . وزعوا أثقالهم على القدمين بالتساوي ، بدأت رؤوس أقدامهـــم تتحرك . تنفسوا بارتيــاح . لقد تعلموا أن يستريحوا لتوجيـه ضابطهم فهو يحدثهم كأب .

وظل الملازم صامتاً ، جامداً ، كأنما غرس في الارض ، ينظر في الفراغ المتبقى بين البراكتين . كانت فئته قبل المعركة تأخذ المسافة كلها . انه الآن لايتطلع الى أحد . ربما يتخيل الباقي فيما

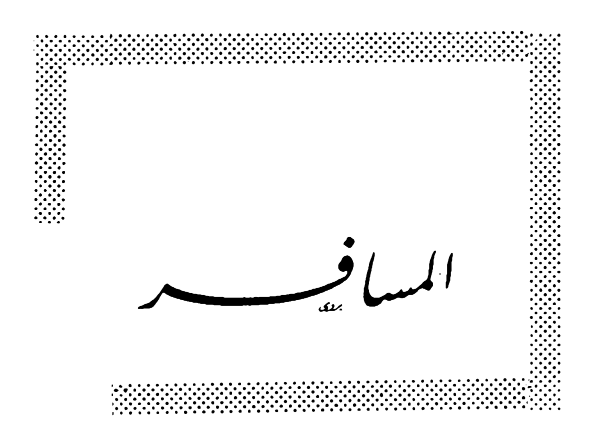
لو عادوا جميعاً .. فاضل وحامد ، وعلي أحمد و.. ولكن لماذا يعودون ؟ . ألم يؤثروا البقاء في الارض التي يحتلونها ؟ . لقد احتل علي أحمد الجسر وبقي فيه ، وفاضل لايزال مع رشاشه ، وحامد مع سنابله .. ونحن عدنا وحدنا سالمين .

وصحا الملازم .. ياإلهي هل يمكن ذلك ؟ ! . هل نمت وأنا واقف ؟ لا يمكن ذلك .. وأحس بأنه يغوص في الارض ، حاول أن يتقدم فلم يستطع ، وحرك قدمه السليمة .لا . . إنني مسمر في الارض ..

وخيل إليه أنه استغرق في النوم مدة طويلة والجنود ينتظرون ..

وتوقفت الى جانب الطريق سيارة ،رسم عليها هلال أحمر، هبط منها جنديان يحملان نقالة .. ولم يلتفت الملازم .. بل أطرق الى الارض قليلا وحرك لسانه في حلقه يجرض بريقه بصعوبة فائقة . ثم تمتم بصوت مبحوح ، لم يقل شيئاً غير كلمة واحدة: « ياأبنائي ».

أكسبها كل مافي نفسه من حب وحياة وألم...


المسافر

لبثت اثنتي عشرة ساعة انتظر القطار . وليس ذلك غريباً في محطة القامشلي حيث تبدأ الحدود السورية التركية . وحين يقول لك مأمور المحطة إن القطار سيصل في الساعة الثامنة فمعناه أنه قد يصل مابين الساعة الثامنة والعشرين وما عليك إلا أن تنتظر هذه الساعات الطوال . ولا يمكنك أن تغادر المحطة حتى يوم القيامة ، لأن القطار يمكن أن يصل في كل لحظة . كانت أمتعتي تتكون من حقيبة كبيرة وفرشة وسلتين . .

ولم يكن ثمّ شيء يضايقني في بادىء الأمر غير ربطة العنق التي كنت أحاول أن أبدو بها وجيهاً بعض الشيء في عيون العرب والفلاحين الذاهب لتعليمهم . . اثنتا عشرة ساعة لست آسفا عليها ، لأن وراءها قصة حزينة قد جرت . كنت خلال هذا الرتل الطويل من الساعات أتنقل بين غرفة الانتظار ومستودع البضائع ومن أكياس الحنطة الى الرصيف ومن غرفة المأمور الى المقهى . . . هذا المقهى الذي شهد عقد صداقات لم

تلبث أن حلت حين كان يختفي طرفها الآخر . . ماذا فعلت خلال هذه الساعات الطوال ؟ لقد وزنت نفسي على قبان البضائع خمس مرات وفي كل مرة كانت النتيجة مخالفة لسابقتها ، وطاردني شخص زعم أنه يعرفني فسلبني شطيرة وكأساً من الشاي ثم هرب .

ثم تعرفت على موظف ادعى أنه مسافر الى دمشق وأنه يعرف والدي وسرد لي كثيراً من مغامراته واستدان مني ليرة ثم اختفى . . وكنت أتفقد أمتعتي فألفيها كاملة وإن كنت أجدها قد سارت خطوة أو خطوتين وتفرقت ثم تجمعت وقد أنزلتها مرتين من عربة البضائع حين ادعى الحمال انها لأحد المسافرين الذي أوصاه بالمحافظة عليها . وحوالي العصر قدم الى المحطة فلاح عجوز يحمل على كتفه زوجته المريضة ، حيث سجاها على الرصيف ، وشرع يهيىء لها وسادة من الاحجار . تعرفت بالمحطة على كل شيء حتى صرت من أهلها ، وحتى الكلب الهزيل الذي كان يتنقل مع الظل جعل يتابعني بعينيه الحمراوين . . ولعله كان يظن أني صديق قديم . تعرفت على الفلاح العجوز وعلى زوجته التي كان يروعني اصفرار عينيها الجاحظتين . وتوطدت بيننا أواصر الصداقة حين أنبأني أننا مسافرون الى قرية واحدة ، وتطلعت إليّ زوجته قائلة : « سأرسل اليك ابني لتعلمه القراءة » وأحببتني هذه كثيراً وابتسمت لي وهي تقدم لي برتقالة كبيرة ..

وظلت تراقبني حتى أطبقت جفنيها ونامت . . وفيما كنت أتفقد أمتعتي في العتمة أحسست بيد خشنة تحط على كتفي وصوتاً متلجلجاً مرعباً يهمس في أذني :

ـ لقد ماتت . .

ـ من هي ؟

ـ ماتت زوجتي ؟

لا بأس منذ دقائق كانت امرأة تبتسم لي وهي تقدم لي برتقالة بيدها ثم حدثتني عن ابنها وقالت لي إن بيتها الى جانب المدرسة وإنني سأزورها لتقدم لي بيضاً ولبناً . . منذ دقائق كانت هذه المرأة تتكلم والآن يقول لي : ماتت . . ماتت . . وماذا يهمني ان ماتت ؟ ها أنذا في محطة مظلمة بعيدة جداً عن أهلي وعن المكان الذي ترعرعت فيه . . وأمامي شيخ عجوز لا أعرفه وبعد انتظار ساعات طوال . . أجد الى جانبي امرأة ميتة وكانت حية منذ أمد قريب جداً .

تُرى من أنا ؟ أنا ذلك الشاب الذي سافر منذ ثلاثة أيام من بيته تودعه أمه بقبلاتها ودموعها ؟ كان الشيخ يقف أمامي وهو يرتجف كأنه يستمد مني المعونة :

ـ ماذا نفعل الآن ؟ ستساعدني أليس كذلك ؟

يالسذاجة هـذا الشيخ ! هل يظنني ضابطاً في الجيش ؟ أم

يظنني بطلا من أبطال الاساطير الذين لا تروعهم امرأة تموت الى جانبهم ؟ لعن الله هذه الربطة لقد جعلتني رجلاً حقاً . وامتدت يدي الى عنقي ونزعتها ثم دسستها في جيبي . إن عاد هذا الرجل فسأبكي أمامه . . إنني خائف أكثر منه . . ولكن ماذا لو حملني على مساعدته ؟ سوف استغيث . . سوف أهرب . . كان يجب أن يعرف من أنا حين لم أجرؤ على السؤال والاجابة .

وقدم القطار . . قدم يحدق حواليه بعيون خابية حمراء ، أضناها السهر والانتظار . قـــدم يجر وراءه رتلاً طويلاً من العربات الثقيلة ، مردداً أنفاسه المحروقة غيظاً وغضباً ، أما عربة المسافرين الوحيدة فكانت مكتظة معتمة .

وألقى الحمال بأمتعتي من النافذة فسقطت فى الممر . . لا بأس سنصل في وقت ما الى القرية أنا والشيخ والمرأة الميتة . . سنصل نحن الثلاثة بموكب حافل . . والآن يجب أن أفتش عن مكان لأمتعتي . وانحنيت أبحث تحت المقاعد بين أقدام النائمين وفوق الرفوف حيث أنفـــاسهم تلفح وجهي وشخيرهم يطغى على شخير القاطرة . وفي كل خطوة أخطوها كنت أتعثر بقدم . فتنهال علي الشتائم بلغات عديدة لا أفهمها . . وكانت لا تغيظني ، كنت أتحرك كالآلة . . كالأسير . . إن شيئاً طغى على حواسي جميعـــاً . . وسفحت امرأة على وجهي بصقة كبيرة ثم غطت في نومهـا من

جديد . . ولم يضايقني قشر البيض والموز والميـاه المراقة على الارض كما ضايقني وجود أمتعتي في منتصف الممر .

وبكى طفل فجعرت أمــــه في وجهه كالبقرة . . ثم نامت ولكنه لم يسكت فهزته . . ثم عصرته . . فاحتبس صوته وأخذ يئن فصاحت به غاضبة ثم أفلتت منها صيحة مرعبة . . كنت أنا أتحرك وأسمع ولكن كالنائم . . وغيّر بعض المسافرين وضعهم ، ثم عادوا للنوم وشخروا من جديد . ولكن ما إن بدأ القطـار يتحرك حتى كانت العربة قد انقلبت الى مايشبه السفينة الغارقة . كانت الاصوات تتردد ، متنافرة متباينة ، من خليط من لغات حية وميتة . . وبين الجميع كان صوت الفـلاح الشيخ يصيـح : « لاتخافوا . . مسكينة !. مريضة !. انها بعيدة عنكم . . اسكتوا من شأن الله سيسمعونكم » لاأدري من أين أتى الفلاح بزوجته الميتة ؟ غير أني أدركت أن أول من أحس بها هو وجه الطفل النائم حين اصطدمت به قدمها الباردة . ولو أدرك الطفل ماهذا الذي لطمه على وجهه لآثر الصمت . . وأراد رجل أن يعود الى مكانه فتعثر بأمتعتي ثم انكفأ على وجهـه وحاول النهوض . فمست يده وجه الميتة فعوى رعباً وهلعاً . . وانطفأت الاصوات وسكت كل شيء . ماعدا عجلات القطار فكانت تردد مسرعة : ميتة . . ميتة . . ميتة .

وكانت تدور وتدور مولية هاربة كأن شيطاناً يهددها بالفناء ، كأنها تسرع لتتخلص من الميتة التي تحملها وومض نور من آخر العربة ثم اشتعل عود ثقاب ونفضت عيناي العربة : كان المسافرون جميعهم قد جلسوا منتصبين كجثث محنطة. وانطفأ النور ثم أخذت لفافة تحترق وتنتشر حولها دخاناً ثقيلاً . واشتعلت لفافات أخر شرعت ترتفع وتنخفض كأرواح تائهة ومن فوقها عيون محملقة فيما حولها ، يشع منها الذعر والرهبة ، لقد استيقظ المسافرون جميعهم ماعدا واحدة فقد بقيت ملقاة في الممر جانب فرشتي التي سأنام عليها .. واطل من باب العربة فانوس صغير تبعه هبة ثائرة من الهواء البارد ثم أغلق الباب . فتوقف قاطع التذاكر عند المقعد الاول ، وامتدت اليه الأيدي بالبطاقات فبدأ مقصه يقضمها كفأر شره . وسمعت صوت امرأة تقول له شيئاً . . فلم يجب ولعله لم يفهمها وتابع سيره حتى وصل الى منتصف الطريق .

ـ ماهذا ؟

وأدنى فانوسه من الأرض .

ـ مريضة ياسيدي .. مريضة لم نجد لها مكاناً !

ـ اجلسها جيداً .. لقد سدت الطريق .. أين تذكرتها ؟

وناوله الشيخ بطاقتين قضمها بمقصه وأراد أن يخطو من فوقها فتعثر بقدمها الممدودة

ـ اسحبي رجلك ..

وتوقف لحظة ثم استدار الى الخلف وسلط نور قانوسه الى وجهها وقال بهدوء :

ـ انها ميتة !

ـ لا والله ياسيدي .. لا والله مريضة .. فقط.

وخيّل إلي أن الشيخ يبكي .. يا الله سوف يقذف بها من النافذة . ومد الرجل يده الى صدرها وشرع يهزها بعنف ثم نظر الى وجهها وهز رأسه .

ـ انك تكذب .. هذه امرأة ميتة ستنزل انت واياها الآن .

وتابع سيره ولم يتردد الشيخ اذ سرعان ماتبعه واختلى واياه في الظلام .

ثم عاد يحكم وضع محفظته ..

ورجع بعد برهة قاطع التذاكر يصحبه المفتش . ودار هذا على المسافرين يتفحص بطاقاتهم ثم توقف عند المرأة الميتة :

ـ ما هذا ؟

ـ امرأة مريضة ياسيدي.

وأراد المفتش ان يتوقف فسبقه مرؤوسه بالفانوس . وبقي الظلام والصمت وحدهما يتعانقان وسط العربة المتمايلة .

وتوقف القطار ونزل المسافرون الثلاثة . . وتطلعت حولي

ترى أين القرية ؟ لا أرى حولي غير بنـــاء قاتم وسط الفراغ والصمت والظلام .

واقتربت من مأمور المحطة وكنت أرتجف من البرد :

ـ أين القرية ؟

فأجابني بعربية ركيكة :

ـ القرية بعيدة .. من أنت ؟

ـ أنا معلم القرية.

فهز كتفيه ومضى الى غرفته وهو يسقط رأسه في جسده ..

هـأنذا أقف في مكانٍ ما من هذا العالم .. مكانٍ بعيـدٍ بعيدٍ جداً .. لم تطأه قدم احد من أجدادي السابقين ، تلفني وحشة الليل ويصفر في أذني الهواء الذي يعزف على أسلاك الهـاتف موسيقى موحشة مرعبة .. وها هي ذي الى جانبي امرأة ميتة ، ملقاة على الرصيف كصرة مفكوكة ضاع صاحبها .

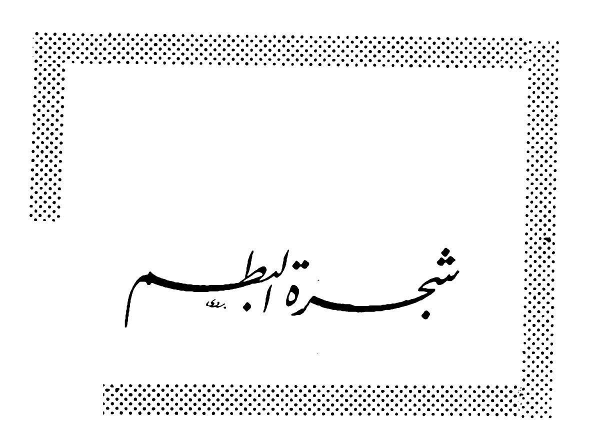
لقد تركها زوجها ليبحث عن دابة ، ربما تركها لي لأحرسها ونظرت اليها .. أحقاً انني اقف الى جانب امرأة ميتة ؟ نعم هاهي الريح تداعب ثيابها ، وتكشف عن ساقيها ، وتبعثر شعرهـا . شكراً على برتقالتك ايتها الميتة .. لقد أكلتها ، وشعرت بالغثيان فاندفعت الى مأمور المحطة . ترى ما هذا الذي يتكلم تك .. تك.. تك .؟ انها الطابعة اللاسلكية ، لا بأس ان عند الرجل مايؤنسه .

وقرعت الباب .. قرعته مرتين فسمعت غمغمة .. وفتح الباب وعاد الرجل الى فراشه دون أي سؤال أو جواب .. ماذا فعلت لك ايتها العواصف الثائرة ؟ لماذا تتبعينني الى هنا ؟ لماذا تحاولين خلع الباب ؟ أقسم لك أنني بريء من دمها ، لست أنا الذي قتلتها ، أخرج من ثيابي أيها البرد القارس ، انني ارتجف.. لست أنا ، اني معلم .. سأعلم ولدها .. سوف ازورها لتطعمني بيضاً ولبناً .. كلا لم تمت ، اقسم لك انني بريء .. بريء .. بريء .

وأفقت .. كان الرجل يدخن الى جانبي وسمعت في الخارج اصواتاً ونحيباً يتسللان مع نور الفجر . . وسرنا الى القرية . . كانت الميتة ملقاة « كالخرج » فوق ظهر الحصان ورجلاها تتأرجحان على الناحية اليمنى وظهرها الطويل يعمل في خاصرة الحصان كالمهماز .. وهذا يسرع ويسرع ونحن نعدو وراءه . .

وسبقنا حصان الميتة ، ثم اختفى وراء خط منحدر آخر . . ونظرت الى بعيد .

كان الدخان يتصاعد من افران القرية ، والثيران تسير الى الحقول ولا شيء يعكر الصمت غير صوت حدوات الحصان الهارب .


شجرة البطم

يعاودني الحنين الى تلك الشجرة ، فاقطع مسافات شاسعة كي اصل اليها . هذه الشجرة مثلنا نبتت من التراب وارتفعت برأسها الى الله فعلمتنا كيف نحب الله والتراب .

إنها تشمخ في أعالي تل العزيزيات ، جبارة ، عاتية ، منتصبة دائماً ، صامتة لاتنطق ، ولكنها تختلج أحياناً اختلاجات معبرة عندما تصفر الرياح من حولها وتدور من خلال اغصانها العارية ثم تنفلت هاربة الى الشرق . فلا تخشخش فيها ورقة واحدة . في يوم ما تساقطت اوراقها ، ورقةً ورقةً ، كالدموع عندما شوّهت الحرب قوامها ، فثقب الرصاص صدرها وشقق لحاءها ، أما جذورها فبقيت متشبثة بالارض تريد ان تحتفظ بالتراب الذي تحيا منه وتعيش فيه ، والشيء الوحيد الذي يحزنها انها لاتستطيع أن تظلله .. وكان لايزال يوجد في أعلى قمتها بضع وريقـــات مثقوبة تطير حولها العصافير ، ثم تغادرها خائبة الى شجرة اخرى لتبني عشها الأخضر .. يمر الجنود من حولها كل صباح يخبون

بأحذيتهم الثقيلة وبأيديهم قصعات الطعام وينظرون اليها نظرات عابرة ، ثم يتابعون سيرهم . يعتبرها بعضهم محارباً عظيماً خاض معارك طويلة خرج منها رافع الرأس ، ونقشت على صدره أوسمة النصر وبعضهم الآخر يتخيلها أماً عجوزاً فقدت أطفالها فرفعت أذرعها اليابسة الى السماء .. هنالك جنود حفروا اسماءهم على قشرها ثم عادوا يقرأون ذكرياتهم بأكمام فارغة ..

واتكأ عليها آخرون بأرجلهم ثم رجعوا يزورونها على عكاز . بدأت الحرب وتوقفت ، واستشهد جنود ورجع الباقون بأوسمتهم ، وظلت هذه الشجرة تحرس الحدود عالية راسخة ، تدس أنفها بين النجوم ، تهزأ بالارزاء التي لم تستطع أن تخدش جذورها وقد اقسمت ان تحافظ على الارض التي نبتت فيها وعاشت لها .. ويتتابع الليل والنهار والفصول الاربعة وشجرة البطم حيةٌ خالدة لايؤنس وحشتها غير ذكريات قريبة وشبان صغار يقرعون أرضها كل يوم بأحذيتهم المسلحة بالمسامير . .

منذ أربع سنوات ، والى يمين هذه الشجرة ـ قبل أن تشيخ ـ اصطفت مفرزة الدفاع على تل العزيزيات .. كنت اقف شارداً مستنداً الى الشجرة عندما سمعت احدهم يقول لرفيقه وكأنه يعني حديثاً آخر :

ـ الهواء حار خانق سينشط الناموس هذه الليلة .

وكان آخرون يتحدثون بأصوات خافتة . والرقباء يطوفون برشيشاتهم حول حضائرهم يجرون التفقد .. وطرق سمعي اسم جندي وفد جديداً الى المفرزة ينادى مرتين فلا يجيب ، وهزني اسمه وجعلني اصغي وتمنيت لو ابحث عنه .. كانت المفرزة تضم جنوداً من جميع الاعمار ولكن هذا الجندي بالذات كان يشعرني أنني لا أزال طفلاً صغيراً . ماذا أقول لهم الآن ؟ لن أقول شيئاً ، سأحدثهم عن انفسهم أثناء التفتيش فحسب .. ولكن عن أي شيء أفتش ؟ أعن زر مقطوع أم عن حذاء وسخ ؟.. ان الاشياء لاتهمنا هذه الليلة مادامت جيوب الرصاص منتفخة والصدور تتوقد حماسة وشجرة البطم وراءنا والعلم العربي يرفرف صاعداً ، تمد شجرة البطم اجنحتها اليه .. سأقول لهم :

ـ اسمعوا ايها الاصدقاء ، سنحارب معاً في صف واحد ، رئيساً ومرؤوساً ، نسكن هذه البيوت الطويلة التي حفرناها في ارضنا ، ان سعادتكم جميعاً هي سعادتي مادمتم انتم سواعدي وحواسي ، وهذه شجرة البطم من ورائنا جميعاً تمدنا بالثبات والرسوخ في الارض التي نبتنا فيها ..

ولكن لا .. أريد ان أتحدث عن شيء جديد . . ماذا اقول ؟. كانت بنادقهم مضمومة الى جوانبهم كقطع من اكبادهم وعيونهم تومض بالافكار التي يضمرونها .. ووقفت امام العريف

حسين وكانت السنون قد منحته رتبتة على جبينه وخديه قبل ان يعلق رتبته على ساعده .. فيم تفكر ايها العريف ؟

- لا شيء ياسيدي .

وقال لي الوكيل من الخلف :

- لقد صار أباً ياسيدي .

- صحيح .. ما اسمه ؟ . سمه شبلا

- .. لاأدري بعد ياسيدي ان كان ذكراً أم أنثى .. فقد دعيت الى الصف قبل أن أتم قراءة الرسالة ..

لابأس ، هناك وليد ينام في سريره لايحلم بشيء وهنا أبوه يحلم به ويتساءل عن لون عينيه ، وقد يعود يوماً هـذا الأب ليضم ابنه الى صدره وقد لايعود ، فينشأ الطفل ويصير رجلاً يتحدث عن أبيه .. جميل أن يكون للانسان ابن على كل حال لقد قالت لي أمي ذات يوم : يجب أن تتزوج ياولدي .. اقتصد قليلاً . وسألبي رغبتها لو تحققت ثلاثة شروط صغيرة : الموافقـة والمال وأخيراً الزوجة .. وعلى كل ان لهذا الجندي الذي يقف في الخلف رأياً في ذلك وتقدمت اليه .

- أين كنت يا ؟..

أجاب الوكيل من الخلف :

- لقد تأخر عن الاجتماع ..

لا أدري أكانت مصادفة عجيبة أم خطة مدبرة أن يجتمع ابن ضابط وأب جندي في مفرزة واحدة . الافضل ألا أفكر في ذلك ، يجب أن أكلمه كرئيس وعليه أن يطيع . وبعـــد ذلك سأخلو الى نفسي وسأحاسبها سواء أكنت مخطئاً أم مصيباً . نظرت الى عينيه وأنا أحبس في حنجرتي تأنيباً شديد اللهجة :

ـ عليك أن تحضر لمواجهة آمر السرية .

لم أستطع أن أقول غير ذلك سوى أن أنفلت من الصف متجهاً نحو العريشة ، هائماً على وجهي كمهان راح يثأر . . وفيما كان رأسي يصطدم بالسقف الواطىء سمعت صوت الوكيل يعطي إيعاز إملاء السلاح . . انها تجربة قاسية كلما رفعت رأسي امامه شعرت بالانحناء ، وكلما علا صوتي فوق صوته أحسست ببحة ، كان يأمرني ان اذهب في الليل لألبي له طلباً ، والآن آمره ان يواجه آمر المفرزة ، ولكن مايعزيني هو اننا نحارب معاً ـ الأب والابن ـ وفي صف واحد . من العسير علي ان انسى هـــذه الابتسامة التي كانت تعلو شفتيه . كنت اعرفه كجندي . . كأب اما كمرؤوس . لابأس . ودفعت رأسي بين كفي . . ومن خلال اصابعي لمحت شبحاً يحني هامته ثم يدخل وعلى قيد ست خطوات وقف والدي امامي وقفة استعداد .

ـ ينبغي ان يعلم الجميع انني أنا ابنك وأنك انت والدي . .

ـ تمهل ياولدي .. انها فكرة لم تنضج بعد .

لا .. بل يجب ان يعرفوا جميعاً .. لاتضحك هكذا ، من المستحيل ان تدرك مشاعري .. انني اتعذب .

ـ أكاد أشك في أنك الشاب نفسه الذي كنت اعرفه . ألم تمر بك ظروف قاسية بعد ؟ لم اذن هذه الثورة ..؟ ترى الا تدرك كم أنا فخور بك ؟. أيجب علي أن أفسر لك ذلك ، سوف تدرك كل شيء غداً . وما الفائدة من ان يعلم الجميع أنك ولدي ..

ـ يمكنني على الأقل أن اتخلص من هذه المشاعر التي تخنق صدري .

ـ اسمع ياولدي يا رسلان .. ياسيدي الملازم .. انني جندي وانت ضابط ، هل تدرك ماسيحدث لو علم الآخرون غير ذلك ؟ سيقولون انني أبو الملازم رسلان وسيقولون انك ابن الجندي فلان ، وسيصهروننا في بوتقة واحدة ..

وصمت والدي ووقفت أتطلع من كوة العريشة الى الجنود وهم يزحفون الى كمائنهم متفرقين في حضائر طويلة متسترين ينبضون كشرايين الدماء التي تنبع في صدر الحياة .. لا ادري فيم كنت افكر ، حسبي أن أخفي وجهي عن عيني والدي الحادتين اللتين تـكادان تخترقان رأسي لتعلما مايجول فيه ، وسمعت صوت احـد الجنود يقول لرفيقه :

ـ تُرى هل لها عينان زرقاوان ؟.

ـ ولكن عيني سوداوان .. وعرفت انهما يتكلمان عن الوليد .

ـ ألم نقل أن لأمها عيناً من زجاج ؟

وعرفت أنهما يتكلمان عن الوليد ورن فوق الجميع صوت خشن مألوف:

ـ هسْ ، بلا لغو خمس خطوات مسافة دون قرقعة . .

ودلف الرئيس (نضال) الى العريشة بقامته الممشوقة وقال بخشونة :

ـ ماذا يفعل هذا الجندي هنا ؟ يمكنك ان تأمره بالانصراف.

والتفت الى والدي فلم أجده ..

ـ اسمع يارسلان .. ان رفاقنا اخترقوا الجبهة من قطاعين وهم يتقدمون باستمرار وفئات اليهود تتحطم على صخورنا اليابسة وتذوب فقاعاتها . وهم كشكل جسم اذا ماضغط احـد اطرافه اندفع الطرف الآخر منه . اريد ان تكون هذه الليلة حاضر البديهة صافي الذهن ..

ثم اقترب قليلا وتفرس في وجهي :

ـ مابك هل يؤلمك رأسك .؟ انني لا أحب العيون الحمر .

وتمنطقت بمسدسي وهممت بالخروج فسألني :

ـ هل عينت راصداً أمامياً ؟

ـ رصاد الامس انفسهم

- نبئت ان هذا الجندي الكهل يحب السهر ، فعينه حتى منتصف الليل .

وكان يشير الى والدي.

ووقفت فوق فوق صخرة عالية ابحث عن ذرة هواء . . وزحف الصمت مع الليل وجثما على التلال المجاورة وغطيا السهول والأودية .. وترجرج الشفق الاحمر قليلا فوق جبال الجليل ثم حجبته غيوم بيضاء واصبح البصر مهما امتد لايرى الى ابعد من خمس خطوات دون ان يميز الحجر من الخوذة بل يخال ان الحجارة تتحرك ..

في هذه اللحظات يتنحنح المرء ليسمع صوت نفسه ، ويظل صدى حنجرته يدوي طويلا حتى يسمع انين ناموسة جائعة فيتسلى بانغامها الكئيبة حتى تهبط فوق وجهه فيرفع يده بقوة ثم يسحقها وسواء أأحس بدمائها اللزجة تلوث وجهه ام لم يحس فهو لا بد سامع صوتها من جديد تئز فوق رأسه . وأخذ الوقت يزحف بطيئاً ثقيلاً يجر وراءه حلك الظلام والصمت .

ورجعت الى العريشة فوجدت الرئيس يمزق بعض الاوراق وسألني:

- كم تحمل من الخرطوش ؟

- خمسين طلقة .

ـ خذ خمسين أخرى ، تفقد خطوط الهاتف سأتصل بك في الكمين الايمن . ابق هنا ريثما تأتيك اوامر جديدة . انزل جنديين الى الوادي وزودهما بفشك الاشارة .

ـ سأفعل ذلك ياسيدي .

لصقت كعبي ببعضهما ورفعت يدي ثم استدرت ففاجأني :

ـ من هذا الجندي الذي كان هنا ؟

ورن جرس الهاتف فتلقفه بسرعة ووضعه على اذنه: ألو.. ألو.. نعم.. من ؟ألو.. وصمت قليلا ثم هز السماعة ونفخ فيهاوقد اربدت سحنته . وهزها مرة ثانية وصاح ألو . . ثم القى بها الى الارض مهمهماً :

ـ لقد قطع الخط ..

وتقدم خطوتين ثم رجع وجال بنظره وسط العريشة واطفأ الشمعة . واتكأت جانب الرئيس الى الشجرة ، وقال لي بسهوم :

ـ هل احدثت بنفسك هذه الشجرة اثراً ؟

ـ أراك ياسيدي تشاركني التفكير فيها . قال : نعم انها جندي عظيم (وحاول ان يعانقها ويهزها ..)

ـ انها راسخة كالطود حبذا لو سلمناها مدفعاً و ..

... الهاتف مرة ثانية . وعاد الرئيس بسرعـــــة وسمعته يصيح : انتظروا لاتطلقوا النار .

ان من مبادىء احتقار العدو والاستهتار به ان تدعه يتقدم اليك وأنت مكتوف اليدين ثم على بعد خطوة واحدة تعالجه بلطمة شديدة فان لم يمت من اللطمة مات من الخوف .

كانت رشاشاتنا مسلطة على الوادي الأيمن والسهل المنبسط أمام التل . وكانت نيرانها متشابكة لدرجة يصعب فيها تسرب نملة ضائعة . شيء واحد يجعل أزندة الأسلحة تنحني الى الخلف فتلهب الارض وتحصد ماعليها . هذا الشيء هو طلقة من الراصد أو صيحة انذار . وكنت في كميني عينين ثاقبتين وأذنين تستنطقان الحجارة الصماء . واقتربت من الرامي هامساً :

ـ كيف حال رشيشك ؟

ـ لقد نفد صبره وصبري منذ عشر دقائق وأنا أسمع ارتطام رؤوسهم بالاحجار .. اني أخشى ..

ـ ماذا ؟

ـ أخشى أن يكون الراصد .

وفجأة نطق الراصد .. إذ انطلقت بندقيته خمس مرات متعاقبة وتلا ذلك انفجار نيران بندقية رشاشة بعثت رصاصاتها المتساقطة حولنا نوافير صغيرة من التراب وقطع الحجارة . وأزّ الرصاص وصفر ، وراحت القذائف تمزق الارض غضباً وتصرخ في انطلاقها صراخاً يبدد سكينة الليل والسماء .. وكأنما فوجىء العدو

بالشياطين تنبع من بين أقدامه فأخذ يتراكض ويدور حول نفسه بهياج شديد . وارتفعت أصوات صادرة آمرة ، مملوءة (بالشينات والميمات والخاءات) ونكص اليهود مهرولين متلفتين كل ناحيه مقوقين كالاوز ، وانطرحوا متشبثين بالاحجـــار والرصاص يتواثب من حولهم كنفوسهم التي تتطاير شعاعاً ، وارتجفت الارض وانطلقت قذيفـــة عدوة تصلي التل ناراً محشرجة ، وحبست رشيشاتنا أصواتها تستعد لصيحة جديدة . وكمن يخبط خبط عشواء أخذت قذائف المدفعية العدوة تتساقط من ورائنا محدثة أصواتاً مجنونة وانقلب الليل الى جحيم . وفي هذه اللحظات لايقاس الوقت بالدقائق بل بمقدار المفاجآت والحوادث .

ـ ماهذا الصياح ؟ . .

ـ انه الراصد مازال في الأمام ويأبى أن يتراجع .

ـ كيف ، هل جن ؟..

ـ كلا ولكنه ج . . جرح .

وتحت شجرة البطم كان ابي يستلقي في نقالة خشبية ، وقذائف العدو تتساقط باستمرار تظهر في نورهـــا الأزرق خوذ الجنود راسخة كالابراج براقة كسنان الرماح ثم تنفجر كصيحة جريح يائس فتهتز شجرة البطم وتسقط منها بضع أوراق جافة . .

ونهض أبي من النقالة يريد أن يلقي بنفسه من أعلى التل . .

ـ لماذا ؟ لماذا أتيت الى هنا .. ألأحمق كالاطفال ؟..

ـ مهلاً ياأبي . انتظر قليلا سنرجع الآن معاً .

ـ أراد الكلاب أن يفاجئوني . . ارفعوا ايديكم عن صدري لست جريحاً أريد ماء فقط ..

وأخذ يزدرد ريقه كما تزدرد ورقة نشاف الماء .

ـ افتحوا الباب .. أخرجوني من هذه الغرفة المظلمة .. وسبح وجهه في عرق بارد ..

ـ أعطني المطرة ، انها هنا (وتحسس جنبه) آه .. أين هي ؟ سرقت .. سرقوها ؟..

ووضعت فوهة المطرة بين شفتيه وأخذت أسكب المـاء .. ففتح عينيه وأخذ يبتسم :

ـ والآن ماذا تريد مني ؟ لـماذا لاتتركني أذهب في طريقي ؟ اتركني أمت على السلاح .. أين بندقيتي ؟ أراني أحنث باليمين ..

وأغمض عينيه وأخذ يغمغم ..

ـ لقد أقسمت في يوم ما ألا اموت إلا على السلاح ، وألا أهجر رفيقي في المعركة وأن أناضل حتى الرمق الاخير .. وأن.. أين البندقية ؟

ـ هاهي خذ .

ـ دعها الآن كيما أستريح .. هل تظنني جرحت ؟ (واستأنف صلاته) وأقسمت أن احترم دين أجدادي أين جدي ؟ لقد شنقه

الاتراك وأين جدك ؟ أعدمه الفرنسيون .. لقد ماتوا دون أن يتركوا لنا سوى الأمل ، آمالهم جميعاً .. أين المطرة ؟

وسكبت فوق وجهه الماء ، فتنهد واطبق شفتيه .. وأخذ ينظر الي ..

لقد مات جدك دون أن يطلب مني ان أبني له قبراً من رخام ، كان يريدني فقط ان أتم الرسالة التي بدأها . هاأنذا لم أمت .. ولن أموت مادمت انت ولدي، ستسلك الطريق نفسها.

ورفع يده وتحسس وجهي ..

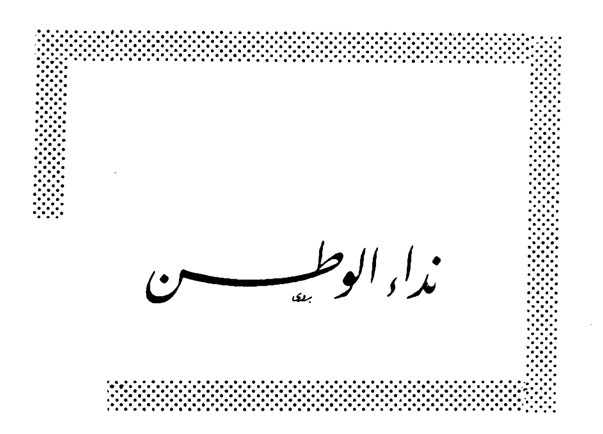
دعني أسترح ولاتجعل لموتي ضجة . اننا نفقد شرف التضحية عندما نعول فوق رؤوس شهدائنا دعنا نمت بصمت فذلك عمل خالد.

ورفع رأسه ومد يده الى الارض وغرس ساعده في التراب.

ـ انظر الى هذا التراب ، كنت اسكن فيه فسمعته يناديني بصمت انني ظامىء . اسقني قليلا من دمك لانبت لك شجرة الحرية ..

وضم قبضته الى صدره واطبق جفنيه وغمغم : ايتها الشجرة ضميني اليك انت التي لن تنامي يوماً على نقالة .

لاتزال شجرة البطم منتصبة صامتة ، وتل العزيزيات لم يفقد سوى قبضه من تراب اطبق عليها والدي بأصابعه وظل يضمها الى صدره الدامي وروحه تصعد الى السماء .


نداء الوطن

امتدت اصابع طويلة ذات عقـــد بارزة الى صدر ابراهيم القابوني ، وفتحت شق القميص الازرق الذي يرتديه على اللحم وبعد ان تنفس قليلا من الهواء النقي غير الممزوج بتراب الحقل أحس بأن قواه المتلاشية بدأت تعود اليـــه فخطا خطوتين ، وارتمى في أحضان شجرة الجوز العتيقة التي قال له أبوه ذات يوم بشأنها قبل أن يموت :

ـ انظر يا ولدي يا ابراهيم لاتقل انني تركتك وحيداً ، انها تحمل ثلاثة قناطير كل سنة فحافظ عليها .

كان ابراهيم فلاحا ترعرع في الارض وعاش منها واليهـا ، فقد استنشق غبارها منذ نعومة اظفاره ، واختلط لعابه بترابهـا عندما كان طفلا ، وظلت هذه الارض تغذيه كما تغذي نباتاتها حتى جاوز سن الشباب واشرف على الشيخوخة .

وكان في هـــذا اليوم الحار من أيام آذار يزرع شتلات

الخضرة في حقله الصغير ويفصل بينها بواسطة أخاديد صغيرة ليعمل على فتح الساقية التي تروي الشتلات عند الانتهاء من عملية الغرس.

وفي تلك اللحظة كان قرص الشمس الملتهب يتوسط كبد السماء ، ويصوب سنان أشعته الواخزة عمودياً على الارض ، حتى ليكاد يحرق ماعليها ..

ولاك ابراهيم اللعاب المترب في فمه ، ثم مد يده الى ابريق الماء الفخاري القابع الى جانبه ، وافرغ نصف محتوياته في جوفه وما كاد يبتلع ريقه الرطب حتى سمع صوتاً قريباً يناديه :

ـ قواك الله يا ابراهيم..

فالتفت ناحيـــة الصوت ليرى فارساً ملثماً ، تلتمع صفوف الرصاص وأجندته حول صدره وخصره ، وقد احتضن بندقيته القصيرة أمامه فعرف على التو أن مخاطبه هو حامد الطحان المعروف بأبي الموت وقد ظهر فجأة بعد ان اختفى فجأة دون سابق انذار .

وأجاب الشيخ من صميم قلبه مرحبا :

ـ الله يقوي شبابك ياأبا الموت تفضل.. حَوّل. وكان الفارس قد وصل الى الشيخ بينا كان حصانه ينخر من فتحتي خطمه بشدة وعصبية وقال الفارس:

ـ بالله عليك يا ابراهيم أممكن أن تسقيني دمعة ماء ! .

ومد الشيخ يده الى الابريق بلهفة وراح يهزه مطمئناً ..ثم قال:

ـ ماتكرم عينك .! الله يعطيك العافية .

وأراد أن يسأله بضعة اسئلة على سبيل الاطمئنان غير ان الفارس لم يمهله . اذ ما كاد يعيد الابريق الى صاحبه حتى جمح حصانه فجأة واختفى وراء سحابة من الغبار في طريقه الى القرية.

وهز الشيخ رأسه متمتماً :

ـ الله يكون في حراستك يا ابني ..

ويبدو ان دعوة الشيخ كانت متأخرة بعض الشيء ، اذ ماكاد يفكر في أن يستلقي قليلا ليستروح شيئاً من القيلولة ، حتى سمع هدير محرك يتجـــه صوبه ، والتفت بتؤدة الى الخلف ليرى بعينيـــه الكليلتين سيارتين مصفحتين بلون الارض تتجهان اليه وقبل أن تتوقفا تماماً هبط من احـــداهما ضابط فرنسي وابتدر الفلاح بلهجة مفككة ركيكة :

ـ انت بتعرف واحد مسلح راكب حصان مر من هنا . ؟

ووقف الشيخ محني الظهر يتكيء على شجرته ويتأمل جزمة الضابط وسوطه المغروس في فتحتها ماداً لسانه الى اعلى مهدداً كلسان افعى سامة ، وعلى خاصرته تدلى مسدس من عيار ثقيل، وراح يرفع أنظاره الى أعلى شيئاً فشيئاً دون ان يجيب .. وكرر الضابط بعصبية :

ـ ماتتكلم ياشيخ النحس !؟.

وأشار الضابط الى أحد أعوانه كي يتفاهم معه .

وكانت الفكرة الاولى التي راودت رأس الشيخ هي انه اذا مادل على حامد ، فانهم سيتبعونه على الفوروليس لهم من طريق غير هذه الدروب الضيقة التي لا تتسع لمرور السيارات، وعندها سيتلفون الزرع والغرس الذي ظل يعمل من أجله طوال نهاره ، غير انه ما كاد يعاود التفكير في القضية حتى قرر فوراً أن يجيب عن سؤال المترجم :

ـ انني لم أر أحداً طوال اليوم منذ الصباح حتى هذه الساعة.

لم يكن صوته مرتجفاً او غامضاً ، كان واضحاً وهادئاً كل الهدوء مما أهاب بالضابط ان ينفخ كلمة في وجهه ويمضغ كلمة نابية ربما عنى بها كلمة قذر أو ثعلب او ماشابه ذلك . . وغرس قبضتيه في خاصرته وتلفت حوله بنفاد صبر ، فلم تقع عيناه في المحيط المترامي حوله في المدى البعيد ، إلا على القرية الصغيرة الجاثمة في سفح جبل حرمون . ثم عاد يتفرس في ملامح الشيخ الصخرية بامعان ، وكأنه يحاول قراءة أفكاره (الا نستطيع أن نستخلص من هذا الشيخ البالي اعترافاً ما عن مكان هـذا المجرم الذي اقلق راحتنا وأمننا طوال سنوات . . دون ان يجشمنا عناء البحث والتنقيب والتعرض للمتاعب، لقد كان على مرمى أنظارنا حتى نهاية الطريق ثم اختفى في هذه البقعة)

وفطن المترجم الى مايدور في خلد سيده فعاود سؤال الشيخ محاولاً ان يكون معه رقيقاً عطوفاً ان امكن :

ـ اسمع يا .. اسمك الكريم ؟

وأجاب الشيخ ببراءة الطفل :

ـ مخدومك ابراهيم القابوني .

وتنحنح المترجم وكان يرتدي كسيده بنطالا قصيراً وقميصاً من النوع الخاكي ، وقد حجب رأسه بقبعة عريضة الاطراف ، ولف عنقه بستارواق من الشمس ثم قال بلهجه ناضحة بالتهذيب حاملة صيغة التهديد في الوقت نفسه :

ـ انت تعلم ان جامد الطحان الملقب بأبي الموت محكوم عليه بالاعدام (وتوقف) .

ان كلمة الاعدام كلمة مخيفة، يجب ان يجد تعبيراً آخر اقل خطورة فصاح فجأة :

ـ اعني انه خارج على القانون وانت ولا شك لاتحب هؤلاء الذين يعملون على الاساءة الى سمعة البلد ولا تريد ان تعمل على اخفائهم والتستر عليهم خاصة وان السلطات (وأشار برأسه الى الضابط الذي راح ينفخ بنزق شديد) تعمل ماوسعها على حفظ الامن واحلال النظام في بلادنا .. العزيزة .

وتطلع الى الضابط برضى وكأنه يطلعه على مدى التضحية التي يقدمها إليه وعلى اخلاصه وتفانيه في الخدمة .

وبدا أن هذه الصخرة لاتحمل في جوفها ماء ولا يبدو انها تنوي ان تتفتت ، فقد تشعثت من أذني الفلاح شعيرات طويلة غبراء وكأنهـــا تطل برأسها لتسمع بدورها حديث المترجم ، وظهر ان هذه الشعيرات وحدها فهمت كلامـــه اذ انها هزت رؤوسها بوقار عندما لامستها نفخة هواء شديدة الحرارة . وكان الشيخ بعينيه الكابيتين المملوءتين بالغبار قد حاول ان ينظر الى محدثه بأدب وأن يجعله يصدقه حتى ولو بصق في وجهه . فرفع يديه المتورمتين الى أعلى ثم هبط بهما وهو يقول :

ـ ها أنا تحت تصرفكم ماتريدون مني أن افعل هل انا أحب المجرمين ؟.

وردد في نفسه ، المجرمين ! أنا اعلم ان « حامـد » لم يقتل أحداً من أهل بلده بل انه لم يؤذ دجاجة ولم يأخذ في حياته شتلة من شتلاتي او يقطف جوزة من شجرتي فهو ليس مجرماً .

ونظر المترجم الى وجه سيده بارتياح وكأنه يريه انه أحرز بعض الظفر .

كانت السيارتان المصفحتان قد وقفتا على حافة الحقل مباشرة دون ان تطفئا محركيهما ، وقد امتدت من برج كل منهما فوهـة مدفع رشاش تلمع تحت لهيب الشمس المحرقة وكانت خوذ الجنود تطل من الابراج لاحداث الاثر اللازم في نفس هذا الرجل المتحجر .

وظن الضابط ان ثغرة قد فتحت في لسان الشيخ فأراد ان ينفذ منها مباشرة فسأل بحدة :

ـ بون ، أي حسناً وكلمات أخرى ، معناها ، دلنا الآن من أين ذهب حامد فقد رأيناه يمر من هنا .

كان الفلاح يعرف بصورة اكيدة أن حامد أو هامد كما يسميه الضابط الفرنسي لن يكون فريسة سهلة لهم او لمصفحاتهم اذ انه ما يكاد يسمع هدير آلاتهم حتى يتسلق الجبل ويختفي في طرفة عين ، وعندئذ سيصبح أهالي القرية عرضة للتنكيل والتعذيب. وهناك قد يقبضون على زوجته آمنة ويستجوبونها وقد يعثرون على ولده يعقوب ويصبون عليه جام حماقتهم وغضبهم . كما سيتعرض كل اهالي القرية الآمنين لأنواع الإهانات . من أجل هذا قرر بكل ما أوتي من خبرة عمره الطويل وتمرسه بأمثال هذه القضايا ان لايدعهم يتجاوزونه خاصة وان الشتلات العطشى ستتلف على أي حال قبل ان ينتهي من فتح الساقية .

وفي خضم أفكاره نسي أن الضابط وجه إليه سؤالا وانه ينتظر الجواب بأسرع وقت ممكن ، ولسبب ماخيل الى (الفرنسي) ان هذا الفلاح الذي يقف امامه ليس بشيطان رجيم وانه يخفي اشياء لاتبين على تجاعيد وجهه الجامد .

وفجأة أحس الشيخ بالسوط ينهال على وجهه . وبسرعة

كان خيط الدم قد وجد مجرى سهلا في تلافيفه فانساب بسهولة حتى وصل الى صدره .. وخشخشت اوراق شجرة الجوز العتيقة على هبة هواء ثم راحت توشوش بعض اسرارها .

وجأرت الشتلات الصغيرة التي بدأت تذبل في وجه الشمس تتعذب على قطرة من ماء . وكان خيط الدم ينساب من وجه الشيخ حتى يصل الى صدره العاري فيتخلل الشعيرات البيض الصفر المتفرقة . وترنمت الشعيرات قليلا فقد أتاها السقي من حيث لاتتوقع ، ورفع الضابط الفرنسي سوطه مرة ثانية وهوى به على الوجه الصامت ، فأحدث مجرى جديداً لدم أحمر قان متدفق .

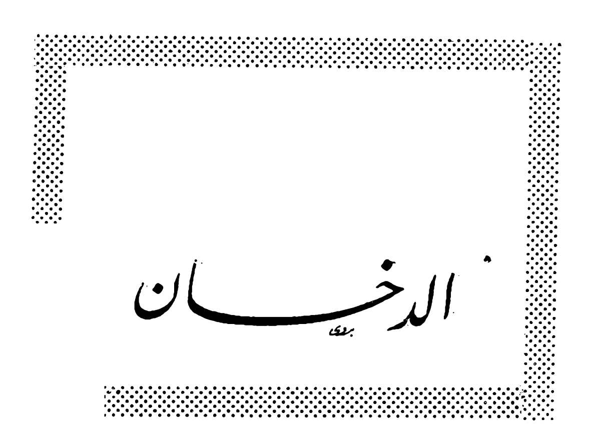
كان رأس الفلاح قد ارتفع اقصى مايستطيع وشمخ صدره على نحو لم يألفه في عصر شبابه ، وكأنما قومت الضربات انحناءة ظهره وردت اليه ماخسره من سني الحياة الطويلة وجملت مشاعر عنيفة وحادة - استغربها هو نفسه - تتفاعل داخل قميصه الازرق الدامي . لم يعد ينبس ببنت شفة . غير أن شفتيه المرتجفتين كانتا تريدان أن تقولا شيئاً .. شيئاً غريباً للغاية وحاسماً في الوقت نفسه .

وجمع الشيخ اطراف قوة ستين سنة من الكدح وحب

الارض والشجر والتراب و .. حامد الطحان . جمع الشيخ هذه القوة الجبارة جميعها في جسد غار نحيل وقـذف بهـا على صدر الضابط الفرنسي ..

وبينما كانت يد ناعمة مرتجفة تعيد المسدس الى نصابه ، كانت شتلة خضراء ذابلة تتفتح شيئاً فشيئاً ، وهي تمتص نجيعاً احمر ممزوجا بالتراب .




الدخان

كانت حزمة كبيرة من جذور الأشجار تتدحرج على الطريق ، وسط الوادي الصخري العريض ، ترتفع وتنخفض وتمايل يمنة ويسرة تبعاً لوعورة الطريق واعوجاجها ، ثم تهتز وتهتز كأنما يسير تحتها جحش أعرج بليد . وصعدت الحزمة مرتفعاً صغيراً ثم استوى أمامها سهل أحمر . وتوقفت قليلاً كأنما تريد أن تستريح ، وتصاعد من جوفها لهاث ضئيل متقطع ، وارتجفت في أسفلها ساقان نحيفتان يابستان كعصوين ، وتمايلتا في جميع الاتجاهات ، ثم تابعتا السير . كانت القدمان الصغيرتان عاريتين ، وكانتا تتنقلان بسرعة وبخطوات ضيقة ضيقة ، كأنما ترقصان على المسامير . وارتفعت من وسط الحزمة عينان حمراوان ذابلتان ، تضافرت أهدابها الطويلة كأنما عجنت بماء مالح . ثم تصاعدت من أحشائها أنة واهنة :

ـ يارب .. متى ينتهي الطريق ..؟

وأرادت الفتاة الصغيرة أن تفكر في شيء معين ، غير أنها

وجدت نفسها فجأة تعيش فيه ، فأسلمت نفسها للريح التي أخذت تدفعها دفعاً قوياً باتجاه المخيم .

كانت الريح تكتسح الارض مجنونة ثائرة ، وتضربها بأجنحة ثقيلة مسلحة بملايين الإبر الواخزة الباردة ، التي تخترق الاجساد حتى العظام وتجمد الدماء في العروق ، وتصفع الوجوه صفعاً مؤلمـــاً وكأنما تثأر لنفسها من كل متشرد . وكانت تعول وتزأر وتفتل حول الفتاة وحزمتها ، كأنما تحتال لتصل الى صدرها لتخمـد انفاسها قبل أن تصل وتشعل النار ، ومدت الطفلة عينيها وزفرت :

ـ يارب .. لقد هبط الليل . .

كانت الحزمة تجثم فوق ظهرها الهش ، تهصره هصراً وتلصقه لصقاً حاداً بصدرها ، وتضغطه بوحشية نحو الارض حتى تلاشت أنفاسها ، وأصبح من المستحيل امكان التصور بأن تحت هـذه الحزمة تتحرك نفس بشرية صغيرة .

وظلت الحزمة تتدحرج . . وترددت قليلاً أمام بقعة سوداء ثم مالبثت أن خاضت مستنقعاً تكسوه طبقة سميكة راحت تتكسر كالزجاج . وارتفعت العينان مرة ثانيـة وأرسل الصدر زفرة مسحوقة طويلة . .

كانت كل حاسة من حواس الفتاة تعمل منفردة وفق الالم الذي تكابده ، أما عقلها فكان منهمكاً بفكرة سيطرت عليـــه

كالظلام المتجمد . ومرت الحزمة أمام بنـاء متهدم ، اتجهت نحو اليسار ، لقد وصلت الى المخيم ..

كان مخيم (خان الشيخ) يتـألف من أكوام صغيرة مبعثرة على الارض ، لايمكن اذا ماانفصلت عن بعضها ان توجـد لها أسماء ، أما اذا اجتمعت معاً جنباً الى جنب فيمكنها أن تشكل مأوى لأشياء .. كل الاشياء ماعدا الانسان .. غير أنه لسوء الحظ لايعيش داخلها غير نفوس لاجئة ..

ان الكوخ غير الخيمة ، والخيمة غير الزريبـة ، والزريبة غير القبر . ويبدو أن تاريخ البشرية لم يشهد مثل هذه الملاجىء في حياته الطويلة ، وإلا لوضع لها اسماً في يوم من الايام . . كانت كل قطعة من هذا المخيم عبارة عن أسمـال وصلت ببعضها بطريقة معقدة ، غرست أطرافها بالارض ، وارتفعت أواسطها على عصي مرتجفة فأمكن بذلك استخدامها لدفن الناس أحياء .. أو على الاقل حجب وجوههم ـ التي ضاعت معالمها ـ عمن يهرب منها لينساها . وكان مما يزيد في صعوبة تسمية كل قطعة من هذا المخيم ، ان الواحدة منه لاتشبه الأخرى في أي حال ، اللهم إلا أنها تحوي نفوساً انسانية يؤلف بينها شعور واحـــد ، وتجمعها كارثة معينة ، وقد يدهش الانسان اذا ماعرف أن احدى هذه القطع مؤلفة من مجموعة خيش ، وحصير ، وبساط . وأشيـاء

أخرى ليس لها تاريخ .. ورغم بؤس هـذه الملاجىء وتنافرها وجهل هويتها وعدم الاكتراث بتسميتها ، رغم جميع هذه العلل فإنها تبدو دائماً وأبداً كأنما تقدم لسكانها فضلاً كبيراً وخدمة فائقة الجلال .

وانه لمما يدعو الى البكاء والضحك معاً ، ان هذه الجمادات التعيسة الزرية تحس وتشعر بأنها احسن حالاً وأجل قدراً من هذه الارواح الانسانية التي تمضغها في احشائها .

كانت الريح العابثة الساخرة تلعب بالاسمال ، فترفعها وتخفضها وتهزها هزاً عنيفاً حتى تكشف عن سوءاتها تكشف عن الوجوه الشاحبة ذات التقاطيع الجامدة .. عن الاجساد الممددة العارية .. تكشف عن الجوع والمرض والخوف . . كانت الريح تكشف هذه السوءات جميعاً ، فتخجل الاسمال وتنطوي على نفسها .. على الاجساد التي تضمها ، أو تطير مولية هاربة ولو الى الجحيم .. اذ لم يعد في مقدورها ان تستر الى الأبد جرائم الناس ، وتتلوى الرؤوس والاجساد وترتفع الانظار الى سماء لم يعد مايظلها ، ثم تتوسد الارض وتنام ..

صاح رجل من الداخل بصوت ضائع :

ـ فطوم .. فطوم .. أين انت ايتها النجسة ؟

وهز رأسه الى الاعلى والاسفل كحصان يطرد الذباب عن عيونه وغمغم :

ـ انها لاتجيب .. لقد هربت . . هربت . . بقيت وحيداً إذن ..

والف نفسه بين ساعديه وطوى رأسه بين ركبتيه وراح يرتجف . فيم يفكر أيضاً ؟ لقد كان يتذكر كل شيء مع زوجته ، ولكنها ماتت هذا الصباح .. ماذا بقي له ؟ فيم يفكر أيضاً ؟ لاشيء مما حوله يبعث على الذكرى .

ـ فطوم .. اين الحطب ؟ آه ..: مت من البرد . . لقد ذهبت .. أكلها الوحش ..

ليته يستطيع ان يفعل شيئاً من أجلها . . لابأس . . سوف تدفن مع امها . وفتح الهواء من ورائه كوة كبيرة ، فانسابت الى عظامة برودة تهرؤها ، والتفت الى الخلف واخذ يعالج سدها.

ـ فطوم .. ياكلبة .

وضغط بيده طرف الحصيرة ووضع فوقه حجراً وزفر من اعماقه زفرة مستطيلة .

ـ سأموت ولاشك .

وأحس في خاصرته ضرباً مؤلماً كاد يكسر اضلاعه ، لقد رفع الهواء الحجر والقى به على خاصرته .

ـ فطوم .. آه يارب .. أين ذهبت ؟.

وأخذت الحصيرة ترفرف بأجنحتها والهواء يكتسح الظلام ويهرب الى الداخل وكأنه يلتجىء من عدو يطارده . إن اغلاق الخيمة بصورة تامة امر ضروري جدا ولو ضحى بالنور من أجله فالظلام لايقتل بسرعة ، لقد اخذ يفتك فتكاً ذريعاً هذه الايام ولم يجد سكان المخيم بداً من أن يغـــادروه بالعشرات . . انهم يهربون .. انهم يموتون . والشمس لم تبزغ اشعتها منذ اسبوع : مطر .. هواء .. برد .. ثلج .. انهم يهربون وسأتبعكم ايضاً وهذا الهواء اللعين .؟

ـ فطوم ايتها النجسة .. أين كنت ؟

لقد سقط شيء في الخارج وتسللت الى الداخل كقطة سوداء .

ـ فطوم .. آه يا ابنتي هل وجدت حطباً ؟ حزمة كبيرة ؟ كبيرة جداً ؟ سدي هذه الثقوب لقد تفتت عظامي . . حركي الرماد لايزال يوجد بصيص .. حسناً .. هيا سأساعدك .

ومد يده وتحسس رأس ابنته .

ـ أما زلت تبكين ؟ ما هذا ؟ عرق ؟ انت دافئة اذن . . أنا أموت من البرد .. سيأتي الدفانون هذا المساء .. لقد استراحت . كانت تذيب قلبي بأنينها . انفخي جيداً . . بفمك . . بطرف ثوبك .. هكذا .

وأمسك بغطاء رأسه بكلتا يديه وراح يهزه أمام الحطب .

كان الظلام قد بدأ يسيطر في الخارج وأما في الداخل فلم يطرأ أي تعديل ، الظلام هو الظـــلام .. غير انه بدأ يزداد جموداً . وأحس الرجل ببعض الطمأنينة ، فسحب نفساً طويلا ، وقد بدأ يشم رائحة الدخان .. ونشطت يداه وراحتا تهزان الغطاء بانفعال ، لقد بدأت تشتعل .. وابنته تنفخ بفمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، وانفاسها تتلاحق ، لم يتصاعد اللهب بعد ، ولكن الدخان بدأ يتكاثف حسناً .. ان هـــذه بادرة طيبة ، الدخان هو اول النار .

ـ هيا .. انفخي .. انني أساعدك .. هه .. آه يا ابنتي العزيزة ظننت انك هربت مني .. وانت تعلمين انه لم يبق لي غيرك . . لقد ماتت امك .. ايه .. الله رؤوف بها . كانت تشعل النار بنفسها وتدخر لنا الخبز .. هل تعشيت ؟ خذي (ومد يده الى صدره وأخرج .. قطعة يابسة) هذا من تعيين اول البارحة ، لم يأتنا التعيين منذ يومين ، يبدو ان الاعاشة قد نسيتنا أو انهـا ملت اطعامنا .

وسمع في الظلام قرض خبز .

ـ لقد وعدونا ببطاقة جديدة ولا أدري ماذا ينتظرون ؟ انهم لا يأتون الا متأخرين ؟ هذا هو شباط والشتاء يكاد ينقضي.. مالك صامتة ؟ .(ومد يده الى رأسها) . اما زلت تبكين ؟

ولاتجيب الفتاة .. ولكنها تحمل الحطب وتنفخ وتأكل .. هي تعمل دائماً غير أنها كحيوان الناعورة يدور باستمرار ، يجلب الماء وهو ميت من العطش . وهي منذ أن أفاقت هذا الصباح ورأت أمها الى جانبها ميتة ، اصابتها سكتة . لقد ذرفت دموعاً كثيرة دون أن تدري ماالسبب . . وعلى كل حال لقد بكت كثيراً وعلى نحو متصل ، طوال الطريق وهي عائدة . . والآن تفعل كل شيء ، ولكن دون تفكير .

وبدأ الدخان يتصاعد ، فملأ خياشيم الرجل ، وتسرب الى رأسه ، لم تشتعل النار بعد ، غير أن الطمأنينة تزداد ، ان هذا الدخان يبعث على الأمل ، وهز مروحته بعنف . ان الدخان هو أول النار .

كان طوال النهار وحيداً لايجد من يرجّع صدى شكواه ، امرأته تنتظر الدفن في خيمة بعيدة ، وابنته راحت تحتطب ، وهو لم يجسر على الخروج ، بل لم يقو على ذلك . ان مفاصله تؤلمه ألماً شديداً فضلاً عن أنه لايستطيع الوقوف على قدميه ، وقد جرب مراراً ففشل . والعلة الرئيسية ليست في قدميه بل في رأسه ، انه ما إن يستوي واقفاً حتى يحس بغيمة داكنة تحجب عينيه ، وبطنين مدو يعصف برأسه ، فيسقط بسرعة ككيس فارغ ! أهو قلة الغذاء ؟ أم الفراغ . . أم المرض ؟ .

وهو كلما أحس بذلك هرب الى ابنته وذكرياته . . ذكرياته هي كل ما يملكه .

ـ فطوم . . يا ابنتي انفخي النار . .

وتصاعد دخان كثيف . . لقـــد كان له بيت وبقرة وثور ومحراث وأرض كبيرة وأشجار برتقال . كان سعيداً مع الجميع ، حتى مع الثور ، كان يحس في كل مساء عندما يضع له العلف انه ينظر إليه بحنان ، وعندما يخور كان يصغي اليه بوقار وكأنه يناديه . هذا الثور كان وإياه يشقان التراب الاحمر بالمحراث ، بهدوء وبطء ، تحت شمس الخريف الطرية . وفي أواخر الربيع ، عندما كان يمتد أمام ناظريه بساط ذهبي من السنابل ، كان يقف سعيداً سعيداً ، وبيده منجله المسنون ، لقد خلق شيئاً رائعـاً . ستمتلىء كوره بالقمح والشعير وستصنع زوجته بيـديها أرغفة كبيرة ، وفي المساء كان يسمع خوار البقرة والثور ، ويلمح زوجته الى جانبها تعصر ضروعها ، والحليب الحار ذو الرغوة الذكية والرائحة المنعشة يملأ السطل . آه . . ما أجمل تلك الايام ! . كان يجد ابنته دائماً الى جانب البئر ، فتستلم منه الثيران لتوردها الماء من البئر . . البئر التي حفرها بيديه ، وساعدته زوجته على بناء حاجزها الحجري .

وهناك المصطبة الحجرية تتربع جانب دار آبائه بوقار وجلال:

ما أعظم هذه الجدة العجوز ! التي ظلت تحتضنه منـذ أن كان طفلا وكان يلتجىء الى ظهرها ، وينتصب فوقها ، هازئاً من التيس ذي القرون الطويلة ، ثم يستلقي على برودتها في أمسيـات الصيف فتهزه هزاً ناعماً حتى ينام .. هذه المصطبة التي لاتزال تحمل آثار لهوه ورائحة طفولته .

وأحس بقشعريرة هائلة :

ـ فطوم .. فطوم ..

ومديده..ليس هناك سوى الفراغ.

لقد ذهبت ..

وأطل على النار ، لم ير شيئـاً ، سوى دخان ، دخان كثيف .. كثيف يطغى على الذكريات . وانحنى على الحطب وأخذ ينفخ ، وازداد الدخان ولم تشتعل النار ، لابأس .. ان الدخان يبعث على الأمل .. الدخان هو أول النار .

وطوى جسده بين ساعديه . وأغرق رأسه في صـدره ، وضم ركبتيه الى ذقنه ، واهتز الى أمام والى خلف كدمية من الرصاص . وتمنى لو يختصر جسده بأصغر حجم ممكن . بقط مثلاً ، اذن لاستطاع أن يلتف ببطانيته عشر مرات وبذلك يحس للدفء طعماً .أما الآن ورغم استغنائه عن رأسه وأطرافه فهو لايزال يشعر بهراءة البرد.

ايه .. فليتذكر ..

أين بقرته وأي ذئب سحق عظامها ؟ اين ثوره ؟ في أي مسلخ حطم رأسه ؟ وأي قدم تنتعل جلده الاسود ؟ أين محراثه ؟. هل صنعت منه حربة لامعة أم اعتراه الصدأ في واد من الأودية ؟

والبئر ؟ . ألا تزال تنضح ماء أم نبت في اسفلها الشوك ؟

والبيت ؟. اما زال قائماً أم اضحى طللا من الاطلال ؟

نعم . لقد ترك الباب مفتوحاً ، آملا أن يعود اليه في الغد .. في الغد .. يا لهذا الغد كم تأخر .! ولكن الغد سيأتي لامحالة وسيعيش من اجله .. نعم يجب ان يعيش . ترك ارضه الطيبة ، تنعم بتربتها الدافئة ، والتي يرفرف حبها في اعمق اعماق قلبه ، ترك ترابه الذي كان يزحف بذراته الناعمة الى رأسه ووجهه ، ويغمر حنايا صدره برائحته المفعمة بالحياة . ترك ساعته الفضية الكبيرة ، ذات السلسلة الصفراء ، التي تتوارثها الاسرة أباً عن جـــد ، هذه الساعة التي تحمل تاريخاً لجيل حافل . اما هنا فانه لاشيء .. لاشيء على الاطلاق ، أنه كزوجته ، لافرق بينهما ، هي ميتـة حية ، وهو حي ميت . ولكن من يدري . ؟ لعلها لم تمت . . لعلها إن حملت الى هناك واستنشقت رائحة البيت ستدب فيها الحياة من جديد ؟. لعل قلبهـــا لايزال يخفق بشيء .! أيجب ان تدفن مع ذلك الأمل .؟ آه أيتها الزوجة الطيبة لو انتظرت قليلا ،

يوماً آخر على الاقل .. لو لم تسرعي بالرحيل .! ان فرننا هناك لايزال حاراً وأمامه الحطب والطحين .. آه يارفيقة حيـــاتي .! لو انتظرت قليلا ريثما نعود .! موتي هناك ميتة طبيعية ، موتي بيد الله ولأحفر لك قبراً عالياً في ارضنا وسأزورك كل يوم .

وظل يشرد بخياله وسط الدخان .

كان هناك سنبلة في ارضه ، وكان يعيش مع كل حبة يزرعها ، ينبت معها ويمتص من الارض ويتمايل واياهـا مع الانسام طرباً ونشوة : وعندما كان يقف وزوجته ، وسط السنابل كان يشعر بأدق حواسه بأنه تساوى مع الخالقين .

لقد كان سنبلة تغمر رأسها مئات الحبات الذهبية ، سنبلة لاتقوى اعنف العواصف على نزع جذورها من الارض .

كان هناك سمكة في بئره تعيش وتسبح في الماء .

كان ورقة خضراء على رأس شجرته ، وكان شيئاً عالياً في رأس بقرته ، وكنزاً ثميناً في عيني كلبه الأمين .

يالله .! ان هذه الذكريات لاتدفيء عظامه ! ان اسنانه تصطك وعينيه تدمعان . تذكر انه لم يبك على زوجته . يجب ان تشعل النار .

ـ فطوم .. ايه .. لقد ذهبت الى امها ..

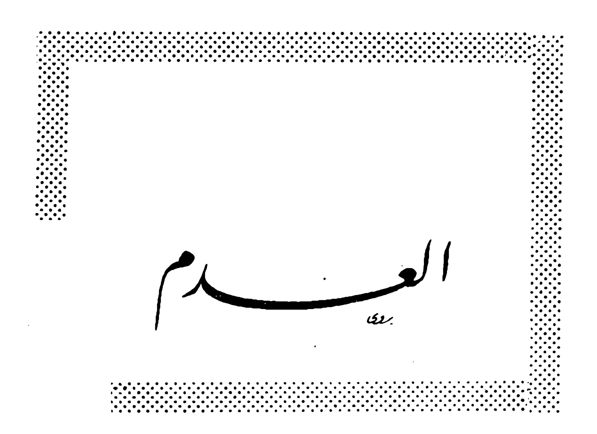
وانحنى على الحطب وراح ينفخ ، انه لايشتعل ، وهـــذا الدخان الفظيع يكاد يخنقه ، لابأس النار اولها دخان .سوف تشتعل .

كان الهواء يصفر في الخارج هـــازئاً ، ناشراً اشرعته ، سابحاً في الفضاء والارض ، يضرب كل شيء ، يردد بين لحظة واخرى صراخ طفل عنيد . وتناهت الى اسماعه ضجة قوية ، وسمع عدواً ، وصوت ابنته لأول مرة في ذلك اليوم .

ـ لقد جاؤوا .. جاء الدفانون .

وظل صراخ الطفل الثائر يعلو وسط العاصفة ، كأنه يبحث عن سريره .




العدم

كنت اسير وحيداً صامتاً شارد الفكر ، منطوياً على نفسي التصق بالحائط وكأني أريد أن أتوارى عن الانظار . وكان الطلاب جميعهم مندفعين من المدرسة عصر ذلك اليوم اندفاعاً صاخباً يثرثرون ويصيحون بفرح ونشوة . ترى ألا يمكنني ان ارافق أحد هؤلاء الطلاب في المدرسة وأتحدث عن شيء ما ببهجة وطرب ..؟ ترى عمّ يتحدثون ثم يضحكون . هاهما اثنان يشيران الي ثم يتهامسان . ترى أيعرفان الى أين أنا ذاهب ..؟ أيعلمان انني ذاهب الآن الى المستشفى لأعود أمي التي فقدت دماءها البارحة ..؟ لم يخفِ أحدهما وجهه وقد كتم ضحكة في حنجرته ..؟ لقد قلت لوالدي مراراً ان يشتري لي سترة جديدة فأجاب وهو يهز أختي الرضيعة : انظر ياولدي الى اخوتك انهم صفر الوجوه ، جائعون ! يجب ان تساعدني انت على اطعامهم بدلا من ان تزيد الطين بلة . وسترتي الآن ليست وسخة ولكنها عتيقة بالية وهي تخفي كل ماتحتها ، ولكنها لم

تستطع ان تستر البنطال الازرق الذي لايزال يثير الطلاب في درس الرياضة ، فيجعلهم ينفجرون ضاحكين ضحكات طويلة ثاقبة كالرصاص . هذا البنطال الذي ضاق ذات يوم على كرش عمي فباعني اياه بثمن بخس ، ومع ذلك لم ينسه ، فقد وقف مرة بين شرذمة من عملائه تجار الجلود ، وقف عالياً ضخماً كالمارد ، وقد باعد مابين قدميه ، وغرس في خاصرته قبضتين داميتين ولوى رأسه مختالا ، وكأنه هو الذي خلقني : وقال انظروا الى هذا البنطال انه اول سروال لبسته في حياتي .

تُرى أيكون هذا البنطال سبب الضحك .؟ لماذا لايسألني أحد هؤلاء الطلاب سؤالا ؟ كأن يقول لي ما أصعب هذا الدرس !. وهل كتبت وظيفة الغد ؟ أنا اتهيب السؤال .. اخشى ان ينظر إلي بازدراء دون ان يجيب . أو أن يشكوني الى المعلم فيقذفني هذا بمسطرته ثم يستدعيني المدير ويقول لي : اذهب الى البيت واحضر والدك ياقليل التربية . . ان الجميع يضحكون علي في صف هؤلاء الطلاب : المدير والاساتذة وحتى الآذن الذي يعدو دائماً من ورائهم يتصيد القروش التي تسقط من جيوبهم . هاهما طفلان من سني يعدوان وراء كرة ملونة ، لكم تمنيت ان تسقط هذه الكرة في بئر أو بالوعة ، ليقفا حيالها عاجزين يبكيان ، وأذهب لنجدتهما واغوص في الوحل ،

وألوث وجهي بماء الشارع حتى اعثر عليهـــا ثم اقف متواضعاً واقدمها اليها بأدب ومنتهى الاخلاص ، عسى بعد هذا كله ان ينظر إلي كمخلوق جيـــد ذي نفع وأن يعرف الجميع انني احبهم وأتمنى لو اخدمهم وأصادقهم .

غير ان المسألة الآن تختلف ، هناك قضية اخرى ، انني ذاهب الى المستشفى ، سأجد هناك بعض السلوى ، أمي مريضة تعاني نزيفاً حاداً ، سأجـدها الآن مستلقية في السرير ، وفوق رأسها كعكة وكأس حليب ، سوف تبتسم لي ، وتسألني عن اخوتي هل اختك الصغيرة بخير . ؟ قل لابيك لا تجوعها . ؟ فهي لا تزال رضيعة ، وقل له ان يتفقد اخوتك في الليل وان يغطيهم بالبساط والجلود اتقاء البرد . ستقدم إلي كأس الحليب ، وسأرفض تناولها باباء فإن الحت فالامر واضح سآخـــذها ، وسأكرعها دفعة واحدة

ورجعت بذاكرتي الى أمس حين عدت من المدرسة . وكانت تخالجني الافكار المدرسية نفسها ، فاستقبلتني عمتي العجوز ، (خير إن شاء الله . فهي لا تزورنا الا في المناسبات الكبيرة ، وفاة احد اخوتي ، او ولادة اخ جديد ولا شيء غير ذلك الا مرض والدتي الخطير الذي كان يداهمها في مناسبات معينة ، اذ يقعدها الفراش ويفقدها النطق والحركة) . وهجمت عمتي علي ، وعانقتني وقبلتني ، ومزقت رأسي رائحة فمها النتن الابخر ، فهي

تصوم دائماً لهذين السببين : الفقر والثواب .. ثم قادتني الى الغرفة الوحيدة التي يتكون منها بيتنا القديم . ووجدت أمي بلا مقدمات فاقدة نصف حياتها ، والى جانبها ، وجد صحن كبير مملوء حتى حافته بدماء سوداء يسبح فيها مخلوق لم يتكون بعد ، تتلوى حوله، امعاء واشياء اخرى يصعب معرفتها ، واشارت أمي بيدها فهرعت اليها عمتي ، وكشفت عنها الغطاء ثم سحبت من تحتها خروقا كبيرة تقطر دما . كانت تقوم بعملها هذا بنشاط وسرور ، وهي تسبح بحمد الله وتتوسل اليه بكلمات غير مفهومة وهمس صادر من القلب . وكان والدي منزوياً في ركن الغرفة ملتفا بعباءته حتى صلعته ، لا يظهر منه غير أنف كبير وشاربين أشعثين حرقهما الدخان . وكانت تصدر من جوف عباءته تأوهات وتنهدات مصحوبة بزمجرة تنم عن الهم والقلق . والتفتت اليه عمتي وهي تزاول مهمتها دون تأفف : (اطمئن يا أخي سوف ينقطع النزيف، عما قليل غير انها بحاجة الى غذاء لتعويض الدم النازف: حليب ومرق لحم) ويزفر ابي زفرة عنيفة فيتصاعد البخار من جوف عباءته ويجيب بصوت اقرب الى البكاء .

— يا أختي اني غير مشفق عليها ، انها تستحق ذلك قلت لها مرارا لا تتعبي نفسك وأنت في شهرك الاخير . ولكني اخاف على هؤلاء الاطفال من يعنى بهم ؟ من يطعمهم ؟ .. لا يوجد من يطبخ لهم لقمة مجدرة أو ملعقة شوربا ، كلهم اطفال صغار .

وتجيب عمتي — والله يا أخي ، ان هذا كله دم فاسد ، سوف يفرجها ربنا ، ولن ينسى هؤلاء الاطفال فهو الذي خلقهم.

وتهتز العباءة قليلا وكأنها لا تؤمن بمـــا تسمع ، كان أخوتي الستة ، متناثرين في أرض الغرفة الضيقة ، كقطع أثاث عتيقة وبالية . صامتين شاردين لا يفهمون ما يدور حولهم .وكانهم ينتظرون اللحظة المناسبة ليطلقوا فجأة اصواتهم معولين صارخين .

وطرق الباب في تلك اللحظة ، ودخل أخي الاكبر بطربوشه الاسود وقنبازه الحريري وقال بتهيب :

— لقد اتيت بالعربة يا أبي .

ولم ينتظر الاجابة بل تطلع الي بلوم آمرا :

— متى حضرت يا ولد .؟ لقد قمت بالاعمال كلها وحدي .. ازاك غير نافع لغير الطعام والنوم قم .. قم ارم هـذا الدم .. أعمى ، الا ترى امك تموت .؟.

وقال والدي من جوف عباءته :

— هل شارطت العربجي على الأجرة ؟

فأجاب دون ان ينظر الى مصدر الصوت ..

— بعد الف جهد لم يرض باقل من ليرة ؟

ورد والدي بصوت جديد مستنكرا — ليرة سورية .؟ يا له من سارق ، كافر ، .! قاطع طريق .!.هل عرف ان أمك تموت فأراد ان يستغلنا .

ثم سعل بقوة ، وسمع صوت اصطكاك اسنانه وهو يبصق في اتجاه مجهول . واستأنف :

ـ هؤلاء الكفار .. الم يبق اسلام بهـــذا البلد .؟ ليرة سورية .. الله يلعنهم ويلعن حاجتهم . ثم صمت مفكرا ، وعاد الى القضية التي بدأت تؤرقه فسأل :

ـ الم تسأل غيره .؟ كان يمكنك ان توفر ثلاثين قرشا على اقل تقدير والآن مشي الحال لا .. لا يمكنني ان اعتمد عليكم بشيء .

وحملت أمي الى العربة وركبت معها عمتي وكانت تبدو سعيدة للغاية ، فراحت تصدر تعليماتهـا بحرارة الى السائق والى ابي والي .

ـ سق على مهلك .. انت الحقنا الى المستشفى اغلق البـاب جيداً ، أنت ألا تسمع ؟. احذر رأسها . لا ، هكذا ..

وسارت العربة يجرها حصانان قويان . وتبعثر اخوتي على طول الطريق من عتبة الباب حتى رأس الحـارة ، وقد انستهم هذه الحادثة ان ينتعلوا احذيتهم فوقفوا حفاة مقرورين ، وكأنهم قطع البسة ممزقة ، قذف بها صاحبها ، قطعة وراء قطعة ، وهو يعدو الى الشاطىء ليتخلص من حياته الشقيـة . وسألتني اختي التي بدأ الكلام يتفتح على شفتيها الزرقاوين .

ـ مامـا ماتت .؟ ماما .

وفي عتبة الغرفة ، كان اخواي التوأمان يجثوان فوق وعاء الدم ويغرسان اصابعهما في بطن هذا المخلوق الغريب .

ـ دادا .. دادا .

هأنذا اصل الى المستشفى طول . النهار يسرع ليختبىء في جوف الليل ، الشمس ادركها الاعياء بعد طول مسير ، وقد طاردتها الغيوم طوال النهار ، فآثرت الاستسلام ، وسقطت منهوكة شاحبة ، وراء الافق والاشجار العارية . ها هي ذي سيارة يفتح تقف امام باب المستشفى ، يفتح بابها الخلفي ويهبط من الدرج شخصان رجل وامرأة تلبس ملاءة سوداء . الرجل في الاعلى والمرأة تحت . يحمل هو قدمين والمرأة تسند كتفين وفي الوسط يتأرجح جسد ذو شعر اشقر طويل يكنس الدرجات بين اقدامهما ، المرأة تتعثر مرتين برباط ابيض يتدلى من وسط الجسد ، وعينا كانت مفتوحتين دون ان تنظرا الى شيء . المرأة ترفع الغطاء عن وجهها ، كانت صامتة غير ان وجهها كان يعبر عن اشياء مخيفة .. وفجأة زمجرت زمجرة غامضة فطمأنها الرجل :

ـ الله يسترك طولي بالك . في البيت سيتم كل شيء ..
ووصل الركب الى السيارة . فصاحت المرأة بغتة:

ـ يا ولدي .!

ثم ضحكت بصوت عال جداً ، وهمهمت وكشرت عن انيابها. دخل الرجل اولاً الى السيارة وادخل معه القدمين ونصف الجسد ، فتعثرت المرأة بالرباط مرة اخرى فسقط الرأس على الارض وارتطم بالرصيف ، فاشرأبت العينان ثم عادتا الى محجريهما

ولم يبال الجسد بما حدث له . غير انه استقر في المقعد الخلفي بهدوء . وتحركت العربة فجأة تقل اربعة مخلوقات بشرية .. تاركة وراءها فراغا قاتلا .

ومنعتني احدى الممرضات من الدخول ، بحجة انتهاء وقت الزيارات . ورحت اتجول في الحديقة الكبيرة. انظر الى النوافذ العريضة العالية ، هناك ممرضات كثيرات يقفن مثنى وثلاث يلقين نظرة الى الشارع ثم يرجعن . وصلت في تجوالي الى باب كبير كتب عليه (قسم الولادة) لا شك ان أمي هنا .؟ واخذت اراقب النوافذ من جديد . ها هي ذي امرأة تقف هناك وراء سجاف رقيق ، هذه المرأة ليست ممرضة ، انها مريضة ولا شك . كانت تضع منديلا ابيض ، ولم استطع ان اتبين ان لها وجهاً ، هناك بقعتان سوداوان تتوسطان شيئاً لا يمكن التعبير عنه ، اذ لم يكن له شكل .. كان سراباً ، ولم يكن شيئاً على الاطلاق . ظلت المرأة واقفة لا تتحرك ، وخيل الي أنها تنظر الي فترة من الوقت ، كما خيل الي انها ترفع يدها الى الاعلى، لم اتبين بالضبط من المقصود بحركتها هذه ، ومع ذلك التفت الى الخلف ، لم يكن هناك غيري في الحديقة . وتحركت المرأة قليلا فظهر وجهها ، كان صغيراً ملائكياً ، تمنيت لو اتحسسه بيدي لاتأكد من وجوده . وفي تلك اللحظة تقدمت ممرضة ، لها وجه منتفخ تأبطت ساعد المريضة ثم اسدلت السجاف .

ورجعت الى البيت متأخراً . فوجدت اخوتي الصغار يلعبون
وجاء والدي في منتصف الليل ، وشرع يوقد النار في المنقل ،
وكان ينفخ الفحم والدموع تسيل من عينيه كالسواقي . لم يعتد
الدخان ان يؤثر في عينيه . غير انه استطاع هذه المرة . وقال
لي وهو يسعل ويشهق :

- هل رأيت أمك ..؟

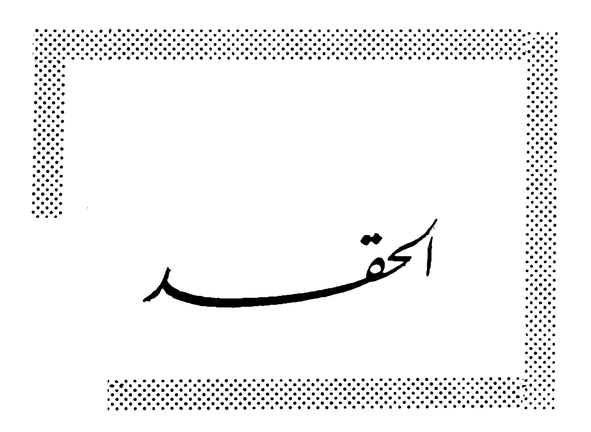
فأجبت : سأراها غداً فقد وصلت اليوم متأخراً .

واجاب والدي دون احتفال :

- لا ضرورة الى ذلك يا ولدي فقد ماتت أمك منذقليل..

★ ★ ★

انا الآن شاب يافع تملأ رأسي الذكريات والاحلام، غير ان ذكرى
وحيدة تجعلني أعود طفلا . فابكي بحرقة كلما حاولت استعادتها .
ذكرى سجاف النافذة عندما اسدل طاوياً ووراءه ذلك الوجه
الذي لم استطع ان اتبينه، وجه أمي في لحظاتها الاخيرة ، وبذلك
طمست صورتها في ذاكرتي الى الابد ..


الحقد

وقفت الى جوار المخفر ، مستنداً الى شجرة الجوز العتيقة ، بين اصابعي لفافة يابسة كأنما هي محشوة ببرادة الحديد ، تناولت منها نفسا واحدا ، ثم انطفأت فأعدت اشعالها خمس مرات فقط، لان جلدها سلخ في المرة السادسة واندلقت من جوفها برادة الحديد التي سميت « تبغاً » .

وكنت في ذلك المساء قد نزعت مسدسي من غلافه ووضعته في جيب بنطالي الخلفي ورغم ذلك فقد بدا ثقيلا جداً ، وتشبث بملابسي كأيد خفية تسمرني في الارض لئلا أترنح وقد نزعت المسدس من النطاق لكي اخفف ما استطعت من عبء الصمت الثقيل الذي كان يجثم على الكائنات ، وعلى صدري ، حتى احسست بأني اكاد اختنق .

وما دمت بصدد الحديث عن الصمت ، فينبغي علي ان افسر النواحي الملموسة في هذا الشيء الذي يدركه الانسان ولكنه لا يستطيع ان يمسك به ، فالصمت هذا الشيء البسيط جداً ، يستطيع

ان يقتل الانسان بهدوء ، او ان يفقده عقله ، او على الاقل يمكنه ان يثقب اذنيه ويجعله اصمّ ، اصمّ لا يسمع شيئاً البتة .

الصمت هذا الشيء الرهيب المفجع ، انه اشد قسوة من هدير الطائرات ، من انفجارات القنابل ، من دوي الرصاص ، من اي ضجيج آخر ، انه يحمل الانسان على رفع يديه الى اذنيه ليغلقهما باصابعه .

كانت الشمس قد غربت منذ دقائق ، وسحبت وراءها شفقها الدامي ، لتتهادى معه وراء قمة الجبل وقد بدأت التلال من حولي تنشر ظلالها القاتمة وراحت الاشياء التي كانت تتحرك من بعض النواحي تظهر لي ضئيلة صغيرة ثم تختفي شيئاً فشيئاً حتى يطويها الظلام بسرباله الاسود .. ولم أعد اتبين معالم الاشياء فوق التراب الاغبر وخيل اليّ ان صدى نقيق الضفادع يتردد قرب اذني ، ولكن حين حاولت الامساك به افلت بسرعة ، وهكذا لم أعد اسمع او ارى شيئاً البتـة .

ان ازيز الناموسة او صرير الجنادب ، او نقيق الضفدع يفعل في احاسيس الجندي الاعاجيب ، ذلك الجندي الذي جرب الصمت وعاش فيه ليالي طويلة . فـلا يعجب المرء ان يقرأ رسالة جندي اسهب فيهـــا بوصف صرصور تائه راح يشدو على مقربه منه

في ليلة مظلمة ، او وصف بعوضة منفردة حطت على خده في لحظة من لحظات ترقبه وشجت اسماعه بأزيز وئيد بعد ان تركت على خده ندبة حمراء .

ان هذه الحشرات الصغيرة تملأ نفس الانسان بالحياة .. باسمى ما في الحياة ، من انس ومرح وسعادة ، عندما تتحرك فجأة من حوله ثم تترك اثرا يصل الى اذنه .

لا شك انني اتحدث برهبة وخشوع . وذلك لان للصمت دويا هائلا في الآذان .. دويا ساكناً كالموت ، يجعل الانسان مشدوها ابله ، يتمنى لو يحدث نفسه ليسمع صوته على الاقل ، او ليشعر بأنه حي في هذا الوجود المخيف ، وعندما يخيم الصمت تجمد الكائنات ، حتى اوراق الاشجار يعتريها الشحوب فتبدو كالجذور المدفونة تحت التراب .

بيد ان لهذا الصمت حسنة ، هي انه يجعل الانسان نفسه يجمد ويستسلم للذكريات ، ولا شك ان هذه الصورة القاتمة التي اتحدث بها عن الصمت ، لها علاقة مباشرة بالموضوع الذي كنت افكر فيه ، لقد كنت استسلم لذكرى الحادثة الاخيرة .

هنا في هذا المكان وقفت منذ اسبوع مع الملازم ممدوح .. لم يكن المكان فارغا كما بدا لي الآن ، ولم يكن الصمت يسيطر على كل شيء .. لا لأنني كنت اقف مع انسان آخر .. ولكن

لان رفيقي كان الملازم ممدوح والآن انني على تمام اليقين بانه ليس هناك انسان آخر غير الملازم ممدوح الذي كنت اقف الى جانبه يمكنه ان يطرد هذا الصمت المقيت .

انني لا ادري بالضبط لماذا اعتقد ذلك ..غير اني واثق كل الثقة بان الملازم ممدوح هو الوحيد الذي يستطيع ان يسكت هذا الصمت .. لا شك ان حكمي هذا هو نتيجة فراغ مخيف خلفه شيء ما في نفسي .. قد يكون ذلك وقد لا يكون غير ان الحقيقة ان الملازم ممدوح كان انسانا غير عادي . ودليل ذلك انه استشهد في اليوم التالي .. لقد استشهد بعد ان قبر الصمت ودفنه تحت سيل من وابل الصياح والرصاص .

فراغ مخيف في نفسي ، خلفه فقدان صديقي الملازم ممدوح.. ولكن من لي بامـلاء هـذا الفراغ .. انني غير حزين .. لانني اتذكر الآن قصة استشهاده فأنا اعلم ان الملازم ممدوح لم يمت بصمت ، وذلك ما يعزيني .. انه لم يمت كما يموت اي انسان.. ومن اجل هذا اقول لجميع الناس ان ممدوح لم يمت .. لقـــد ذهب .. نعم .. ولكن الى اين ؟ .. لا أدري انه لا يقف الآن الى جواري ليحارب الصمت .. ولكن لا يعني ذلك انه مات .. لأنه لم يقض كما يقضي كل انسان .

ان رصاصة واحدة في الصـدر تكفي لقتل الانسان العـادي الذي نعرفه ، اما ان يقاتل الانسان ويظل يقاتل ويصرخ ويدفع

رجاله الى الهجوم حتى يدحر آخر فلول العدو وذلك بعد ان يصاب برشة كاملة في صدره ، ان هذا ليس بالعمل الذي يستطيع احد ان يقوم بمثله ، فصدر الانسان العادي مركب من عظام ولحم ودم واشياء اخرى مجهولة لدي ،بلى،من هذا كله كان يتألف صدر الملازم ممدوح .. بالاضافة الى العظام واللحم والدم ، ان صدر الانسان العادي يخرقه الرصاص وينفذ منه الى القلب فيموت صاحبه وينتهي امره .. اما الانسان الآخر .. الانسان الذي هو الملازم ممدوح من جبلته ، فان الرصاص وشظايا القنابل وكل ما من شأنه ان يعطل حركة القلب ، لم تستطع ان تنفذ منه . تُرى ما السبب ؟ .. تراني اتحدث عن اشياء غير مألوفة لاقاوم الصمت ؟ ام انني احدث نفسي بصوت مرتفع لاسليها واشغلها عن الفراغ المحيط بها من كل جانب ؟ .. لا أظن ذلك ، اني اتكلم عن حقيقة موجودة ومعروفة .

فالملازم ممدوح عندما سمع اطلاق الرصاص من مخفره الامامي، وكان الظلام دامسا والهواء عاصفا،والمطر ينهمر ، افرغ جيوبه من محتوياتها ولم يترك فيها غير صورة صغيرة لابنته الوحيدة .. ابنته الصغيرة هي كل ما حققه في حياته بعد سبع وعشرين من السنين قضاها باحثا عن الحب والسعادة والاستقرار .

لقد وضع صورة ابنته في جيب سترته اليمنى ، وقاد فصيلة

من الجنود وتقدم بها نحو مصدر الضجة التي انبعثت من احد مخافره الامامية .

لقد قال لي ابوه ، ذلك الرجل البسيط الطيب : « بكيت في حياتي مرات عديدة من اجل ولدي ممدوح ، بكيت عندما رأيته يبحث عن اشيائه الضائعة فلا يجدها ، اما عندما رأيته مسجى بالنعش .. فلم ابك ولم تطرف لي شعرة في جفن ، بل كدت ابتسم ، ان لم اكن قد ابتسمت فعلا ، وذلك لأني وجدت ولدي ممدوح يضحك .. نعم .. وجدته سعيدا وكان املي في الحياة ان اراه كذلك » .

ولكن فيم طفرت هذه الطفرة ؟ يبدو ان افكاري تدور في دوامة من الحوادث ، فلأعد .. عندما قاد الملازم ممدوح فصيلته في الظلام نحو مصدر الصوت ، تلمس مرات عديدة صدره ، مكان الصورة وضغط عليها باصابعه ، وبذلك اضاف الى قلبه شيئاً جديداً .. اضاف الى قلبه درعا واقية هي الحب .. لم يكن افراد الفصيلة قد تقدموا اكثر من مائتين من الامتار عندما انصب عليهم وابل من الرصاص .. في تلك اللحظة صرخ الملازم ممدوح صرخة مدوية .. صرخه عجيبة ، جعلت جميع افراد الفصيلة يستعيدون وعيهم بطرفة عين ، بحيث لم يعد للمفاجأة الاثيمة ذلك الاثر الذي

كان ينتظره الاعداء ، وانقلبت فكرة الاغتيال الخسيس الى معركة حقيقية .

لقد كانت صرخة الملازم ممدوح في الظلام ايعازا موجها الى كل جندي من جنود فصيلته .. ايعازا لم يفهموا منه كلمةواحدة ، لقد ظن كل جندي من جنود الفصيلة ان الايعاز موجه اليه ، فاستعاد رباطه جأشه ولقم سلاحه ، وراح يطلق الرصاص بثبات نحو فلول العدو التيراحتتتراقصفيالظلام..اما الكلمة الحقيقية التي هتف بها الملازم ممدوح فهي (لقد قتلوا ابنتي) .

وهكذا كان الحقد .. انه عنصر اضيف الى تركيب صدر الملازم ممدوح .. وبهذا ارتفع الى مستوى انسان جديد ، لقد كانت فكرة العدو هي اغتيال الملازم ممدوح مع فصيلته ، وفعلا كانت الرشة الاولى موجهة الى صدره .. فسقط .. ورفع يده اليمنى وتلمس جبينه واخرج الصورة .. فأحسمنبين اصابعه بأن الصورة مثقوبة في مكان جبين الصغيرة التي تبعثرت على جانبه خصلة مشعثة من الشعر .. وكان سائل حار يتدفق من مكان الجيب فصرخ بكل ما اوتي من قوة « لقد قتلوا ابنتي » . وتركزت في رأسه هذه الفكرة: انهم قتلوا ابنتيولكنهم لميقتلوني، قد تكون ابنتي ماتت ، ولكنني انا لم امت ، انا لا ازال حيا ،

ويجب ان انتقم لها .. لهذه البنت الصغيرة .. هذه البنت هي ثمرة سبعة وعشرين عاما من البحث عن الحب والسعادة والاستقرار .. لقد اخذوا سعادتي .. اخذوا حبي .. اخذوا كل شيء .

وحمل الملازم ممدوح صدره الثقيل الذي ضم بين ضلوعه رشة من الرصاص ، وزحف باتجاه المغتالين صائحا بجنوده : الى الامام .

وكانت معركة اسمها معركة طبريا ..

★ ★ ★

رسالة غير مضمونة

لعق غطاء المظروف بلسانه ، وأدخل اصبعه في داخله يتحسس شيئاً وهو يمص شفتيه باطمئنان . ولعق الغطاء مرة ثانية ، وبعد أن أحكم لصقه وضعه على حاجز الدكان الخشبي ، وأهوى عليه بقبضة يده النحيلة . وحين تأكد من أنه أغلق جيداً تناول قلماً من جيب سترته الداخلية وخط عليه جملة ثم توقف ، ورفع القلم الى عينيه ثم ضغط على دافع الحبر ، فسقطت على وجه المظروف نقطة كبيرة ، وتابع الكتابة .

ـ حمص ، قرية الزيوانة ، بيت محمد عبد القادر محمد .

ورفع الغلاف الى شفتيه وراح ينفخ فيه حتى جف الحبر فقلبه ، وخط من جديد :

ـ المرسل احمد محمد عبد القادر محمد مدرسة زياد بن أبيه .

وتأمل البقعة الزرقاء التي تتربع على وجه المظروف بأسف كبير ، وهمّ أن يفعل شيئاً كأن يغيره من أساسه غير أنه

توقف عند فكرة لصق الطابع من جديد ، فنفى الفكرة بهزة طفيفة من رأسه . وتتطلع الى البائع بتهيب وسأله :

ـ بالله أين صندوق البريد ؟!

ولم يسمع البائع السؤال لأول وهلة ولكنه أجاب بعد قليل :

ـ صندوق البريد .. في الشارع الأيمن على يدك اليسرى .

وهز المعلم رأسه وتمتم : شكراً ..

وهم بالسير فاستوقفه صوت البائع :

ـ استاذ .. ثمن الطابع اذا تريد ..

وكان المعلم قد نسي فعلاً في غمرة انشغاله أن ينقد البائع ثمن طابع البريد . فجمد في مكانه لحظة وقد أحس كأنه ارتكب عملاً شائناً ، كالسرقة ، او الاحتيال أو ماأشبه ذلك ، وتقدم من البائع وعلى وجهه ابتسامة مذنبة وأراد أن يعتذر فتلون وجهه وأدخل يده في جيب بنطاله الخلفي وسحب منه بصعوبة ورقة مالية . ومدها الى البائع :

ـ هل لديك صرف هذه الورقة ؟.

وتناول البائع الورقة وقلبها على وجهها وتأمل زاويتها ببعض الاهتمام ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات معنى . وأعاد الورقة الى صاحبها قائلاً :

ـ أعطني غيرها من فضلك ..

وأجاب المعلم بصوت حاول ان يكسبه صفة التحدي :

ـ هذه ورقة من فئة خمس الليرات .

وأجاب البائع بلهجة العارف الخبير :

ـ هي كذلك ، ولكنها قديمة .. انظر الى التاريخ .

وتأمل الشاب التاريخ بيد مرتجفة . وسرت الرجفة الى صوته .

ـ ألا تمشي ؟.

وعقّب البائع بخبث :

ـ ولا تزحف ..

وبدا المعلم وكأنه أصيب بالخبل ، وقد دل صوته على ذلك .

ـ ولكني قبضتها منذ ساعة .. من بائع متجول .

وأدرك البائع انه تجاه رجل حلت به مصيبة لايستهان بها فأراد أن يواسيه ، فقال محتداً :

ـ أين هذا ابن الحرام . ؟

ولم تشف هذه الكلمة غليل الشاب لحظـة ، ثم تحسس المظروف في جيب سترته الجانبية فاطمأن عليه ، ومد يده الى جيب بنطاله وأخرج منه ورقة جديدة وفيما كان يسترد البقية من البائع راح يخالجه الشك في صحة قوله . لعله رفض الورقة لأنها بالية ، أو أنه لايحمل بقيتها .

وعاد يسأل وهو خائف سلفاً من الاجابة .

ـ ألا يصرف البنك نقوداً مهترئة ؟.

فرد البائع مستنكراً :

ـ مهترئة . . قلت لك قديمة ألا تصدق . . أين كنت منذ سنة ؟ ألم تقرأ اعلانات وزارة المالية . .

وسار المعلم نحو صندوق البريد ، وهو يقلب الورقة بين أصابعه والحزن يفيض من عينيه وزوايا فمه . وراح يحسب كم تبقى من راتبه . وقفز قلبه من بين ضلوعه ، ترى كيف حال الاوراق المالية التي أودعها الرسالة .؟ وتحسس الظروف مرة أخرى . ثم توقف فجأة وتطلع الى الخلف أمام الدكان وهو يحدث نفسه تراه أسقط شيئاً . . وحسب : مائة في الظرف وخمس في يده ومد يده الى مؤخرة بنطاله . .

ودفع بالرسالة الى صندوق البريد ، وقذفها بقوة فارتد الغطاء ، وامتدت يده بصورة عفوية الى أسفل الصندوق . ثم استدار وقفل راجعاً ، يمشي على غير هدى . ترى هل يعثر على البائع الذي غرر به .؟

وتصوره بلحيته النامية ، وطاقيته العتيقة وسرواله الذي يكنس الارض بين قدميه ، وعندما وصل بتصوراته الى سحنته القاتمة وصوته الفظ شعر بالضعف والتخاذل . وحدث نفسه : واذا رفض ان يردها .؟ من السهل أن يقول له إنه لايعرفه وإن

آلاف الزبائن يشترون منه كل يوم ثم يختم مناقشته بكلمة نابية يصيح بعدها :

ـ سكري يابرتقال .. سكري .

وماذا قال بائع الطوابع .؟ اعلان من وزارة المالية . . أين ستتاح لي فرصة قراءته .. أمام اعمدة الترام .؟ وقفزت الى رأسه في تلك اللحظة ذكرى مرعبة ، ذلك أنه وقف مرة أمام احد الأعمدة ليقرأ اعلان نعي احدى المعلمات من معارفه ، واذا ببوق سيارة مسرعة يدوي في أذنيه ، فقفز كالأرنب المذعور ، وظلت السيارة منطلقة فوق المكان الذي يقف فيه ، وتلمس بعدها جسده بشك كبير .ترى أما زلت حياً أرزق ؟

أما ذلك البائع المحتال فسوف يعثر عليه ، ثم يرجوه ويتوسل اليه ، ويقنعه منطقياً بأنه نقده خمس ليرات قديمة عندما استرد منه بقية ثمن البرتقال الذي ابتاعه . اما اذا رفض فسيصيح به على مسمع من الناس (ايها اللص ! ايها المحتال !) وسيجتمع المارون والشرطة ، فيقودونه الى المخفر .. ولكن . . ترى هل سيقف البائع صامتاً مكتوف اليدين .. ما أكرمه ان مد يده الى جيب سرواله العريض واعطاه بدلاً منها ورقة جديدة ، عندها ستنتهي القضية . ثم عاد يتصوره يصيح بصوته الخشن :

ـ سكري يابرتقال .

ويداه الكبيرتان الخشنتان تدفعان العربة المكتظة ، ثم تتلقف الاوزان الحديدية المصفوفة امامه . ماذا يحدث لو قذفه بأحدها.. يالها من مهزلة !. لصوص يسرقون الناس على قارعة الطريق .! وهم اقوياء بأجسادهم والسنتهم ، لايخجلون ولا يرف لهم جفن. اما هو فضعيف بجسمه ولسانه .. لم خلقه الله ضعيفاً هكذا حتى انه لايستطيع ان يدافع عن ابسط حق من حقوقه .؟ وارتعش حين وصل بتفكيره الى الله ، وأوقف افكاره عند هذا الحد.

وأحس باصابعه المتشنجة تصارع الورقة البالية ، وتمضغها دون هوادة . فأخرجها ، ومهدها قليلا ، ثم طواها وأودعها جيبه الداخلي بعناية .

ها هو ذا يعبر شارع صلاح الدين دون ان يشعر . ووجد نفسه يسير بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه بائع البرتقال أمس . فتنفس الصعداء ، بعد ان كان قد حبس انفاسه مدة طويلة ، وتوقف امام بائع صحف ، ويداه في جيبه . وتصور سحنة غريمه البغيضة ، وتخيل نفسه في ليلة مظلمة قد اقفر فيها الشارع ما خلا البائع الذي كان يعد غلته ، مغفلا كل ماحوله ، وانه سار اليه من الخلف وامسك به من عنقه ، بأصابع فولاذية ، وجذبه بقوة وعنف الى الوراء ، وان البائع فقد توازنه ، وتهاوى بين اقدامه ، فانهال عليه لكما وركلا وتمزيقاً ، وان

البائع الفظ جعل يبكي .. يبكي كطفل صغير ويئن ويتوسل اليه وانه وقف هو فوق رأسه مكتوف اليدين ، ضاحكا على ذله وضعفه ، ثم بصق في وجهه ، وتركه وحيداً دون أن يعبأ بصراخه الذي يفتت الاكباد ..

ويبدو ان المعلم كان يقرأ الجريدة وهو يسبح في تخيلاته بدليل أنه قرأ العنوان التالي في جريدة دمشق المساء (وحش سوق النسوان يساق الى العدالة ، النيابة العامة تطلب اعدام الوحش).

وتأمل في صورة القاتل بعين خابية ، فوجده بشراً من فصيلته . شاب عادي ، وربما يكون معلم مدرسة مثله تماماً . انه ليس وحشاً كما تزعم الجريدة ، ومع ذلك فسيشنق ، وأحس بغتة بالقشعريرة تسري في اوصاله ، وبالضعف يتسلل الى انفاسه ، وبحبل المشنقة يضغط على بلعومه ، فامتدت اصابعه دون وعي الى رقبته تحل العقدة المنكمشة . ستكتب عنه الصحف : (وحش الليل ، جريمة الموسم ، معلم مدرسة يغتال بائع برتقال) وماذا سيكون رد الفعل عند امه المسكينة ..؟ ستفقده . وستبكي ومن أين ستجلب المال بعد ذلك .؟ وأخته ستبيع نفسها الى أي شيطان ، ليس لها من احد سواه . ولكنه عاد يطمئن نفسه عندما وصل الى هذا الحد (مائة ليرة سورية ستصلها غداً صباحاً) .. ولكن ترى ماذا لو ضاعت النقود .؟ وأحس بغتة

بفؤاده يغور في الأرض ، ماذا لو ضاعت الرسالة كلها . ؟ أليس من المحتمل ان تفقد .؟ لقد أرسلت النقود في رسالة عادية . . رسالة غير مضمونة . ولكن لم هذا الخوف كله .؟ هل حشوتها ذهباً .. ولكن نعم مائة ليرة .؟ انها اغلى من الذهب . .

ووجد نفسه يسرع الى بائع الطوابع ، كان طيباً حياله ، ألم ينعت بائع البرتقال باللص .؟ لاشك انه رجل غيور . .

وزف اليه الرجل بشرى جديدة لاتقل عن سابقتها اثارة .

- هل وضعت الرسالة في صندوق البريد .؟ أظن ، لم يعد بالامكان استردادها ، دعني اهمس باذنك . انها ضاعت .. لا . . لا تفتح عينيك هكذا .. لقد حضر الساعي منذ قليل بكيسه المكتظ وطلب باكيت فيليب موريس نعم . . كان يبدو كمن هبطت عليه ثروة مفاجئة . انه لم يربح ورقة يا نصيب كما أعلم .. كان يأتيني كل مساء ويشتري خمس سيكارات ريجي اما الآن .! دعني أهمس بأذنك ان لسعاة البريد حاسة لمس غريبة وأن لأصابعهم انوفاً كبيرة ، تشم رائحة الفرنك على بعد مائة خطوة. يكفي أن يدس احدهم يده في صندوق البريد ، ليحسب الثروة التي سيملكها .. أفي رسالة عادية .. ترسل هذا المبلغ .. فظاعة .!

وعلى أي حال ، هه سأساعدك اذهب الى ادارة البريد ، هل تعرفها .؟

ووصل المعـــلم الى دائرة البريد ، ووقف يزدرد انفاسه . نوافذ كثيرة مفتوحة امامه ووراء كل نافذة وجـــه جديد ، الحوالات ، الامانات ، البريد الجوي ، الودائع .. الى أي نافذة يذهب .؟ وتقدم الى اقرب نافذة امامه . وكان وراءها شاب صغير وبدا منهمكا في تصفح صورة عارية ، وحزمة من شعره تغطي نصف جبينه الأيسر ، ووصلت الى أذني الشاب من بعيد هذه الكلمات .

ـ ياسيد ، لقد أرسلت رسالة عادية و . . .

ورفع الموظف الصغير رأسه الى الخلف ، فقفزت حزمـــة الشعر في الهواء ثم حطت في مكانها على جبينه .

ـ ماذا .؟ رسالة . ؟ هنا الودائع ياأستاذ . . ورجـع يتصفح صورة فتاة تقفز الى البحر .

واقترب المعلم من النافذة الثانية ، كان وراءهـا شاب نحيل جداً يعبث بساعته اليدوية وتناهت الى أسماعه شكوى .

ـ لقد أرسلت رسالة عادية وأريد أن . .

ورفع الموظف يده وكأنه يطرد ذبابة . . واستمرت الشكوى :

ـ أريد أن أجعلها مسجلة .

وطرد الموظف الذبابة مرة ثانية ، وعادت الذبابة تطن :

ـ لقد أخطأت ، وضعت فيها نقوداً .

وعندها انفجر وراء النافذة صوت كالفتاشة .

ـ قلت لك هنا ليست الرسائل . .

وسقط على الارض يبحث عن نابض الساعـة الذي أفلت . وشعر المعلم بأنه يود أن يبكي على الاقل ليبعث في نفسه بعض الراحة . . ودخل ممراً طويلاً ، يجب عليه أن يطرق الأبواب . . في الغرفة الأولى قيل له ان يذهب الى قسم التسجيل وفي الثانية أمر أن يذهب الى قسم الفرز ، ودخل غرفة صغيرة انها قسم السوق . كان فيها موظفون بألبستهم الرمادية ، واقفين على أهبة عمل ما ، وقد اشتركوا في مناقشة حامية ، وصوت أحـــدهم يطغى تقريباً على أصوات المجموع ، كان يصيح (نعم . . أسوة ببقية الموظفين . . نعم نحن خلق الله أيضـاً . . الحقوق . . أين الضمان اذن .؟) وخرج الجميع دفعة واحدة ، وبقي واحد فقـط فتعلق المعلم بكتفه (لي رسالة و . .) فأجاب وهو يخرج بدوره: أنا الآذن ياسيدي . . وبقي المعلم وحيداً ، والاصوات تطن في أذنيه . وشبك يديه وراء ظهره ، وهز كتفيـه وهم بالخروج ولكن شيئاً ما جلب انتباهه ، سلة كبيرة مملوءة بأوراق ممزقة، واقترب منها محاذراً ، وفتح عينيه . . وتقدم أيضاً . . ثم انحنى وحدق ليتأكد جيداً مما يرى ، ثم فغر فمه وهو في غاية الفزع..

كان هناك غلاف مفتوح على خده دمعة زرقاء .


المجاهدون

منذ اكثر من عشر سنوات واهالي القرى العربية على الحدود الفلسطينية يعيشون في جو من النار والدخان ، لا يسكتون على عدوان ويقاومون الرصاص بالرصاص ، ويصمدون للنوايا العدوانية باليقظة والحذر . دون ان يفت ذلك من عضدهم بل يجعلهم على الدوام يعيشون مؤمنين باصرار بانهم لن يتخلوا عن شبر واحد من الارض.

★ ★ ★

رفع المجاهد محمد عبد الله السليمان رأسه من جوف خندقه ، واشرف بعينيه السوداوين الحادتين على سطح بحيرة الحولة . لقد اصبح كل شيء هادئا ، والماء راكدا ركودا تاما ، لا يعكر صفاءه غير خط ابيض متعرج ، يصل ما بين مستعمرة زبيدة والدردارة اليهوديتين ، هذا الخط الذي رسمه من قبل زورق حربي ينقل ثلة من الجنود الى المستعمرة الثانية .

وبالقرب من الشاطىء كانت وزتان تغطسان في الماء ، ثم ترفعان رأسيهما لتبتلعا السمك الذي اقتنصتاه من الوحل وكانت

الشمس تثبت اشعتها المائلة على سطح البحيرة ، تعكس النور على صفحتها وتفرشه في الاتجاه الشرقي حتى يشمل كل شيء .

وعلى بعد قليل من الوزتين كان ثلاثة اطفال عراة لوحت الشمس اجسادهم ، يغطسون في الماء الضحل غائصين برؤوسهم الى الاسفل مقلدين حركة الاوز . ومن بعيد ، عبر بستان الخوري ، كان صوت محرك يهدر باستمرار ، حتى ليكاد صوته يضحي قطعة لا تتجزأ من الصمت المطبق .

وارخى محمد عبد الله السليمان رأسه قليلا ، ولكز أخاه قاسم عبد الله السليمان وكان مستلقياً الى جواره يعانق بندقية جديدة .

ـ قاسم !. مارأيك بأكلة لحم ؟.

وتملل قاسم في خندقه الرطب ، وكانما قطع عليه سلسلة احلامه الهنيئة ، وغمغم بصوت يخنقه الضجر :

ـ لحم اولاد ؟.

وضحك محمد ساخراً ولم يجب . غير انه اسند بندقيته الى كتفه وضغط الزناد .. وافترش صوت الانطلاق البحيرة على سعتها ثم تجاوزها غربا فاصطدم بالجبل المقابل ، وابتلعته الشمس الغاربة بعد ان احدث صوتا يشبه ملايين الاجنحة المصفقة . وصرخ الاطفال وانقضوا كالنسور على الاوزة التي فقدت توازنها ، وهوت مصعوقة

مرتجفة ، ولم يطل محمد النظر الى البحيرة ، بل اخرج حبلاً من جيب سرواله وراح يدخله في فوهة البندقية لينظفها .

وعاد الهدوء يرين على المنطقة بأسرها مشوباً بالتحفز والدهش. فقد توقفت مواشي قرية جيلبينة فترة عن الاجترار وحركت اذنابها حركتين ثم ما لبثت ان عاودت عملها بهدوء . ولمواشي هذه القرية قصة محزنة ، الفتها على مر الايام ، وهي انه كثيراً ما يقطع عليها حبل الصمت ، لتفاجأ ببضع قنابل هاون او قذائف مدفعية ، تسقط بينها فجأة دون مقدمات فيرتمي بعضها في ارضه ، ويتبعد بعضها الآخر قليلا عن المكان ليعاود الاجترار بهدوء . ولعل انفجار الطلقة في هذا المساء جعلها تهيىء نفسها لاتخاذ اجراء ما ، فقد الفت هذه العادة واصبحت اكثر حذرا ، خاصة في الايام الاخيرة .. ولعل احجار القرية السوداء نفسها تشارك الحيوانات نفس المصيبة ، غير ان سوء حظها يجعلها غير قادرة على اتخاذ اي اجراء . اللهم الا انها تتساقط في مكانها دونما ضجة . اما سكان القرية فيمكن القول انهم الوحيدون الذين اصبحوا يتلقون الامر دون مبالاة ، وذلك لانهم آنسوا في انفسهم القدرة على النجاة دون اتخاذ اي احتياط .

فمنذ اكثر من عشر سنوات والقرى العربية على الحدود

الفلسطينية تعاني من المداعبات المماثلة ، وقد تصاب احيانا امرأة مسنة من جراء هذا العدوان المستمر - ولنسم هذه القنابل باسمها الحقيقي - إلا أن ذلك لم يفت في عضد أهاليها ، بل جعلهم على الدوام يعيشون في جو من الحقد ، مصرين على ان لا يتخلوا عن شبر واحد من الارض.

وفي مساء احد الايام كانت فئة من مقاومي القرية تتسلل الى الخنادق المحفورة في التخوم . صاح شيخ بالاخوين عبد الله السلمان :

- مساكم الله بالخير .

فرد الاخوان :

- مساك الله بالخير .. شو الخبر ؟ .

فأجاب الشيخ وهو يتجشأ مالئا جو الخندق برائحة البصل :

- جاءت الاوامر باحتلال الخنادق .

وكان الشيخ قائداً للمقاومة الشعبية في القرية .. في حوالي الستين ، كث الشاربين ، خفيف اللحية ، برزت قبضة من الشعر من تحت عقاله ، تقلد بندقيته على طريقة الجنود، وانتعل بسطارا عسكريا من لون التراب ، وكان لون شاربيه ولحيته بلون الحنطة الناضجة . وراح يوزع رجاله على اليمين واليسار والوسط ، ملقيا بعض الاوامر والتوجيهات المناسبة . ويقال إن جميع رجاله يهابونه ويحترمونه ، لا كواجب من مرؤوس تجاه رئيس ، وهو الشيء المتعارف عليه عسكريا ، ولكنه نال هذه المنحة عن جدارة

واستحقاق . فأبو المحاميد ـ وهذا هو اسمه ـ اشتهر بارادة تفل الحديد ، وآخر حادثة له منذ اسبوع هي انه بينما كان يحرث توغل في الارض العربية غربا حتى آخرها ، وهناك اصطدمت سكة محراثه بسلاسل التراكتور اليهودي ، فتوقف المحراث والتراكتور معا فضحك اليهودي وقال لابي المحاميد شيئاً في لهجة ساخرة ويفسر ابو المحاميد ما قاله اليهودي بما معناه :

ـ ابتعد او ادهسك انت وثورك ومحراثك تحت التراكتور .

ويقول ابو المحاميد إنه اجابه بسخرية مماثلة :

ـ انت وتراكتورك ودولتك ما بتعلق على صرمايتي .

وخبط قدمه على الارض مشيراً الى حذائه وطبعا لم يسمع احد من الناس هذا الحوار ، غير انه شوهد من قبل جميع سكان القرية ، يقف فترة من الوقت في مكانه ، حتى ان المقاومين اتخذوا اماكنهم للدفاع . وقد تدخل المراقبون الدوليون فعلا قبل أن يتطور الحادث .

وما ان وزع ابو المحاميد رجاله ، في امكنتهم وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله ، حتى انتحى جانباً بمحمد وقاسم العبد الله

السليمان وأمرهما بالرجوع الى قرية الجليبية لينالا قسطا من الراحة والعودة حين سماع الرصاص . ثم عاد الى رجاله .

وكانت السماء صاحية ، واخذت الضفادع تنق وهي تستنشي رائحة الربيع وشعر المقاومون بان الغد يحمل اليهم احداثاً جمة . وهتف صوت حاد النبرة :

ـ الله يعطينا خير هذه الليلة .

فأجابه ابوه ، بصوت شبيه بصوته :

ـ ولك مرعي ، والله ان ما كنت ابن ابوك لاذبحك قبل ما يذبحك اليهود ..

فأجاب الابن :

ـ ولو يابا ، اذا ما كنت ابن أبي فسأقتل نفسي قبل ما أحد يقتلني .

وكان الشيخ أبو المحاميد خلال ذلك يقول :

ـ «اسمعوا يا اولاد .. جاءت اخبار بان اليهود يجمعون قوات ودبابات في بستان الخوري وكعوش وتليل وزبيدة وقد يهجمون علينا ويمكن الرافعة بدها تشتغل بالحفر غداً . ويمكن تشتغل الآن في الليل ، مش لازم نتركها تعمل . بكرة اذا جفت مياه الحولة

ما يبقاش فاصل بيننا وبينهم ، فيتسللوا علينـا كل ليلة ، وتصير مقاومتهم صعبة .. ويستولوا على ارضنا ، ويذبحونا و .. »

وكان الرجال يشدون على بنادقهم الجديدة ويحشونها بالرصاص ويقاومون النعاس . وفي خـلال الليل مرت عليهم ثلاث دوريات صديقة ، عادت آخرها مع صياح الديك ..

وفي عصر اليوم التالي كانت الرائعة قـد عطلت ، وتصاعد اللهب والدخان في الافق الغربي ، ونشط مراقبو الهدنة بصورة لم يسبق لهـا مثيل .



لا .. لن يموت ولدي

توقفت السيارة الكبيرة عند مفرق طريق – الضمير – أبي الشامات ، المؤدي الى بغـداد · ولفظت من بابهـا الخلفي شيخا ، علق شق عباءته بشيء ما ، ثم ما لبث أن أغلق الباب في عنف ، واستأنفت السيارة صعودها مرتفع (الثنايا) ، جاعرة صاخبة ، تجر وراءها عينيها الحمراوين ، وعباءة عامل البنـاء (حسن حمود) الذي استند الى علامة تقاطع الطرق ، عاريا مذعورا ، أعجزه الارتباك عن الاتيان بأي عمل ·

وعندما أفاق الشيخ من دهشته تحسس جانبه الايمن ، وشد الى جسده صرة من الملابس الخشنة ، ووقف جامدا كجزء متمم للنصب الحجري الذي حفر عليه :

(الضمير ، أبو الشامات ، بغداد)

وكان فقـدان العبـاءة في هـذه اللحظـة فاجعـة لا يمكن نكرانهـا ، في هـذا الليـل الحـالك ، وتحت السـماء الممطرة ، ووسـط هـذه الريح الصحراوية القا[illegible]ة · وفكر الشـيخ : لا ·· لا يمكن · وأراد أن يصـرخ

ويستنجد ، أو أن يتبع السيارة ليستخلص العباءة ، ولكن بعد فوات الاوان ، فقد كانت العربة تبتعد وتبتعد ، ولم يبق من آثارها غير ضوء باهت تدفعه أمامها ، لينير لها المرتفعات المتعرجة التي تشق الجبل ، ثم ما عتمت أن أختفت وراء أحد المنعطفات ٠

وحين فقد ، (حسن) الامل في استرداد عباءته المفقودة ، تحرك في مكانه ، وأجال حوله نظرة متفحصة ، ثم استلم الطريق الشرقية الى قريته (الضمير) ٠ وما أن ابتعد عن النصب الحجري ، حتى استحال الى كتلة سوداء تذوب في جوف الليل البهيم ٠

كان المطر يتساقط فوق رأسه رذاذا بطيء الخطا ، يحدث وقعه على شملته وكتفيه تأثيرا منعشا ، جعله يفكر في بساطة : الله يبعث الخير ٠ وأحس وهو يدب بقدميه القويتين على الارض ، بأنه يغرس في كل خطوة يخطوها حبة من القمح ، ستغدو بعد وقت سنبلة تحمل مائة حبة ٠ وتصور بخياله المكدود ، انه مغمض العينين وسط حقل واسع تتماوج فيه السنابل الخضراء ٠ وراح يحاول ، بتصوراته السارة ، أن يبعد عن مخيلته ما أمكن ، تلك الاحداث الجارحة التي توالت عليه طوال هذا اليوم ٠ وتابع الشيخ خطوه وسط الوحشة المحيطة به ، يبذر حبات الحنطة كما تبذر السماء رذاذ المطر :

ـ ايه الله يبعث الخير ٠

الخير ٠٠؟ وشعر بالماء ينساب الى فقرات ظهره ، فرفع أصابعه الى صدره يشد بها ياقة قميصه لتمنع تسرب المطر الى جسده ، وحث الخطا جاهدا ، ليصل الى القرية ، قبل أن تسكب السماء خيراتها الوفيرة ٠ غير أنه فجأة ، تنبه الى أن فقدان

العباءة في مثل هذا الوقت لا يمكن أن يكون بالامر اليسير ، فعاد الى المشكلة يعالجها في كآبة وحسرة أشد ٠ ولكن ما الفائدة ؟٠ لقد راحت كما راح الولد ٠٠ اختطف الاثنان معا ، وفي يوم واحد ٠

مات الولد صباح هذا اليوم ٠ وها هي ذي ملابسه أحملها معي ، هذا كل ما تبقى من حياته كلها ، من عشرين عاما قضاها يحفر الارض ، ويخرج منها الصخر والرمل ، ويبني البيوت ويسكن الناس ، مات ٠٠ ولم يبق منه غير هذه الصدرية والسروال والقميص ٠ وشد الصرة الى جسده في حرص وحنو أكثر ، فخيل له انها تبعث الدفء في أوصاله : ايه الله يبعث الخير ٠ فما هي الفائدة من الحزن ؟٠ اذا كان الحزن يعيد الاموات الى أهليهم لما كانت قبور حتى الآن ٠ لماذا يحزن الناس اذن ٠؟ لقد مات والسلام ٠ ايه الله يبعث الخير ٠٠ وما أن توصل الشيخ الى هذه النتيجة المقنعة ، حتى أحس بقدميه تغوصان في الوحل ، فتوقف عن السير : لا شك في اني ضللت الطريق ٠ ورفع رأسه ، وحاول في مشقة بالغة أن يتبين مواقع قدميه : هه ، لقد أخطأت ، ان هذه الافكار السوداء هي السبب، ينبغي لي أن أطردها من رأسي ، ورجع خطوتين الى الوراء ، ثم استأنف السير ٠

كان التعب قد بدأ يغزو ركبتي الشيخ ، عندما بلله المطر حتى العظم ٠ فأصبح يحس بثقل خطواته ، وكأنه لا يمشي مشيا عاديا ، بل كما لو أنه يدفع أمامه محراثا يشق الارض الصلدة ٠ خاصة وان موجة الدفء التي تغلغلت في دمه ، تلاشت دفعة واحدة بفعل ريح شديدة باردة ، لفحت صدره ودمه ، وجعلت قميصه يلصق بعروقه ٠ فشد صرة

الملابس الى جسده في عنف ، ليستمد منها قوة ودفء جديدين. وفجأة أوحت له الصرة بفكرة رائعة غاية الروعة (لماذا لا يلبسها ؟) لماذا لا يرتدي قميص ولده وصدريته وسرواله الان وعلى الفور .. ألم يكن محمد ولده نافعا في حياته ، فلم لا يكون هو في مماته ..؟ ثم ، أليس هو أباه ووريثه ..؟ أبا لذاك الفتى الذي مات فيما هو يحفر في الرمل ؟ لقد انهارت المرملة فوق رأسه فاختنق .

وعلى جانب الطريق ، وتحت نفح الريح الباردة ورذاذ المطر ، في جنح الليل المظلم ، جلس الشيخ (حسن) القرفصاء، وراح ينزع ملابسه قطعة بعد قطعة .

وكان الشيخ قد ذهب في الصباح الى مستشفى الغرباء (الجامعة) ، وسأل البواب في تهيب ذي الحاجة الملحة في دائرة رسمية :

ـ أريد بالله أن أرى ولدي محمد الذي اختنق تحت المرملة في الجبل ..

وأجابه البواب ، الذي كان يعامل الزائرين وكأن لا شيء يحزنهم :

ـ ممنوع زيارة المرضى اليوم .

وصمت الشيخ قليلا ، وكأنه يستحضر الاجابة اللائقة في هذه المناسبة الفريدة ، ثم قال :

ـ ولكن ابني ليس مريضا ..

واحتد البواب صائحا :

ـ لماذا تزوره اذن ..؟

وفكر الاب : صحيح لماذا ؟٠ وقــال لنفسه بصـــوت مسموع : لانه ميت ٠٠

وظن البواب بأن هذه الاجابة كانت موجهة اليه ، فهز رأسه ، وتحرك من مكانه مغمغما :

ـ طيب ٠٠ لاسأل لك عنه ٠

ودخل الشيخ (حسن) ابهاء المستشفى البراقة النظيفة، وتهيب الخطو بحذائه العتيق الوسخ فوق بلاطها المصقول ٠ وسأل نفسه في صدق : عجيب ٠٠ كيف يموت الناس اذن في هذا المكان النظيف ٠؟

وقالت له ممرضة بيضاء ، من الرأس الى الاخمص :

ـ هل تريد أن تأخذ حاجياته ٠؟

وفوجىء الشيخ بهذا العرض غير المتوقع ، فلم يكن مهيأ لاي سؤال ٠ وأخذ بفتنة الممرضـــة ، وكانت قبيحـــة الوجـــه ، حتى أنه لم يدر بأنه أجاب :

ـ لماذا ٠٠؟

وردت الممرضة في عصبية ، وكانت تتصاعد من ملابسها رائحة الاثير :

ـ لاننا لسنا في حاجة اليهــا ٠ وهو لــم يترك غـــير قميص و ٠٠ و ٠٠

ومدت يدها اللطيفة الى باب جانبي مفتوح نصف فتحة ، ترى من خلاله أوان زجاجية من الاحجام كافة ٠ وأطل الشيخ برأسه من الباب في ارتياب ، وقال :

ـ أريد أن أراه ٠٠ هـ ٠٠ هـ ٠٠ هـ ٠٠ هل هو هنا ٠؟

ـ ممنوع ٠

وتنهد الشيخ مستجديا :

ـ أن ٠٠ أراه قليلا ٠

ورفعت الممرضة كفها في اعتراض :

ـ لا يمكن ٠٠ لاز ٠٠٠٠

وتوقفت ، كانت تهم بفضح سر مخيف ، قد يخرج الفلاح المسكين عن اتزانه كله ٠٠ فقد كان القتيل مسجى ، نتفا ، على طاولة الدراسة ، يلتف حوله طلاب الصف الاخير في كلية الطب يمزقون رئته بالمباضع ، انهم يتلقون درسا في المحافظة على الحياة بانسان ميت ٠٠

وأخيرا ، تناول الشيخ مخلفات ولده من أحد الخدم و ٠٠ وقف ينتظر شيئا ٠ ثم سأل :

ـ أين السترة ٠؟ انها جديدة ، اشتراها ولدي محمد للعيد ٠٠

كان يتكلم وكأنه خلي البال ، يفاوض بائعا لا علاقة له بما يدعو للدهشة ٠٠ ورد الخدم دون ترو :

ـ تمزقت أثناء نشله من تحت التراب ، أصبحت ممسحة للارض ٠

وفكر الاب في غبطة : لا بأس ٠٠ لم يكن حتى موته يخلو من فائدة ، فهم يمسحون الارض بسترته ٠ وألقى من

جديد نظرة الى البلاط اللامع المصقول · ولكن ما لبث العزاء الذي داخل قلبه ان انحسر · فعلت سيماه غيمة من أسف ، وكانت على السترة وحدها دون أي اعتبار للعظام التي كانت تكسوها هذه السترة · فالقدر هو المسؤول عن هذه الاخيرة ·

عندما كان (حسن) يرتدي ملابس ولده الفقيد على حافة الطريق ، عاودته فكرة السترة وتمنى لو أنها لم تمزق · وفكر في كثير من الشك : لربما انهم كاذبون · فقد تكون السترة سليمة وقد أعجبت أحدهم فأخذها لنفسه · ثم ما لبث أن دحض هذا الظن لا ·· تلك الممرضة لن تكن موضع شبهة ، ليته سألها عنها فمنظرها يدل على أنها لا تكذب ·

كان القميص قصيرا بعض الشيء ، غير أن السروال العريض عوض عن هذا النقص · وعندما عقد الشيخ أزرار الصدرية حول عنقه ، خامره نوع من السعادة ، تلك السعادة الهادئة التي يستشعرها الانسان حين يداعب جفنيه النوم · ثم نهض يتابع طريقه ·

وكان ، بعد مغادرته المستشفى ، قد قصد مرآب الضمير ، فوجد أن السيارة أقلعت قبل وصوله ، ولما لم يكن هناك من مكان يقضي فيه ليلته ، فقد آثر أن تقله أية واسطة الى البلدة ، وعلى الفور ، ليتفرغ الى شؤون الأم الثاكل المسكينة · وكان أن ركب سيارة عابرة أوصلته الى مفرق الطرق ·

كانت القرية ما تزال بعيدة ، على مسافة ثلاث ساعات في النهار ، أما في هذا الليل البهيم ، وتحت رحمة عناصر الطبيعة

القاسية هذه ، فالامر يختلف ، لذا فقد هز الشيخ رأسه : لا بأس ٠٠ سأصل مع الفجر وسيعينني الله ٠

كانت غريزة الفلاح الذي رضع التراب مع اللبن ، والتحف الارض والسماء منذ نعومة أظفاره ، هذه الغريزة التي نمت وعاشت في عروقه مع تجارب الحياة المثيرة طوال سبعين عاما من العمر المديد ، كانت هذه العوامل تتيقظ في أعماقه كلما أحس بالوحشة أو التعب ، وليس الخوف ، كان لا يني يتقدم ، شاقا سبيله في الحندس ، كما لو أنه يمشي في وضح النهار الى هدف قريب يراه بأم عينيه ٠ يطرد الافكار المؤلمة عن رأسه كما يطرد الجزار قطة تحوم حول خروف يسلخ ٠ وكان يقاوم الريح والمطر والوحشة والخواطر المحزنة ، جاهدا ليصل الى القرية قبل أن تعلم زوجته بالحادث عن غير طريقه ٠

انه يلبس أمتعة ولده الذي فقده منذ ساعات ولم يسمح له برؤية وجهه ٠ ولده محمد الذي لم يره منذ العيد الصغير ، وها هو ذا عيد الاضحى يهل دون أن يراه فيه : كل عام وأنت سالم يا ابني ٠٠ وأنت سالم ٠ ها هو ذا يردد هذه التهنئة العقيمة وفي نبرة رتيبة ، على وقع حذائه البالي الممتلىء بالماء ، الذي يخب به محدثا صوتا روتينيا يبعث على الغيظ ٠ ولكن أي انسان يستطيع أن يسير وحيدا حتى من أفكاره ٠؟ وحيدا حتى من الصور التي تتلاحق في رأسه تباعا ٠ لقد جرب الشيخ ذلك ، جرب بكل ما فيه من عزم ، أن يغمض عينيه ويسير ، وان لا يذكر شيئا على الاطلاق ، حتى أنه راح يتخذ من لغط حذائه مادة طريفة لتزجية الوقت ٠ وكان الحذاء يردد في نغمة واحدة لا تتبدل : زيء زيء زيء زيء ٠٠ سريعة ومتلاحقة ٠

وفي وقت من الاوقات مل الرجل هـــذه النغمة الهازئة فرفع ساقه الى الاعلى، وصار يلقيها دفعة واحدة في بطء . وردد الحذاء هذه المرة النغمة في أسلوب جديد : يب . يب . يب . يب . ولم تعجبه هذه النغمة الساخرة بدورها ، فأرخى ساقه على سجيتها ، ومن سوء الحظ أن الرجل الذي كان لا هدف له الا السير والسير وحده ، الفى نفسه أن هذا السير هو الشيء الوحيد الذي بات يعذبه ، ولكنه لم يتوقف .

وفجأة تسربت الى أنفه رائحة منعشة ، انها رائحة الزبل المحروق في الافران ، وسمع لغطا آتيا من بعيد ، ونباح كلب يرد في حقد على عواء ذئاب ضالة ، فتذكر أنه وصل الى أراضي القرية .

هناك البيت ، بيته وبيت زوجته وولده ، هناك كـان محمد صغيرا يلعب على السطح ، فيقع ويشج رأسه ، ثم يعيد الكرة مرة ثانية وثالثة ورابعة .. حتى يكبر ، ويصير رجلا ، يحمل أنف أبيه الدقيق المرتفع ، وجبهته العريضة ، وحاجبيه المقفولين في غضب ، وذقنه البارزة في تحد ، وصـــدره العامر بالشعر الكثيف . هذا البيت الذي لن يراه محمد بعد الآن ، ولن يطرق بابه ، ولن يصلح جدرانه . ومخدع محمد ما يزال هناك ينتظر عودته ولكنه لم يبق له ، أصبح لذكراه . فراشه الحديث ، والاثاث الذي جلبه من الشام ، والذي كان يستلقي عليه ويقول : أوف .. ما في شغل يابا ، هذا المخدع لن يشغله محمد بعد الآن ..

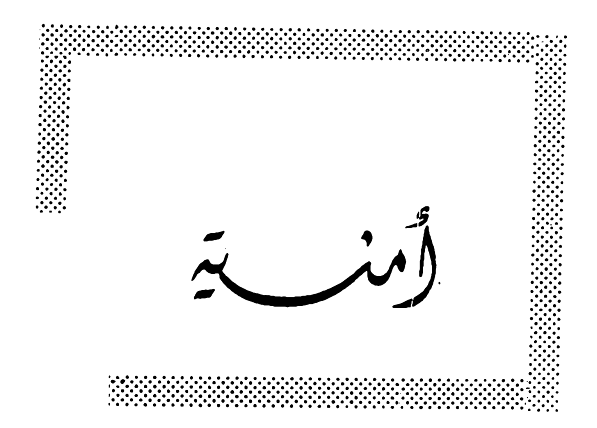
وأحس الشيخ بفراغ مخيف مفاجيء يقبض على صدره ليخنقه . أحس بسبعين عاما من حياته ، بهذا السور العظيم الشامخ ينهار في وجهه دفعة واحدة ، ويحدث دويا هائلا يصم

أذنيه ، سبعون عاما تختفي في ومضة ، عمر كامل طويل يغوص في الارض · لا شيء ، حفنة رماد تذروها الريح ·

ولكن ·· كيف ؟· هل يمكن ؟· ولدي محمد هل ذهب؟· لا ·· ينبغي له أن يعود · الى قبره على الاقل · فليكن له قبر اذا لم تكتب له الحياة · قبر ، أزوره في الاعياد وفي رجب ، وفي نصف شعبان ، وفي ليلة القدر · سيكون لي شيء ، ذكرى تشغلني ، أحدثها في شيخوختي · وعندما أحصد وأبيع الغلال سأشتري له باقة من الاس ، وشاهدة أكتب عليها : يا حي يا قيوم ··

ووجد الشيخ نفسه ينكص عائدا ، يعدو كشاب صغير ، لاهثا متعبا ، يمسح العرق عن جبينه · كان يتجه نحو أضواء كثيرة تتغامز ضاحكة ناعمة ، تغريه بكل ما لديها من اغراء ، وتدعوه أسرع أسرع أسرع قبل فوات الاوان و ·· خذ ولدك ·

وكان الشيخ (حسن) في لحظة من لحظات انفعاله قد قفل عائدا الى دمشق ، ليسترد جثمان ولده الذي مات ··



أُمنية

كانت أمنية (زهرة) ـ وهي امرأة في الرابعة عشرة من عمرها ، أم لطفل رضيع ، صفراء الوجه بتأثير مرضة عنيفة بالملاريا ـ كانت أمنيتها اليومية هي املاء كيس مزدوج بالقطن ، الذي تقطفه مع زميلاتها الفلاحات في أرض الآغا الحاج محمود ۰ واملاء كيس مزدوج بالقطن ، في هذه الارض الشاسعةالواسعة، المفروشة بما لا تستوعبه العين مما يسمونه بالذهب الابيض ، يبدو لاول وهلة من أبسط الامور ۰ غير أن القضية تتعقد تدريجيا حتى تصبح أمنية من الامنيات ۰ ويبدأ التعقيد عندما تملأ القاطفة حضنها بالقطن ثم تفرغه في الكيس الكبير مرات عديدة دون أن يظهر عليه الشبع ، وتدخل القضية في باب المستحيلات ، عندما يشرف وكيل الآغا ، واحد زبانيته ، على العمل ۰

وهذا الوكيل كهل في الاربعين ، منتوف شعر الوجه ، غضنت الملذات والشراب بشرة خديه ورقبته ، يبدو مضحكا ومثيرا للاشمئزاز في آن واحد عندما يتصابى ويغازل البنات

العاملات في القطف . وقد أصبحت هذه الامنية حياة كل بنت من البنات المكدودات اللواتي تتلاحق أنفاسهن مسرعة محمومة تحت سياط الشمس وهن منكبات على جوزات القطن يعانقنها بأصابعهن المتورمة ، لان املاء عشرات الاكياس بالجهد والكدح والعرق المبذول ، أسهل ألف وألف مرة من ارضاء أبي محجوب . وما دام هذا العنصر الهام يجب أن يكون في الحسبان ، أمكن ادراك الصعوبة المتأتية عن محاولة تحقيق هذه الامنية . فهو وحده الذي يقرر ، ان هذا الكيس قد امتلأ أم لم يمتلىء . وان صاحبة الكيس قد استحقت أجرها كاملا أم منقوصا . وبالتالي، بيده الامر النهائي وهو الدفع . فالوكيل هو المكلف بدفع الاجرة . واذا عرف بأنه هو الذي قام بتربية الآغا الصغير ، أمكن معرفة الثقة المتبادلة بينهما على وجه الدقة .

كانت الشمس تتوقد في كبد السماء . مرسلة أشعتها الواخزة ، وكأنها تضطرم لتشارك في العمل . وكانت جوزات القطن المتفتحة البيضاء ، تجمد في أماكنها ، منتظرة أدوارها في تلهف ، لتقطف وتوضع في الاكياس . والى جانبي الطريق الترابية المتعرجة تبعثرت شجيرات تفاح ومشمش سقطت ثمارها أو قطفت منذ أمد بعيد . وقرب شجرة جوز عتيقة منفردة على يسار الطريق ، كانت الاكياس مبعثرة في كل مكان تفغر أفواهها في شراهة تنتظر المزيد . وعلى أغصان هذه الشجرة الكبيرة المتشعبة ، علقت صرر ، نتأ الخبز الاسود من جوانبها وشقوقها المهترئة . وجرة ماء مكسورة العنق ، وحذاء قديم لاحدى العاملات اقتصدته ليوم آخر . وملاءتان سودوان و ... شيء آخر علق في اهتمام واضح . وهو عبارة عن كيس متشقق ، طوى على شكل أرجوحة ، ونام في وسطه

طفل صغير اسمه (عزيز) ، حومت فوق وجهه بضع فراشات من شتى الالوان والحجوم والاشـكال تستطلع هـذه الثمرة الغريبة التي لم تر لها مثيلا في يوم من الايام ٠

وفتح الطفل عينيه وكـان في شـهره الخامس ، وراح يلاعب ساقيه الطريتين العاريتين المزروعتين بعشرات البثور الحمراء ٠ وكانت الهوام الجائعة قد وجدت عليها غذاء وفيرا شهيا ٠ وصـافحت عينا الطفل الفراشـات الملونة ، فظن أن شيئا ما ، طريفا وجميلا يداعبه ٠ فرفع يديه في حركات سريعة لالتقاطها ، ولكن أصابعه ظلت تنقبض على الهواء ، ثم سقطتا دفعة واحدة الى فمه يمص عرقهما في عصبية ٠ ولم يستشعر الوليد سائلا ما يتدفق الى فمه ، فرفع يديه مرة ثانية ليقبض على الفراشـات ، وراحت عيناه الواسـعتان تتابعان حومها في فضول ٠

ورفعت الأم (زهرة) ظهرها في وناء ، فطقطقت عظامه الواحدة تلو الاخرى ٠ ومـا كـادت أن تستقيم ، حتى رأت الدنيا صفراء فاقعة اللون ٠ وأحست بالارض تدور بها دورانا جنونيا ٠ فوقعت على العشب متشبثة بما في حجرها من القطن تخاف عليه من الضياع ٠ وساعدتها زميلتان لها على الوقوف، مبددتين وقتهما الثمين ، وطلبتا اليهـا الاسـتراحة قليلا ٠ وتكفلتا بأن تملآ كيسها حتى فوهته ٠ ورفضت المرأة طلب زميلتيها ٠ ونهضت من جديد ، واتجهت تلوح بما في حجرها نحو كيسها الذي انتصب الوكيـل فوقـه ، يهوي بشملته البيضاء على وجهه المتعرق ٠

وأمسك (أبو محجوب) بفـم الـكيس وفتحه ، مراقبا أجيرته بعينين متفحصتين ، لا تخلو نظرتهما من الحاف ٠ وفيما

راحت المرأة تفرغ حجرها ، مس جبينه رأسها في حركة بدت عفوية ، فأحست (أم عزيز) بقشعريرة تسري في جلدها وكأنما مستهى أنعى · ولاول مرة فاجأتها رغبة في التقيؤ · وخفض الوكيل رأسه قليلا · وتمتم :

- زهرة ···!

فتطلعت المرأة الى وجهه ، متهيئة لسماع سر يقلق روحها · ولم تدرك في الدقة الى أين تتجه عيناه · وفي هذه اللحظة ، كانت زهرة تبدو للمراقب ، ممشوقة القوام ، انزاح الغطاء عن مقدمة رأسها ، فبرزت خصلة كبيرة من شعرها الاسود ، التصقت بعض شعيراتها بجبينها الذي ينزف عرقا وقد حاولت أن تكسب وجهها شيئا من امارات السخط والنفور ، الا أنه ظل لا يعبر عن غير التعب والانهاك ، وتقدم منها (أبو محجوب) هامسا في تواضع غريب ·

- هل أنت مريضة يا أم عزيز ·· ؟

وحاول أن يكافح فكرة معينة طبعت سيماه بطابع الاثم والخنوع ، غير أنه شرع في المساومة على الفور ·

قال وكأنه يقصد معنى آخر :

- زهرة ·· زوجك لم يهرب الى محافظة الجزيرة ·

وتجمدت أوصال المرأة · وحملقت في وجهه تكاد أن تصرخ · فيما تابع هو وقد شعر بأنه كسب المبادهة :

- أنت تعرفين بأنه شرع في حرق دار الآغا مع حسين وطه وعبد الرؤوف وبقية الشلة ·

ولهذا طلبه الدرك في الليل ، كذب عليك وقت قال لك ،

أنا رايح على الجزيرة لاشتغل ، لم يذهب الى الجزيرة ٠٠ أخذته أنا والدرك الى المخفر ٠٠

وكافحت المرأة فيضا من المشاعر المضطربة ، جاشت بها حناياها الموجعة ، ثم أجابت في رصانة مهزوزة :

ـ أبو عزيز محبوس ٠٠؟؟

ورمقها الوكيل بنظرة مستتشفة ، محاولا أن يوحي اليها بأنه شخص غير عادي ، وعلى مستوى رفيع من الخطورة وقوة البأس ، وان بيده انقاذ زوجها أو شنقه ٠ وأحست المرأة في قرارة نفسها بأن هذا الرجل يريد منها شيئا غاليا ، ولربما كان ابنها بالذات ، غير أنها فاجأته في برود :

ـ يعني ٠٠؟

وذهل (أبو محجوب) ونفخ في حدة :

ـ ألا يهمك كون زوجك في السجن ٠٠؟

وردت المرأة في حرون :

ـ لا لا يهمني ٠٠ فما دام غائبا و ٠٠

لم تكمل ٠ خشيت أن تبكي ٠ وهز الرجل رأسه في خيبة :

ـ طيب ٠٠ شو عليه ؟٠٠ يفرجها الله ٠٠

ولم تخف على المرأة رنة التهديد والوعيد التي انطوت عليها هذه العبارة ، فاستدارت عائدة على الفور ٠ كانت البنات قد توقفن عن العمل لبرهة قصيرة ٠ مراقبات زميلتهن التي تأخرت عند الكيس في مواجهة الوكيل الصارم ٠ كان بعضهن يعرف عنادها ، أما بعضهن الآخر فكثيرا ما ضعف أمام جبروت الرجل ٠

وسألت بنت رفيقتها :

– هل تم الاتفاق ..؟

فأجابت الثانية :

– الله يبلي عينه بالعمى .. زهرة شريفة ، لا يمكن أن تبيع حالها .

وكانت (زهرة) تسير نحو أرجوحة ابنها . ووجدت الطفل قد ظفر بفراشة طويلة الجناحين ، ما زال أثرها بين شفتيه . وصاح الوكيل من مكانه في تهديد لئيم :

– زهرة .. كيسك ما امتلأ

وبعقت عزيزة بعقة أرعبت الطفل :

– الى جهنم ..

ورد الوكيل في حزم :

– جهنم على رأسك ..

ولم تعفه المرأة من الاجابة اللائقة ، فردت دون تلكؤ :

– على رأسك ورأس أجدادك .

وغاب صوت الوكيل في ضجة مفاجئة ، انبعثت من صفوف القاطفات ، يرددن أغنية : على رأس العين لقيتك ياظريف : وكانت تلك الملاسنة الشائقة بين (أبي محجوب) و (أم عزيز) قد أطربت العاملات .

وألقمت الأم صغيرها ثديه ، فراح الحليب يفيض من بين شفتيه المضمومتين في حرص ، واختلجت عيناه قليلا ، فلفظ الحلمة بغتة ، وتطلع الى وجه أمه في دهشة ، ثم انفرجت أساريره في ابتسامة وديعة . كانت قد سقطت على خده قطرة من عرق أمه ، فظن أنها تداعبه ، ثم سرعان ما عاد الى حلمته يمتص حليبها في نهم .

العيون

أخــذت قدماي تطرقان زفت الشـــارع بخطوات موزونة رتيبة رفيقة · يداي في جيبي معطفي الثقيل أو فراشـــي منذ أسبوع ، الياقة مرفوعة ، تشكل معطفا آخر لوجهي ورأسي · الهواء البارد يدفعني من الخلف يجاهد كي يكنسني أمامه كما يكنس الاوراق اليابسة · الاشجار من حولي الى الجانبين عارية خرساء ، تمد أذرعها الى الاعلى توشك أن تصرخ ها هو ذا ·· وتعول الريح بين فروعها تعريها حتى آخر ورقة ، تهمس في شقوق آذانها بقسوة (حملقي جيــدا ·· حملقي جيــدا) أنوار الشارع احمرت حدقاتها وبهتت من فرط التحديق ، فراحت تصوب خيوطهــا الواهنة الى سكة الترام ، وهــذه تومض في وقاحة تريد أن تفضح من يسير فوقها · الدكاكين على الجانبين مغلقة الابواب ، سوداء ، صامتة · ومن ثقوب أقفالها المظلمة تبصبص عيون عوراء لئيمة ترقب الخطوات ··

عيون ·· كل شيء من حولي عين صامتة ساهرة مسهدة، عين تراقبني ، تحصي خطواتي ، تحيط بي من كل جانب ، تتآمر علي ·· كلها عيون تنتظر الفرصة السانحة لتفضحني ·

وتابعت طريقي في هدوء ٠٠ هدوء من يفرغ في ساقيه كل قوته ليطلقها حين اللزوم ٠ وكل عضو من أعضائي يعمل منفردا وحسب اختصاصه ٠ لقد وزع رأسي الاعمال على سائر حواسه ٠ اذناي تصغيان في توفز ، تسترقان السمع وتلتقطان أدق النأمات ٠ عيناي تتذبذبان في جميع الاتجاهات كعقرب بوصله محاطة بمغناطيس ٠ أصابعي يتحسس بعضها بعضا (هل هناك اصبع غريبة ؟) وأنفي يأخذ ويعطي ، يملأ ويفرغ صدري ٠ لساني يتلوى في قلق يتفحص اللعاب ، زيت الحنجرة ٠٠

(حسنا ٠٠ كل شيء جاهز ٠٠) وتابعت طريقي ٠

من أين هذه الاصوات ؟ من هنا ؟ لا شيء ٠٠ انه نباح كلب بعيد خشن ومبحوح ، ومحرك سيارة يجعر مكدودا ٠٠

وصلت الى زاوية الشارع٠ (يجب أن تتوقف هنا قليلا ٠ احترس هنا يكمن الاعداء في مثل هذه الحالات ٠ اثنان ٠٠ بيد أحدهما مسدس ، وبيد الآخر قيد حديدي ، والسيارة مختبئة في مكان آخر) ٠

وتوقفت ٠ اسندت ظهري الى جدار بيت عتيق ٠ أصخت السمع. لاصوات في الشارع ٠ بلى ، أن هنا صوتا ٠٠ صوتا قريبا ٠٠ قريبا جدا (صوت أقدامي ؟ لا ٠٠ همس ٠٠) رفعت رأسي قليلا (لا شيء من كل ذلك ، غصن شجرة حور يحك نافذة البيت ٠ ها هو ذا ، انه يسأل من هذا الرجل ٠؟ هل هو ٠؟ الزجاج لا يجيب ، انه نائم ، وأهل البيت نائمون ، وزهير نائم أيضا ٠٠ كل شيء نائم الا هذه الاعين اللئيمة اللعينة ٠ وتطلعت الى النافذة انها مظلمة ٠٠

وخطر لي أن أطرقها بحصاة ، حصاة كبيرة تجعل زجاجها يتطاير ويحدث صوتا ثاقبا كطلق الرصاص ، لربما يحدث ما انتظره أن يحدث ٠٠ عندما ينتهي كل شيء ٠

لا ٠٠ يجب ألا أفكر بذلك ٠٠ أما صممت ؟ نعم لم الخوف اذن ٠؟

ومددت رأسي الى الطريق عبر الزاوية ٠ لا شيء ، ضوءان في الناحية يتغامزان ، تختلط خيوطهما على الزفت ، يحاول كل منهما أن يسترجع خيوطه ٠٠ هذا كل ما في الامر ٠٠

زهير الآن نائم في هذا البيت في فراشه الدافيء ٠ ولم لا ينام ٠؟ انه شاب مهذب جدا ، طيب القلب ، مثالي التفكير ، جميل أنيق ، كل شيء فيه طيب حلو كالسكر (أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني ٠٠ ولا أحب المشاكل) هذه هي كلمته الغالية، حكمته التي تأتيه بلا ثمن ولا تكلفه أية تضحية : (سأتخرج من الجامعة وأتزوج وأستريح) حياة كاملة سعيدة ، طويلة عريضة ومختصرة بثلاث كلمات ٠ شيء بسيط جدا ٠ لماذا يزعج نفسه اذن ؟٠ انه الآن لا يحلم بشيء ، أو لربما أنه يحلم بفتاة ـ فالمدارس مغلقة ـ بفتاة معينة على الاكثر ، يمكن أن تكون بالتحديد نعيمة خانم ، معلمة المدرسة القريبة التي نظم بقدميها قصيدة طويلة ٠ ان أمثال هؤلاء الشبان لا يتعبون أنفسهم على الاطلاق ٠ أو أنهم لا يعرفون كيف يتعبونها ، وهذا أسوأ من الوقوع في المتاعب نفسها ٠ انهم حتى في أحلامهم يختارون بدقة متناهية أجمل الاحلام وأعذبها ٠٠ فهم يستذوقونها بطريقة فنية مدهشة ، كما يستذوقون ربطة عنق

أو منديل جيب ٠٠ يبدو أن الانســـان يضطر أن يسقط من حسابه هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف ٠ لا بد أنه سيغلق الباب في وجهي (من أنت ٠؟ آه ٠٠ أنا لا أعرفك) واذا واتته جرأة أكثر سيصرخ : (اللص ٠ يـا هو ٠٠ !) ان الدموع تساعد هؤلاء الشباب بصـورة يحسدون عليها ، فهي تمحي وتطمس الى الابد ما حل بمشاعرهم وشعورهم البراقة الناعمة من أذى طفيف كغبار الطحين ٠

وآنستني هذه الافكار ٠ يبدو أن العقل يحاول أن يريح نفسه فيتلهى بلعبة صغيرة ريثما يستعيد عمله ٠ واجتزت المنعطف ولم أكن أفكر بنفسي في تلك اللحظة ، اذن لجفلت عندما رأيت ذلك الظل ٠٠ وعلى كل حال لم يكن سوى ظل كلب أو كلبين ٠٠ شم أحدهما مؤخرة زميله ثم رفع قائمته الخلفية الى الجدار ٠ وقبل أن يتابعا طريقهما هرولة ، نظر الخلفي الي بلا اكتراث ثم راح يشم بوله ٠٠ ها هي ذي حارتنا انها مظلمة كعادتها يجب أن اجتاز ثمانين خطوة على الاقل لاصل الى البيت ٠ كان صنبور ماء الفيجة مفتوحا والماء ينصب ضاجا صاخبا ، ويلسع أرض الجرن لسعا متواصلا ٠

وتوقفت أمام باب الجامع الخلفي ٠ ها هي ذي المئذنة تنتصب في ثقة تامة وانتباه شديد كخفير يحرس معسكرا فارغا ٠

كانت تبدو كأنها مقتنعة بأنهـــا تراني مهما حـاولت التستر ؟ والضوء الاحمر في قمة رأسها يشير الى ما يعتمل في جوفها من غضب على أحد من الناس ٠٠ وعلى الاكثر أحـــد أولئك الذين لا يعيرون وجودها أي انتباه ٠

ولاول مرة فطنت الى كوخ الحارس ، انه يقع مقابلتي

تماما • وتقـدم خطوتين ثاسـتقر على الرصيف وجثم مقرورا هزيلا ، وكأنه وجد المكان المناسب ليفاجئني قف •• ثم يخر مغشيا عليه • كان الكوخ صامتا ، لا شـك في أن الحـارس في جولته • أبو خليل ، انه يعرفني ، أما كنت أسهر واياه في هذا الكوخ وراء منقل الفحم وابريق الشـاي ؟ كـان يحدثني عن براعته في مهنته • (أنا أعرف اللص من خطواته) • ويرتشف رشفة صاخبة من الشاي • (ومن ريحته) • ويتنفس بصعوبة (من أنفاسه) • يلهث ويسعل ويبصق • (ان لي اذن أرنب) ويتشعث من أذنيه شعر طويل أشيب (وعيني قط) • ويكبو نصف نائم فأوقظه ليتمم : (وهذه العصا) وتئن العصا في يده ثم تزفر ما في جوفها المتآكل ، ذرات صغيرة •

كان الحـارس بكوخه ومنقله وابريق شـايه وعصاته تؤلف جميعها شـيئا اسمه أبو خليل • ولا يمكن لشيء من هذه الاشياء اذا ما انفصل عن الآخـر أن يشـكل معنى من المعاني • من أجل هذا لم يكن الكوخ بالرغم من اثبات وجوده بهـذه الصراحـة والوقار ، ليعطي فكرة توجب الاحتراس • أمـا بذلة أبي خليل فقد كـان كـل خيط من خيوطها ينطق ، بخشوع الناسكين وبعد تجربة عملية ، بأن الحيـاة فانية • ويشترك في هذه الصفة الخيوط الدخيلة في الرقع ذات الالوان المتعددة • ومما لا شك فيه أن هذه الخيوط قد انسجمت مع صاحبها انسجاما كاملا ، بدليل أن الفناء كان يتسرب بهدوء من الخيوط الى عظامـه وبالعكس ، بحيث يكون أحـد الفريقين أحسن أو أردأ حالا من رفيقه بأي حال من الاحوال •

ـ كان جدك رحمة الله عليه يقيم الحارة ويقعدها بزعيقه ،

أما جدتك (ويتنهد لا شك في أنه كان يعشقها) ايه! ٠ كانت تقية تسبق خادم الجامع الى فتح الباب وكنس الارض ٠

اني أسمع قرع قبقاب ثقيل ٠ يجب أن أنتهي من هـذه الزيارة الليلة ٠ لا بد من ان المؤذن خرج من المرحاض ليتسلق المئذنة ويصيح (الصلاة خير من النوم) لا ٠٠ ان الصـوت يقترب ، انها عصاته ، عصاة أبي خليل بصوتها المبحوح ٠ كان يجب أن أنام هذه الليلة في الحمام أيضا ٠ لولا أن شك أبو حسين المفرك بأمري ٠ لقـد سـألني بالامس وهو يسلخ جلد رقبتي (ولك شو هربان من البيت ٠! له يا بابا حسن له ٠٠) ها هي ذي العصاقة تقترب ، يجب أن أبتعد ، أن أطل على البيت، ثم أرجع ٠ واختفى صوت العصاة ٠ فتحركت ثم جمدت ٠ ها هو ذا أبو خليل ، يا له من خبيث ! كيف وصل الى جانبي دون أن أراه ؟ هه ٠٠ لقد نسيت أن نعل حذائه قد فني قبل خيوط بدلته ٠٠

ووضع يده الثقيلة الخشنة اليابسة فوق كتفي ٠

ــ شو بتعمل هون ؟

وتلاقت عيوننا لا شك في أن يده أحست بأني أرتعد ٠ انه يعرف كل شيء ، بل يعرف أكثر مما يجب ٠ لم تتشبث أظافره في ياقة المعطف ، انها تتراخى شيئا فشيئا ها هي ذي تسقط الى جانبه ٠

لماذا لا يقبض علي ؟٠ صرخت فيه ٠

ــ ماذا حدث ؟

فتقلقلت قبعته قبل أن يهز رأسه :

ـ هس لا شيء أمش معي ٠

وسرت الى جانبه ، أحسست بالاطمئنان ٠ فالتصقت به (ماذا لو قادني الى المخفر) لا بأس ٠ سأسير معه ٠٠ أوصلني الى البيت فطرقت الباب ٠٠ ووقف الىجانبي ينتظر ٠ واقتربت من عينيه ٠ يا لهاتين العينين ! ماذا تريدان أن تقولا لي ٠٠ وغمغم كأن الصوت صدر من عينيه :

ـ لا تخف لقد ظلوا مدة ثلاثــة أيــام يرابطون لك في الحارة ٠٠ (احم) والبارح جاء اثنان و ٠٠٠

وفتح الباب ٠٠ ووقفت أختي وراءه هزيلة قصيرة جدا منكوشة الشعر ، حافية ٠ اقتربت من وجهها فأدركت أنها لم تنم منذ أسبوع ، وان شيئا هاما قد حدث ٠٠ قد حدث ٠٠ لقد قال لي الحارس جاء اثنان و ٠٠ ولم يتمم ٠٠

وتشبثت أختي بمغلاق البــاب ٠ صرخت في وجههـــا ودفعتها أمامي ٠٠

وتحت ضــوء المصــباح ، ومن خلال عينيها البيضــاوين ووجهها المتقع الذابل رأيت ٠٠ فراش والدي خاليا ٠

الانضباط

كان ناظر الموقـــع (ن ٠ م) في ذلك الصـــباح من أيام شباط الباردة ، متوجها بمركبته البالية الى مكتبه الكائن في ثكنة قديمة خارج المدينة ٠ وكان الجو باردا والارض مكسوة بالجليد الذي ما زال يتساقط ندفا دقيقة ٠ وكان سائق العربة وراء مقوده تدل جلسته المستقيمة على أنه جندي مخضرم ٠ وكان الشـــارع العريض خاليا على الاطـلاق ٠ وعلى الجانبين اصطفت بضع أشـجار عارية ، الا مـا تراكم على أغصانها من الثلج المندوف ٠ وفي داخل العربة تقوقع ناظر الموقع سادرا في همومه وأحزانه ، متخذا زاويـة العربـة اليمنى ، متهيبا من حدث مجهول ، كأنما ينتظر أن يموت فجأة وفي أية لحظة ٠ وكان قد ركز على رأسه الاشعث بصورة غير مستقيمة ، عمرة هرمة ٠ وصف على صدره قبضة من النياشين ، يرجع عهـــد بعضها الى عشرات السنين ٠ وقد منح معظمها مكافآت عـلى أعمال خاصة وخدمات ذليلة قدمها الى رؤسائه عن طيبة خاطر ٠

وكانت هذه الاوسمة تبدو أنهـــا لـم تنزع عن صدره منذ تعليقها ، فقد اسودت من فرط الاستعمال ٠

كان ناظر الموقـع كعادته دائمـا ، مربد الملامح ، كالح الوجه ، تهدلت عصابة وسخة تحت حاجبيه بصورة مائلة ، لتخفي تحتها عينه اليسرى المعطوبة ، ويصل خرير صدره أثناء تنفسه الى اذن السائق ، فيلتفت هذا الى جانب ويبصق من النافذة ، ويهمس لنفسه بكلمات رتيبة دون أن يكلف نفسه عناء عمل آخر ٠

وكان قائد الانقلاب المستبد الظالم قد عين (ن ٠ م) في هذا المنصب لغاية في نفسه ، أصاب فيها بغيته بشكل تام ، وذلك للضغط على أعدائه وأصدقائه على السواء ٠ فقد تسلم منصب الرئاسة على صورة غير مشروعة أثار اللغط والحنق والاشمئزاز ٠ وبما أنـه كـان على مستوى منحط من الادارة والاخلاق ، وأراد أن يدعم مركزه بالطرق التي أتاحت له ارتقاء هذا المنصب فقد وقع اختياره على هذا النصف رجل ـ ليكون سيفه المسلط على رؤوس البلاد والعباد ٠

وقد وجد في نفسية مرؤوسـيه ما كان يعينـه على تثبيت مركزه ، وبسط سيطرته، والقضاء على معارضيه، دون أن يلوث اصبعا من أصابعه ٠ فقد كان (ن ٠ م) ضابطا هرما مريضا ، سريع الغضب ، بذيء اللسان مبحوح الصوت ، مصابا برجفة عنيفة تحول دون استطاعته لمزاولة أبسط الاعمـال اليدوية كالكتابة أو مسح الانف ٠ من أجل هذا كان صدره في منتهى القذارة ، ويداه لا تستقران على وضع مهما بذل من جهد ٠ ومن جميع هذه الصفات الجسدية تكونت لديه نفسية يجد فيهـا

علماء النفس والهواة مرتعا خصبا لاجراء الفحوص والتجارب السيكولوجية واستخراج الامراض الخبيثة · أما فعاليته كلها فقد تركزت في لسانه الذي استطاع بواسطته أن يستغل نفوذه الى أقصى حد · كـان يأمر فقـط ـ ولرغبة غير معلومة ـ أن يسجن فلان أو تصادر أملاك فلان ، أو تستدعى زوجة أو ابنة أحد المناوئين حتى يتم الامر بسرعة قصوى كلمح البصر ، ودون أن يسمع للآمر صوت · كان يفح فقط كالافعى التي أعماها الحر · ومن خـلال صوته المبحوح كـان يقذف بالشتائم التي تعجز قواميس القذع عن استيعابها أو الالمام بها · وتتمة لذلك كان يبكي كالطفل أمام مومس سمينة ، ويزمجر ساجدا بـين قدمي فتاة مسكينة · وبالاجمال كان هو الرجل عينه الذي أراده الحاكم المتسلط ليمسح به أو يوصم به أقذار ومقدسات المدينة · وقد استطاع أن يستغله حتى النفس الاخير عندما بنى له قصرا منيعا في الريف دون أن يكلفه قرشا واحدا · وتم ذلك بمصادرة المواد من حديد وحجارة وعرق العمال والفلاحين ·

وعلى مر الايام تكون لدى ناظر الموقع ذلك الهاجس المفجع وهو الخوف وسوء الظن والشعور بالاضطهاد ، وكلما تعمقت جذور هذه الهواجس في نفسه ازداد امعانا في استعمال البطش والشـــدة ·

وفي ذلك الصباح البارد وهو في طريقه الى مكتبه ، كان يحس بأن حادثا طارئا سيقع ، ان لـم يكن في هـذه اللحظة فباللحظة التالية · وقـد صح مـا توقعه اذ أن العربة صرت صريرا مفاجئا ثم توقفت ، وكان ذلك على بعد خمسين خطوة من مدخل الثكنة · ولم يـدر أبـدا : أنـه هو الذي أوعز الى السائق بالتوقف بفحيح مرعب نفثه من صدره المنخور :

- من ٠٠؟ من هذا ٠٠؟ من هناك ٠؟

كانا شبحين يجتازان الطريق هرولة ٠ وفح ناظر الموقع من جديد متوسلا :

- من هؤلاء يا علي ٠؟ استكشف جيدا بحق الله ٠٠؟
ورد السائق بدون اهتمام :

- لا شيء يا سـيدي ٠٠ ضابطان صـغيران يسرعان الى المعسكر ٠

ولكن الناظر فقد فجأة رباطة جأشه وراح ينفخ في جنون :

- ولكن أوقفهما ٠٠ قف ٠٠ أوقف هذا انه خطر ٠٠ قفا ٠٠ يا الهي انها مؤامرة ٠٠

وصاح السائق من الداخل مجفلا ، وقد صدق أن أمورا خطيرة قد طرأت على العالم :

- يا حضرات الضباط ٠٠ يا حضرات الضباط ٠٠

وتسمر الضابطان الشابان في مكانيهما لا يرمشان ٠

- ناظر الموقع يريدكما يا سادتي ٠٠

وفي تلك اللحظة هم أحدهما بانزال ياقة معطفه ليكون في وضع لائق ٠ الا أنه عاد الى التسمر عندما استؤنف الفحيح من داخل العربة ٠ واقترب بهدوء ليواجه عينا يتطاير منهـا الفـزع ٠ وتقدم الضابطان أحدهما وراء الآخـر ثم اسـتعدا منتصبين أمام النافذة المغلقة بعد أن أديا التحية اللائقة ٠ كان الاول وهو الذي هم بترتيب ياقة معطفه شابا ضعيف البنية ،

نحيف الوجه ، أسمر البشرة ، مستطيل الرأس ، لم تتخذ بعد عمرته المستديرة شكل رأسه الذي بدا متوازي الاضلاع · فقد غطت نصف جبهته والنصف العلوي من أذنيه · أما الاخر فكان على نقيض زميله شابا وسيما ، مستدير الوجه ، جميل الشفتين ، توردت وجنتاه من لسع الهواء وملا رأسه المستدير أطار العمرة بكامله الذي بدا شعارها لامعا يبهر البصر · وكانت امارات الضابطين العامة تدل على أنهما غريران حديثا العهد في الخدمة ·

وصر صدر ناظر الموقع من خلال استجوابه المنفعل :

ـ من أنتما ··؟ أنت بصورة خاصة ·· من أنت ··؟

وأجاب الضابط الذي غطت القبعة نصف وجهه بنبرة عسكرية جافة متقيدا بالتعليمات ، ولكن صوته بدا باردا لا يخلو من استخفاف :

ـ انني الملازم ثاني فارس من الفوج الثاني يا سيدي ··

وكأن صاعقة انقضت على رأس الناظر ، اذ ما كاد الضابط الصغير ينتهي من اجابته حتى اصكت نوابض العربة ، وتأكد السائق من أن الرجفة استحوذت على هيكل سيده · واختلط فحيح ناظر الموقع بخرير صدره وراحت تصدر من بين أشداقه أصوات متناثرة :

ـ يا رب ·· من هذا الذي يتكلم معك ··؟ ألا تعرف ··؟ آه · يا للوقاحة · اهانة كبيرة ·· ما هذه الاهانة ··؟ مع من تتكلم أيها الصرصور الذي لا حد لقذارته ··؟ اسمع يا علي · انه يخاطبني كأني فأر أجرب ·· أنا ناظر الموقع يد العقيد و ·· قدمه ·· آه يارب ·· أبهذه اللهجة تخاطب القادة يا ·· يا ··

وغـاب النـــــاظر في نوبة من السـعـــال المميت ، في حين أسقط في يد الضابط الغر ووقف مشدوها لا يحير جوابا . فلاول مرة منذ تخرجه من الكلية العسكرية يواجه مثل هـذا الموقف العصيب . وبما أن عينيه لم تكونا ظاهرتين لناظر الموقع ، فقد ظن هذا أن ضحيته تتمادى في الغي والاستهتار . وانبعثت من جديد الاصوات المختلطة تهدر بلهات متقطع :

– انهـا مؤامرة .. جريمة كبرى .. سآمر بأعدامك رميا بالرصاص يا سيدي .. من أنت ..؟ لا .. لا يمكن ذلك .. ان هذا لا يصـدق . آه سـأموت .. سأفنى من هـذه القضية .. من أين أتتني هذه القملة التيفوسية في هذا الصباح اللعين ..؟ علي .. آه يا رب .. مـاذا أجرمت بحقك حتى تعذبني ..؟ اسمعوا .. اشهدوا جميعا .. سيقتلني هـذا الجرو .. هذا الصوص الذي لم يقو منقاره بعـد عـلى خرق قشرة البيضة .. أغرب أنت عن وجهي (وأرجف أصابعه في وجه الضابط الوسيم) أغرب .. سأدعوك للتحقيق .. علي .. فتشه .. انزل .. فتش هذا المتآمر . احترس منه ، لعنني الله ان لم تجد معه سلاحا مبيدا .. ولاطرد من الجنة ان لم يكن ينوي شرا .. لا .. اتركه الآن .. اتركه .. يجب أن أقبض عليه .. لتبصق في وجهي الشياطين ان لم يكن خطرا على مستوى فعال . انه نحيف للغاية . هذه صفة ال .. ال .. آه .. (وانشبت نوبة السعال أظافرها في صدره) أمسكه .. لا تدعه يدس يديه في جيبه (وكان الضابط الشاب في فترة ذهوله قد أحس بأن أصابعه تتساقط من البرد) .

وكان الضابط الوسيم قد تخلص من المأزق واختفى لا يلوي على شيء ، في حين استسلم الآخر المسكين ، وسـار أمام

العربة الى داخل الموقع ، تتناهبه حيرة لا حد لها ٠ ماذا فعل٠؟ هل كان أجدى له لو ظل صامتا ٠؟ ولكن ألم يسأل عن اسمه فأجاب ٠٠؟ وهذا كل ما فعله ٠٠ وقدم حرس الموقع السلاح دون أن يعيرهم الناظر التفاتا ٠ ولكنه أشار الى رئيس الحرس بجلب الضابط ٠ وتوقفت العربة أمام المكتب٠ وكاد ناظر الموقع أن يسقط وهو يهبط منها، لو لم تتداركه أيدي السائق والحاجب والهارعين الآخرين ٠ حتى أن الضابط الموقوف نفسه اشترك بالعمل مما زاد الامر سوءا٠

تهالك (ن ٠ م) على كرسيه العريض ذي المسندين العاليين ، وكانت العصابة القماشية الملطخة قد هبطت فوق وجنتيه من فرط الانفعال ، وبان تحتها قطعة قطن صفراء ٠ ورفع الرجل يده ليعيد رفعها الى مكانها وقد تم له ذلك بعد جهد وبمساعدة حاجبه ، غير انه فشل فشلا ذريعا في مسح أنفه الذي سال تحت تأثير البرودة والانفعال ٠ وبقيت كفاه على الطاولة تقفزان قفزا متواصلا ٠ وهنا بدرت من الضابط الصغير اشارة من يده ، أكسبها كل ما استطاع أن يعبر عنه من احترام ٠ وقال بنبرة ظلت جافة :

ـ انني أعتذر يا سيدي عن كل ما ٠٠

غير أنه توقف عن ابداء اعتذاره عندما حاول الناظر أن ينهض ، اذ عاد فسقط على كرسيه كالطير الذبيح ٠ واستأنفت الاصوات المتنافرة المبحوحة تنطلق من بين شدقيه :

ـ الانضباط ٠٠ يا الهي ٠٠ انه من أبسط قواعد الجندية ٠ أنت ٠٠ لا ٠٠ لست ضابطا ٠٠ أعوذ بالله ٠٠ أنت جاسوس ٠٠ هيا بسرعة ما اسمك ٠٠؟

ها ٠٠ قلت فارس ٠٠ ما هذا الاسم اللعين ٠٠؟ انني لم أسمع به ٠ كان يجب أن يسموك صرصورا أو أي طائر قميء آخر ٠ قل الحقيقة من أنت ٠؟ قلت الفوج الثاني ٠٠ ها ٠٠ أنا أعرف آمر هذا الفوج ، ان المقدم نجدت لا يحوي جراثيم من أمثالك ٠ سأكتب له الآن بعد أن آمر لك بعقوبة عشرين يوما تنفذها في المعسكر ٠

آه يـا رب ٠٠ مـاذا فعلت لحضرتك حتى تعذبني ٠٠؟ أغرب أيها الجرو عن وجهي ٠٠ ولكن لا ٠٠ سأفتشك أولا ٠٠ فتشه ٠٠ فتشوه ٠٠

وانحنى رئيس الحرس على تفتيش الضابط دون حماس وهو يغمز بعينيه خلسة ٠ وكان يقول في نفسه : (كيف بلى الله هذا الطفل بأسوأ مصيبة ٠٠؟) وقام بحركة عابرة على صدر الضابط الشاب وعلى جانبيه ٠ ثم استقام متمتما :

- لا يوجد شيء يا سيدي ٠

وصر ناظر الموقع على أسنانه بخيبة :

- سأكتب بحقك تقـريرا ، هذه هي الطريقة المثلى ٠ وسيعرف العقيد كيف ينتقم لي منك ٠ سأرسل اليه تقريرا كالنار وسيسحقك كالبعوضة ٠ لقد أخللت بالانضباط ودنست الشرف العسكري وأهنت ضابطا كبيرا وشـيخا يسـتحق الاحترام ، حائزا على وسام الشرف وأوسمة أخرى مجيدة ٠

وتناول جرسا من جانبه ، فصار يقرع تبعا لارتجاف أصابعه ، وفي الحال هرع أحد الكتبة وأخذ يكتب ما يملى عليه : (الى المقـدم آمر الفوج الثاني من ناظر موقـع

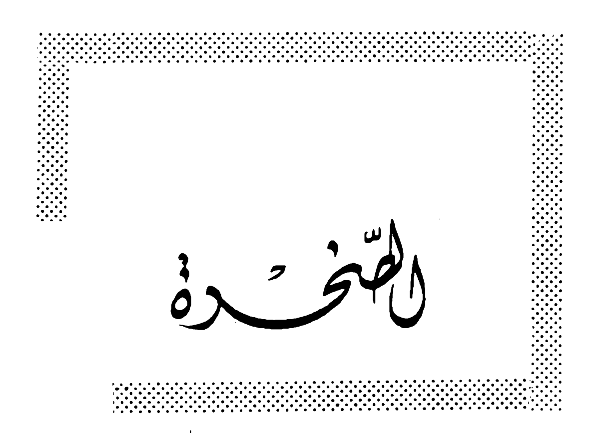
دمشق . في هذا الصباح الواقع في ...)

وأمسك بالقلم ليضع توقيعه . ودون أن يحرك يده استطاع برجفتين أن يخط شيئا كان بمثابة التوقيع .

وقف الملازم ثاني (فارس) ذات صباح أمام آمر فوجه الذي تدلت كرشه فوق طاولته ، وقد احمر وجهه المستدير وانتفخ حتى كاد يتفجر من الغضب . وراح يندب حظه فوق رأس مرؤوسه :

ـ أيها الوباء الفتاك ، لقد أذللت تاريخي ـ ولطخت كرامتي بملايين الاقذار .. أيها الطاعون .. ثلاثون سنة في خدمة الجيش ذهبت هباء من أجلك أنت أيها الذئب المفترس .. لقد أكلت أطفالي وزوجتي الصغيرة الغالية .. ستميتهم من الجوع .. حطمتني أمام المسؤولين وستنصب علي اللعنة كما انصبت عليك .. (وتهدج صوته وهو يتمم) : وما ذنبي أنا اذا كان ضابط من ضباطي لا يتقيد بالانضباط .؟ وتصفح أمامه وهو ينخر كالحصان كتابا ممهورا بالشمع الاحمر ثم استطرد في أسى :

ـ ها هو ذا ناظر الموقع يوبخني من أجلك أنت أيها الثعبان الارقط .. ينبغي علي أن أعلمك كيف تكون انضباطيا وأن تحترم الضباط ذوي الرتب العالية .. وهذه توصية من الاركان بعدم ترشيحك للترفيع أو لنيل أي وسام .. وستحل عليك اللعنة الى القيامة .. الى يوم الدين . آه .. كم كنت مخدوعا بك .. لم أكن أظن أنك جاموس بري أيها الصرصور الابله ..


الصّخرة

مرة يقال ، ان قرية (النهدة) لم تبن ليسكنها فلاحون يعيشون من الزراعة ٠ ومرة أخرى يدعى بأن القريـة وجدت فقط منذ أول سقف شيد فيها ـ من أجل استراحة القوافل المارة في طريقها الى الصـحراء ٠ ومرات عدة يزعم ، أن من الخطأ الفادح أن يظل فلاحو تلك القرية ينتظرون معجزة تهبط عليهم من السماء ٠ ولعل أغرب رأي قيل في هذا السبيل ، هو أن صيادا رفع أول لبنة فيها ليتخذها ميناء له ، فهو لا يعيش من الزراعة باعتبار أن أرضها غير صالحة لاستقبال المحراث ٠ والغرابة في هذا الادعاء ، هو أن أقرب شاطيء لهذه القرية يبعد عنها كثيرا ٠٠ والحق أن لهـذه المزاعم والاقوال مـا يبررها ، والاكثر ما يؤيدها ٠ ولو أنها كانت صادرة عن أناس غرباء ، لا يعرفون الحقيقة أو لا يقاسونها ، لامكن تسفيههم ودحض مزاعمهم بكل بسـاطة ٠ ولكن ـ وهذا مما يدعو الى الحيرة والتمعن ـ ان هذه الاقوال لم تكن لتدور الا ضمن القريـة نفسها ، ومن فلاحيها ذاتهم ٠

غير انه ، وبالرغم من كل ما يدعى وما يزعم ، فما يزال سكان القرية يعيشون فيها ويتناسلون ، ويزداد تعدادهم عاما بعد عام ويبنون فيها دورا جديدة . صحيح أن بعض الاجداد والآباء ، والابناء أيضا ، قد تأثروا بما قيل وصدقوه ، بعد أن كابدوا ما كابدوا من شظف العيش وبخل الارض والسماء ، فتركوها ، وهاجروا باحثين عن الرزق ، الا أن الامل والصبر والحكمة ظلت حليف الغالبية العظمى ، وما برحوا يشقون أرضها كل يوم وفي مشقة كبيرة ، متفائلين غير قانطين .

وكان ما يبرر تلك الاقوال والمزاعم ، هو أن القسم الاكبر من أرض هذه القرية المذكورة ، ليس الا صخورا ضخمة مرتفعة قائمة ، تمتد عمقا في الارض ، وتنتشر في مدى واسع فلا تترك للفلاح المسكين الا بضعة أشبار من التراب الخشن ، الذي لا ينفع فيه محراث ، ولا يفيد منه زرع . خاصة عندما يكلح وجه السماء دون أن يجود بقطرة غيث واحدة . وفي هذه الحال يبيت الفلاحون على الطوى منتظرين تلك المعجزة السماوية التي لم تأت أبدا .

ولعل محمد عبد الرحمن حسين ، أحد سكان قرية (النهدة) ، أن يكون أشد بؤسا وأشد فاقة من سائر مواطني هذه القرية ، على اعتبار أنه ذو عائلة كبيرة يربو تعدادها على خمس عشرة معدة . ولا شك في أن تسمية (تمييز) هذا العدد باسم معدة هو أقرب الى الصواب ، فمن العسير بل من غير الصدق ، اطلاق لقب انسان ، على شخص جائع يفتقر الى أولى مقومات الحياة . ولا يمكن أبدا تخيل أو تصور مخلوق يعيش خاوي المعدة ، لان خواءها يؤدي في أكثر الحالات ، الى

اعادة البحث في أبسط معنى عرف بـه الانسـان منذ أقـدم العصور ٠

كان محمد عبد الرحمن الحسين من سوء الحظ لدرجـة كانت أرضه هي الصخرة الرئيسية التي تتفرع عنها صخور أراضي القريـة ٠ فبالاضـافة الى الضيم والنكد الذي يلحقه شخصيا من جراء الصخرة في أرضه ، كان في صميمه يعتبر أنه يلحق الاذى بالآخرين ٠ ومهما استطاع الانسان أن يقدم لهذا الفلاح الطيب من براهين تثبت له على أنه بريء من ايذاء أبناء قريته ، الا أن روحه الشفافة وضميره شـديد الحساسية كانا يوهمانه دائما وأبدا بأن لأرضه علاقة كبيرة بأرض القرية ، باعتبار أنها جزء منها ، على هذا لم يسـتطع أبـدا أن يفرض نفسه يعيش حرا بمعزل عن رفاقـه الفلاحـين ، بل هو منهم واليهم ، وعليه اذا أن يعمل على رفع الغبن الذي يلحقه بهم بسببه ، وبالتالي يرفعه عن نفسه ٠

وبالرغم من أن المتاعب الشخصية التي يقاسي منها هذا الفلاح ، كانت أفدح وأعظم من أن تفرغ له وقتا للتفكير بغيره ، الا أنه ، وهو الانسان المعـاني معـاناة اليمة ، كان احساسه بمعاناته يذكره دائما بالعذاب الذي يستشعره غيره ، وعلى هذا كان يحمل نفسه مالا طاقة لها به من أسباب العذاب والشقاء ٠

وكان دائما يقول في نفسه :

« اذا أفلحت في ازالة هذه الصخرة الكبيرة الممتدة على مساحة واسعة ، والبادية كجزيرة مستطيلة في بحيرة صغيرة ، أمكن بذلك قطع جذور هذه الصخرة في كل مكان ٠ وبهذا تمهد

الارض ، وتكبر ، وتغدو صالحة للزراعــة · وتدر في أســوأ الاوقات أضعاف ما تدره الآن · »

وكان مــا يفعله الفلاح الطيب ، هو الترقب والانتظار والامل · وأحيانا يمده الخيال بمعجزات ليست مستحيلة التحقيق · فهو يأمل أحيانا بان تنتض صاعقة ســماوية على تلك الصخرة فتفتتها شر مفتت ، ثم تذرو حبيباتها في كــل الانحاء والاصقاع · وأحيانا أخرى كان يتمنى وهو يدعــوا الى الله ويتهجد ، لو أن زلزلة أرضية معتوهة ، تشق هذه الصخرة اللعينة الى عشرين أو ثلاثين قطعة فيسهل عند ذاك ازاحتها بعيدا ·

وحين يسعفه عقله بالحل الاكثر ملاءمة ، يتخيل طائرة ما تحمل قنبلة ذات أجنحة كتلك التي كانت تسقطها الطائرات الفرنسية على جموع الثوار أثناء الثورة ، ثم تلقيها على صخرته المنكودة فتحمل من مكانها الى واد سحيق · وحين كان تفكيره يصل به الى هذا الحل ، كان في صميمه يعتب أشد العتب ، بل يلعن ويبصق على المتوحشين الذين لا هم لهم الا افناء الآدميين بالقنابل دون النظر الى افناء الصخور التي تضر الارض وتلحق الاذى بأصحابها ··

ولكن محمد عبد الرحمن الحسين لم يكن ليكتفي باستعمال عقله وخياله وآماله وحدها لتحقيق هذا الهدف ، بل كان يعمل بيديه أيضا · ولــم يكن لديــه أو في استطاعته الا أن يجرب بالفاس والمحـــراث ، هاتين الاداتين المسكينتين العاجزتين ، اللتين لطالمـا تحطمتا وتثلمتا مرات ومرات ، دون أن تفلحـا باحداث ولو خدش صغير بتلك الصخرة العاتية · مما جعله ــ

وبكل ما يحمله في صدره من عاطفة ـ أن يعتبرها أسوأ وأكثر ما في الحياة عداء له ولاسرته ولكل أبناء قريته . لدرجة أنه بات أخيرا يعتقد بأن شرور الدنيا كلها تتجسم في صخرة قائمة شيطانيه . تجثم هكذا كالجبل في الارض الطيبة ، فتحجب عنها الغيث وتجعل حراثتها وفلاحتها من أصعب المهمات . والاكثر من هذا انها تلتهم دون أن تشبع ـ وفي طريقة خفيه ـ كل ما يختزنه التراب من خير وفير ، وكل ما يجود به الفلاح من جهد وتعب . وصار بعد تلك الحادثة ، كلما ذهبت اليها عيناه في صباح أو مساء يزوم بوجهه ، ويتمتم بكثير من عبارات الشتيمة والسخط ، وأحيانا يبصق على الارض في حنق .. (تفو لعنة الله عليك أيتها الغادرة اللئيمة) ، وذلك عندما شردت دابته مرة فركضت فوقها . وحين حاول اللحاق بها لامساكها ، سقطت الدابة على الصخرة فانكسرت قائمتها اليسرى ..

وذات مرة جاء الفلاح محمد عبد الرحمن الحسين الى حداد القرية ، حاملا فأسه وسكة حراثته لاصلاحهما ، كما اعتاد أن يفعل بين أونة وأخرى ، دون أن يبخل عليهما بالقليل جدا من المال الذي اعتاد أن يتقاضاه منه الحداد ، آملا في أن يتمكنا يوما من وأد هذه الصخرة الآثمة .

وكان الحداد الشهم كثيرا ما يتمنع عن قبض الدريهمات القليلة من الفلاح المسكين ، مقدرا فيه همته العالية وغيرته المتناهية على كسر شوكة صعوبات الحياة ، دون تهاون أو كلل .

كان حداد القرية ليس غريبا عن المنطقة . فهو أحد أبنائها . وكان ابنا لفلاح وطني ، خاض الثورة السورية

واستشهد في أحد معاركها · فلم يغفر له المحتلون فعلته ، حتى بعد وفاته ، بل انهم أحرقوا داره بما فيها زوجته وأطفاله · وقد نجا هذا الابن الوحيد لانه كان جانب أبيه عندما سقط في المعركة · وقد ظل متشردا فترة طويلة من الزمن · وكان حسن الاطلاع ، على مستوى كبير من الرزانة والمقدرة وسداد الرأي ، مهيب الطلعة ، متين الجسد ، حلو الشمائل ، يتمتع بأخلاق ، حميدة ، ولا يوفر أي جهد أو مساعدة يستطيع تقديمهما الى الفلاحين ، سواء كانت تتعلق بمهنته أم بغيرها ·

وكان يأتيه الفلاحون من جميع القرى المجاورة ، اما لاصلاح سكك محراثيهم ، أو لاستمداد معونته بأمر من الامور ، أو لاستشارته بقضية تتعلق بأصحاب أحد الاراضي، أو بالدولة ورجال الدرك · كان الرجل ـ بكل طيبة خاطر ـ يقدم مساعدته ومشوراته ونصائحه ، ومن الغريب أن معظمها يكون صادقا وصحيحا ، وعلى هذا نال ثقة الفلاحين ·

قال الحداد وهو يبتسم للفلاح محمد عبد الرحمن الحسين مشجعا :

ـ أهلا ومائة مرحبا بابي حسين · كيف الحال ؟

ورد الفلاح :

ـ الله يجبر خاطرك يا ابن الحلال · والله صرت مخجولا منك من كثرة ما رحت وجئت ·

وقهقه الحداد قائلا :

ـ لا تخجل ولا على بالك عمو أبا حسن · الناس بالناس والكل بالله ·

وتمتم الفلاح خجلا :

ـ الله يطيل بعمرك ويرضى عليك يابني ·

وعرض عليه قضية الفاس والسكة · فعجب الحداد أيما عجب ، للتثلم التي لحقت بالاداتين مع أنـــه لـم يمض عـلى اصلاحهما في الآونة الاخيرة غير خمسة أيام ·

فشرح له الفلاح في مرارة قضية تلك الصخرة المنحوسة· وهنا استرسل الحداد في ضحكة مجلجلة وقال :

ـ بالفاس وسكة الحراثـة تريـد قلع تلك الصخرة ؟ أعوذ بالله ·· انك تضيع جهدك عبثا يا عم ·

وعندما سأله الفـلاح عن طريقة أخرى أجابـه الحـداد في بساطة :

ـ اذا كنت تفكر حقا في ازالتها · فينبغي لك أن تتفق مع كل اخوانك الفلاحين ، وسأقوم بمساعدتكم ·

وحملق الفلاح عينيه دهشا · وسأل في حيرة :

ـ أنت ؟ كيف ؟ بالله عليك ·· أنت ؟ لماذا لم تقل هذا ما دمت بيننا طوال هذه المـدة ·؟ ألا ترى مـا نقاسيه من هذه الصخور الملعونة ؟

ورد الحداد قائلا :

ـ الحقيقة اني عرضت الموضوع عليكم أكثر من مرة ، ولكنكم لم توافقوا ·

قال الفلاح :

– هل تعني تفجيرها بالبارود ..؟

– تماما .. تفجيرها بالبارود .

وأبدى الفلاح خوفه وريبته من صلاحية هذا الاجراء . وقد تذكر على الفور أن الموضوع قد طرح أكثر من مرة ، على أن الحداد ، يستطيع بمساعدة الفلاحين ، ازالة الصخور الكبيرة بتفجيرها بالبارود ، ولكن الفلاحين رفضوا هذا الاجراء ، وفي شدة وحزم ، قائلين : ان تفجير البارود في أراضي القرية سوف يهدم البيوت فوق رؤوس أصحابها ولا يبقى حجرا على حجر ، لذا آثروا الرضى بالامر الواقع على الرضوخ الى مسألة التفجير هذه .

قال محمد عبد الرحمن الحسين :

– هل أنت واثق من أن ضررا لن يحدث ، ولن تفسد الارض من دخان البارود ؟ ولن تتساقط البيوت ..

ورد الحداد في يقين :

– أؤكد لك أنه لن يحدث أي ضرر ، ولن تفسد الارض . أما البيوت . فلن يتهالك منها الا الفاسد ، وهذه خير تجربة لمعرفة ذلك . فنحن اذا أخلينا الدور من سكانها ووضعناهم بعيدا ، نفجر الصخرات . وبعد ذلك اذا سقطت الجدران المعرضة للسقوط ، نكون قد حلنا دون سقوطها فجأة على رؤوس سكانها . فنبني غيرها جدرانا متينة . وبذلك نكون قد حصلنا على عدة فوائد في آن واحد .

وتمعن الفلاح في وجه الحداد طويلا وراح يفكر : انه لا يقول الا الحقيقة . هذا صحيح مائة بالمائة . ينبغي لي أن

أقنع الفلاحين بهذا الاجراء ، واذا لـم يوافقوا فسأقوم بـه في أرضـي ، انني لن أرضى بعد اليـوم أن أكون عبدا لهـذه الصخرة القاتمة ·

بعد صلاة عصر ذلك اليوم · قام الفلاح محمد عبد الرحمن الحسين خطيبا بالمصلين وهتف بهم :

ـ ان هذه الصخرة أيها الاخوان لم تترك لنا رزقا نأكله ، ولا قوتا نعيش منه · فهي تقاسمنا حياتنا نفسها ، لذا ينبغي لنا اما أن نزيحها من الارض ، أو نغادر هذه القرية فما رأيكم ؟

ورد أحد الشباب من الفلاحين :

ـ نزيحها ، نزيحها ، نزيحها ·

بينما صمت الآخرون ·· ولكن فلاحا شـيخا من بين الجموع سعل بصوت ضعيف :

ـ اذا كنتم ستفعلون هذا بالبارود فأسـمحوا لي أن أهرب من هنا ، فأنا لا أريد أن أدفن حيا ··

وبدأ النقاش · واشتدت المعارضة · وحل الظلام دون أن يتفق الفلاحون على رأي · وفي النهاية صاح بهم محمد عبد الرحمن الحسين قائلا :

ـ اسمعوا يا أهل الخير ·

اذا لم توافقوا الآن على تفجير هذه الصخور ، فأنا سأفعل ذلك في أرضي ، وحدي ؟

قـال عبارتـه هذه وخرج على الفور · واشـتد الهرج

والمرج · وحاول البعض اللحاق به ومنعه من الاقدام على العمل، بينما أمسك آخرون بتلابيب بعض ، وباتت القرية تلك الليلة وكأنه يوم النشور ·

أشرقت شمس اليوم التالي ، وخرج الفلاح محمد عبد الرحمن حسين من داره بمعوله ، موطدا العزم على أن يذهب من فوره الى الحداد ليعملا معا على تفجير الصخرة في أرضه · ولكنه مـا أن خطـا بضع خطوات حتى سمع باب جاره يفتح بدوره ويطل منه جسد (ابي صبح) مع معوله · ثم فتح باب آخر واندفع منه (أبو تميم) مع معوله · وتوالى فتح الابواب وخرج الفلاحون جميعهم بمعاولهم مصممين على ازالة الصخرة · ونودي على الحـداد الـذي قـدم بأكياس البارود والفتيل · وبوشر حفر الارض تحت الصخرة · الفلاحون بأسرهم قدموا لهذه المهمة ما عدا الشيوخ منهم ، فقد احتضن هؤلاء أحفادهم وتواروا بهـم مع النسـاء في البيادر الشـرقية ، وعند الظهيرة أشعل الفتيل ·

لقد اضطر كثير من الفلاحين لان يبنوا بدلا عن جدرانهم العتيقة جدرانـا جديدة حجريـة متينة · ولكن ليس هذا هو المهم · المهم · ان الماء انبثق غزيرا من تحت الصخرة ، وفاضت الينابيع ، وأصبحت قرية (النهدة) جنة من الجنان · انها من أجمل بلدان الدنيا ·

سرّ الحبوب الزهريّة اللون

أقدم اليكم نفسي أيهـــا السادة كشاهد عيان في هذه القصة العجيبة · ولا حاجة لكم بمعرفة اسمي ولو كنت بطلا من أبطالها الاشـــاوس ، يكفي أن تعلموا أنني مستخدم اعلان لشركة أدوية كبرى في هذه المدينة ، أسعى بحكم وظيفتي الى ترويج بضائع الشركة بكل الوسائل الممكنة في حدود الدعاية · وعلى هذا فانا مؤلف من انسان نحيل وحقيبة ضخمة ، وأنشط أعضائي عملا هي قدماي ولساني · بالاولين أجوب المدن والقرى والمحافظات بحثا عن الاطباء والصيادلة · وبلساني أشرح للزبائن بطريقة شيقة وعذبة ، وعلمية في نفس الوقت ، فوائد ومعجزات العقار الذي أعلن عنه ، وبصورة تحض الزبون على التجربـة والشراء حتى ولو لم يقتنع بفائدة الدواء · وعلى هذا أيهـــا السادة تدركون كم هي صعبة وشاقة مهنتي الدعائية هذه ·

غير أن ما يعزيني بتورم الاقدام من فرط التجوال وجفاف اللسان من كثرة الشرح واختراع أساليب الاغراء ، ان مـــا يعزيني بذلك هو تعرفي على نماذج من بني البشـر الذين التقي

بهم ، يجعلونني أكتشف ما لبعض الادوية من مفعول ساحر ، لا لشفاء الادواء الفيزيولوجية المستعصية فحسب ، بل على تغير طباع الادميين أيضا ٠

ولكي تدركوا أيها السادة مشاق المهنة التي أقوم بها علي أن أذكر – وهذا سر كان يجدر بي كتمانه – انه يجب علي أنا أولا أن اقتنع بفائدة العقار الذي أعلن عنه، لالمس مافيه من فضائل جديدة أستطيع من خلالها أن أشحذ قريحتي في ابتداع وسائل التشويق والاقناع ٠

وهنا لا بد لي أن أذكر بعضا من الاعراض والنوازل التي تعتريني نتيجة لاستعمالي الادوية قبل أن أعرضها على السادة المعلن اليهم ٠ فأنا أولا صحيح الجسم، خال من أي مرض،وهذا شيء طبيعي ٠ اذ لو كنت غير ذلك لما كنت مؤهلا للقيام بهذه المهمة ، ولكني كنت مضطرا الى أن أجعل من جوفي وأعضائي وجلدي مخبرا لتجارب جميع صنوف الادوية التي أعلن عنها ، وقد يظن بأن عملي هذا هو برهان على الصدق والشرف ، غير أن الحقيقة – وهذا ما يعذبني – هي أنني أعتقد بأن لجوئي الى تجربة الادوية قبل الاعلان عنها هو نوع من أنواع ضيق الحيلة وضعف الذكاء وبطء البديهة٠وعلى كل حال فقد اعتاد معارفي على رؤيتي يوما أجر احدى قدمي المتورمة نتيجة تجربة حفنة من نوع البنسلين ٠ ويوما آخر محتقن العينين من جراء قطرة حادة للرمد الربيعي ٠ ولم يكن ليفاجأ أحد أصحابي اذا وجدني في منتصف الحديث أهرع فورا الى المرحاض،فهو يعرف بأني أجرب دواء للاسهال أو المغص المعوي ٠ ولا يزال معارفي حتى الآن يذكرونني بتلك الحادثة الطريفة التي كنت ضحيتها بفضل تجربة نوع من أنواع الحبوب المنومة ٠ فقد أعلن عن اختفائي

مدة ثلاثة أيام دون أن يعثر ني على أثر ، كنت خلالها غارقا في سبات عميق في غرفتي المتواضعة المجهولة العنوان ، استيقظت بعدها شبه ميت من الجوع ٠

وليعذرني السادة القراء على هذه المقدمة الطويلة ، فقد وجدت ضرورة ماسة لتقديمها ، نظرا لصلتها بالموضوع الذي أنا بصدده ٠ فقد كنت خلال تلك الفترة أجرب نوعا من العقار المهدىء للاعصاب ٠

وهنا يجب أن اتطرق ولو بلمحة الى حياتي العائلية فلذلك صلة ايضا بالموضوع ٠٠ كنت حين وصول تلك الحبوب الجهنمية ، الزهرية اللون ، الشبيهة بحب العدس ، اعاني ضيقا معيشيا وعائليا لا يمكن احتماله ٠ وكانت الدنيا قد ضاقت في عيني، وعجز صبري واحتمالي عن تقبل الحالة التي أصبحت فيها ٠ كنت قد طلقت زوجتي المشاكسة ولي منها ثلاثة اطفال اعمارهم بين الحادية عشرة والخمس سنين٠وقد حكمت المحكمة علي بدفع ثلاثة ارباع راتبي لمطلقتي واطفالي٠عدا عن أن زوجتي المصون قد كنست من الدار ما جمعته خلال اربعين سنة من سني حياتي ، فوجدتني على حين غرة جزء من مائة ليرة في غرفة متواضعة عارية الا من غطاء ومقعد ٠ ولا شك في ان انسانا كان في حالتي هذه يحيا حياة اسوأ من الموت بألف مرة ، يفضل ان يشنق نفسه على أن يفتح عينيه على مرأى فقره وذله ٠ خاصة واني ترعرعت شابا مدللا اعتدت منذ الطفولة على ان آمر فاطاع، واطلب فاستجاب ، واقطف اللذائذ من كل سبيل ولو اضطررت الى بيع فراشي ٠

وكنت كمن استيقظ من حلم، ليجد الكنز حقيقة الى جانبه، عندما قرأت اعلانا عن ذلك الدواء الخارق (الحبوب الصغيرة

الزهرية اللون) . دواء فعال ضد كل اعراض القلق والتوتر والغضب والوهم والخوف ومشاكل الحياة .

ايها السادة بلا مبالغة ابتلعت الحبة الاولى على الفور ، وبعد اسبوع .. تصوروا .. بعد اسبوع وجدت مطلقتي تسير مع رجل غريب قيل انه خطيبها الرابع .. تصوروا ماذا فعلت .. لم تختلج بي عضلة واحدة .. لم اكترث .. لم أفعل شيئا .. مضيت كالصخرة عاتيا لا اعبأ بشيء وبالاجمال عرفت ان هذا الدواء الرائع جعلني مستقلا .. ولا تسـلوا عن المقـدرة الهائلة التـي الهمني اياهـا هـذا الدواء العجيب .. استطيع باختصار أن أقول : انه حولني الى انسان جديد تماما لا صلة له بكل ماضيه الكئيب، يأمل بالمستقبل الباسم ويتلقى المشاكل الآنية والهزات اليومية بكل ترو وسعة صدر) . وكان طبيعيا ان أقوم بحمله والتجوال بـه والدعـاية له باخـلاص . وقـد استطعت خلال شهر واحد من وصوله الى الشركة، ان اجعل منه مادة ضرورية لكل من التقي به من الناس ، بالاضافة الى اني عرفت به آلاف الصيادلة والاطباء وعلماء النفس .. وحملت في جيبي قائمة طويلة باسماء اشخاص من الجنسين عادوا بعـد تناولهم اياه الى حياتهم الطبيعية ، بعد أن كانوا قد أزمعوا على الانتحار .. و .. فجأة التقيت بـه ، ذلك الانسـان الشـاذ الغريب ، الذي لا يمكن الا ان يكون نموذجا فريدا من نوعه بين بني البشر . ولاقدم لكم عنه لمحة عابرة . اولا أنا اعرفه مسبقا، ويمكنني ان أدعي انه يمت لي بصلة القرابة . وبمعنى أصح لا مبالغا اذا قلت انه ابن خالي ولاسمه لكم ب (ع.) .. انه كهل في حوالي الخامسة والاربعين ، هزيل الجسد رقيق العود، يبدو من الخلف كأي جنتلمان صغير .. أما اذا قوبل من الامام

وجوبه الانسان بوجهه العظمي زوجنتيه المعروقتين البارزتين فلا يسعه الا ان ينجذب اليه مكرها وفي تحفظ ، بفعل قوة مغناطيسية خاصة ساحرة، تشعها عيناه الصغيرتان الخبيثتان ، وحديثه السريع ذو الجاذبية الخارقة ٠٠ واذا تغاضى الانسان عن رؤية اسنانه السوداء النخرة وبحة صوته الداعرة المحملة بكل معاني ابليس ، فانه سينجذب اليه كما تنجذب الفراشة الى النور ٠ وعلى هذا فقد عاش حياته كلها متنقلا بين طرفين متباعدين كل التباعد ٠ فهو اما رجل اعمال كبير يلعب بالذهب كأي (بانكير) عتيد، أو مطارد من قبل العدالة كأي أفاق شريد٠ ولم أكن لاعجب ابدا في ظرف من الظروف التي اجده فيها متسكعا على رصيف الشارع، يبحث في ظمأ عن رجل يعرفه ليتسول منه لفافة تبغ، أو يأخذ منه ثمن رغيف، لاجده بعد يوم أو لربما بعد ساعة واحدة قد تحول الى مدير معمل أو رئيسا لشركة كبرى٠ وكل ما اعرفه عنه خلال الاشهر الستة الماضية، انه — بعد ان افلس كمدير لمكتب تخليص دعاوى كان فيها يستخدم احد المحامين القديرين وعدة سكرتيرات جميلات يقوم يوميا بتخليص عشرات الدعاوى لدى المحاكم — أصبح متشردا خالي الوفاض ٠ وبعد يوم وليلة استطاع ان يفتح مكتبا كبيرا في الحريقة مفروشا باحدث الاثاث ، يقوم بمساعدته رجال ذوو شهادات وكفاءات عالية ٠

وعندما التقيت به في الآونة الاخير، اضطررت، برغم تناولي الحبوب الزهرية اللون المضادة للانفعالات والهزات — وجدتني اصرخ من الذعر ٠ كان منهارا انهيارا كليا ٠ زرى الهيئة، خاوي الوفاض ، طويل الذقن ، معتم العينين ٠ كانت تعابيره كلها تدل على أنه لم يذق طعم الرغيف منذ أيام ٠ واكثر من ذلك نظرة

الهلع والدهفه التي كانت تنبعث من عينيه الثعلبيتين ، واللتين كانتا خاويتين خواء تاما · وانشب اظافره في كتفي ضارعا ·

ـ ارجوك يا ابن عمتي ·· أنا في محنة ··

وغص بريقه وقد دمعت عيناه بصورة تبعث الحسرة في اجلد النفوس · واستطرد في بحة مخنوقة :

ـ سأموت الليلة حتما اذا لم انقذ ·

وفهمت منه أنه قد افلس من جديد ، وان مكتبه قد ختم بالشمع الاحمر ، وانه قد خرج من السجن بكفالة مالية دانية الاجل ، وانه لا يملك نفخة دخان ·· و ·· المشكلة الاكثر اهمية ، ولعلها هي موضوع الحالة العصبية التي كان يعانيها، هي تلك التيحدثني عنها بعد قليل· امسكت بيده وقدته الى مقهى على قارعة الطريق ·

ـ سيكارة ارجوك ··

ـ هل انت جائع ؟··

ـ لم اذق طعاما منذ صباح اول امس ·· ولكن ليس هذا المهم ·· اولا ارجوك ·· استمع لي ·· لا أعرف ماذا افعل ·· أنا في محنة ·· آه ··

كان يتلوى كالمغوص ·· ويتأوه ويفرك كفيه الصغيرين المعروقين في حير شديدة ·

وتابع :

ـ لا استطيع ان اواجه أي انسان قبل أن استعيد ثقتي بنفسي ·· يجب ان اتدبر الامر فورا ·· ساجن ·· ساجن·· جنونا حقيقيا ·· سأموت ·· لا شك سأموت ··

وبذلت جهدا كبيرا لاهدىء من ثائرته · وفتحت حقيبتي وناولته منها قرصا من الاقراص الزهرية اللون ·

ـ خذ ابتلع هذه فورا ، ثم تكلم ··

ولكنه اشاح بوجهه في قرف ورفع كفه في وجهي :

ـ افهمني ارجوك ·· أنا لست مريضا ولكن ··

وقاطعته :

ـ خذ هـذه الحبة أولا وسأستمع لـك ·· هـذا هـو دواؤك ··

وأمام اصراري ولهجة الجد التي خاطبته بها وأنا ادفـع الحبة الى حلقه ، ابتلعها بدهشة كبيرة ثم تابع :

ـ يجب ان أنقذ الآن ·· الآن في هذه اللحظة ·

قلت له :

ـ ستشعر بالفارق بعـد سـاعة ··

ولكنه ضغط على اسنانه بفراغ صبر :

ـ انك لا تفهمني ·· ماذا افعل لاجعلك تستمع الي ؟··

ـ هيا تكلم الآن ··

وشرح لي خطته وكانت حقا تسيل اللعاب ·· ولا أنكر أن عدواه سرت الي فاصبحت مثله بعد لحظة، اتحرق شوقا الى اتمام المشروع · وكانت هذه هي المشكلة التي افقدت صاحبي الطيب صوابه ·

فعقب خروجه من السجن صباح اليوم عشر، على تاجر من

بلد عربي شقيق ، يملك عشرات الالوف من الدنانير مع سيارة « اولدزوموبيل » موديل (٦٣)٠٠ و ٠٠

ـ هذه هي المشكلة يا ابن عمتي ٠٠ آه ٠٠ اتوسل اليك ٠٠ اعطني حبة أخرى ٠٠ انياشعر بتحسن ٠٠ اريـد هـدوء اعصاب ٠٠ هدوء اعصاب ٠٠ اريد أن أبدو أمامه كحمل وديع ٠٠كملاك هبط من السماء ٠٠أريد أن يثق بي كما يثق بمليونير شريف ٠٠ شريف ٠٠ آه ٠٠ اعطني هذه الحبة ٠٠ اني احس بالطمأنينة ٠٠

وابتلع الحبة ، ثم اعقبها بابتسامة باردة ، ودس في جيبه علبة من الحبوب الزهرية اللون ، ثم اختفى ٠

★ ★ ★

ايها السادة أخشى أن تبدو قصتي مبتورة اذا وضعت نهايتها الآن فورا ٠٠ وأنا أجدني مضطرا لان افعـل ذلك ٠٠ والعبرة الحقيقة ليست في طول الشرح أو في سرد التفاصيل ٠ المهم اني عرفت داء الرجل قريبي (ع)٠٠ فقد خرج من السجن متوتر الاعصاب ٠ وعندما تعرف بعد ساعة واحدة على المليونير العربـي بطريقـة لم يشـأ أن يفصـح لي عنها ، لم يسـتطع لسوء حالته العصبية ان ينزع جلد الذئب الذي يكسو طبيعته، ليبدو امامه كحمل وديع كما عبر هو عن ذلك، فقد خشي ان يفتضح امره قبل أن تقع الضحيـة في الشـرك ، ولكنـه بعد أن احس بمفعول الحبوب الزهرية اللون الساحر ، استعاد رباطة جأشه فسوى من عقدة رقبته ومضى دون أن يقول وداعا ٠٠٠

ويبدو أنه أفلح افلاحا تاما في الشوط الاول من مشروعه العظيم ٠ فها أنا ذا وأنا أدخل غرفة التحقيق في مركز الشرطة ، المح اعلانا كبيرا ضبط مع المتهـم (شركـة ٠٠٠٠٠ للاستيراد

والتصدير) وسيارة الاولدزموبيل ٦٣ في الخارج ، وها هي ذي مفاتيحها على طاولة المحقق . المتهم .. (ع.م) يجلس على المقعد . وعندما دخلت لادلي بشهادتي رفع الي عينيه .. كانتا طبيعيتين بصورة تبعث على الدهشة . وكان صاحبهما هادئا ساكنا هدوء خنزير اهلي . كان يجلس على المقعد مستقيما واثقا من نفسه ، كأي رجل محترم متزن مثلج الاعصاب . وكان المحقق يطرح عليه هذا السؤال :

واخيرا ؟..

ونظر الي المتهم (ع) بازورار ، وكأنه يتهمني بتهمة شائنة .. وكان محقا .. فدوائي الذي أعطيته اياه يهدىء الاعصاب ، ويزيل التوتر النفسي والجسدي ..

ورد المتهم قائلا :

ـ يا سيدي .. أحسست فجأة ـ بعد أن كادت الامور تتم على أفضل وجه ـ أحسست بلا مبالاة غريبة تسيطر علي و.. ولم أستمع الى بقية الاجابة . لمعت في ذهني خاطرة عجيبة . هل يمكن ذلك ؟ هل تستطيع هذه الحبوب بميلغرام واحد ـ فضلا عن كل ميزاتها في تحرير الانسان من كل ضيق وتوتر وكل صنوف المتاعب ـ .. هل تستطيع بالاضافة الى كل ذلك أن تبطل مفعول الاحتيال ؟. هل تستطيع أن تشل القـــدرة الابليسية في صـــدر افـــاق ؟.. عرفت أخيرا أن هذا مـــا حدث بالفعل ..

فعقب ان سوى (ع) من ربطة عنقه وأحس تماما بأن عقله تحـــرر من الثقل والقلق اللذين كانا يبهظانه ، ويشلان قدرته على العمل ، توجه على الفور الى الفندق ، وقدم نفسه الى التاجر العتيد كمدير للشركة الكبرى للاستيراد والتصدير .

واستطاع بسهولة ، أن يحدد موعدا لمقابلته في مكتب الشركه المزعوم · وفي اليوم التالي كان (ع) يجلس وراء مكتب ضخم ، عليه عدةاجهزةتليفون، تقف أمامهسكرتيرةحسناء جدا تطلعه على احدى المعاملات · وعلى مقعد مجاور ، كان التاجر المحترم ، يتملى محاسن السكرتيرة مأخوذا نارغ الصبر ، في حين كانت سيماء (المدير) تعبر عن الخطورة البالغه والانهماك بجلائل الاعمال ·

كان قد تناول في الصباح حبتين من الحبوب الزهرية اللون ، وكان يشعر بصفاء ذهني غريب لم يعهده في حياته · وأخيرا صرف السكرتيرة وبدأ الاتفاق مع الشريك الجديد ·

وكان قد قطع شوطا بعيدا في انجاز مشروعه العظيم ، عندما وجد نفسه يتصرف تصرف الانسان الخالي البال ، الذي لا يهمه في هذه الدنيا شيء أو هم من الهموم ·· وهنا الكارثة فهو يجب أن لا يكون خالي البال ، وفي أعماقه هم كبير هو الاستيلاء على نصف مليون ، كان يرتسم في ذهنه طوال الوقت كصورة زيتية ·· (نصف مليون ·· نصف مليون ·· نصف مليون ··) ·· ولكن دون توتر ، بلا صراخ · وحاول مرارا أن يقسر نفسه على الاهتمام ، أن يجعل هذا الرقم يدوي دويا في أعماقه ليجعله يتحرك ·· واستنجد بجلد الذئب الذي يرتديه في الملمات ·· غير أنه وجد نفسه عاريا ·· عاريا تماما ·· فتوقف فجأة عن الحديث ، مستجليا كنه ما حدث له ·· كان هادئا ، مسترخي الاعضاء ، لا يهمه شيء من هذه الدنيا ·· ولم يدرك الشريك (الفريسة) طبيعة الامر الا في اللحظة الاخيرة ، عندما ظهر أمامه (المدير) العتيد كرجل عادي لا يفهم من أموز التجارة الا ما يفهمه افاق ربط لسانه عن التدجيل ··

«هدية إلى الرجل الميت»

قالت لي جدتي بصوتها الذي يخنقه الحزن :

ـ هل انصـرفت يـا جدتي ؟٠٠ تعـال اذن ٠٠ لا ٠٠ انتظر ٠٠

ووقفت خارج الغرفة أتلهى بقفل حقيبتي المدرسية ، فيما دخلت هي في عجلة ٠ وســمعت من الـداخل همهمة وهمسا يقطعهما النحيب ٠ كانت أمي تندب :

ـ يقبر قامتي كل شيء له مرتب وجميل ٠٠

وخطر لي انهن يفرزن ملابسه ٠٠ ولكن خالتي أزاحت هذا الخاطر عندما أضافت بنبرة متقطعة :

ـ ولي على قلبي ٠٠ أأقل من جزرة آس ٠٠؟

وطرق سمعي صوت رفيع ناب يشبه صراخ الاطفال :

ـ لم لم تنتظرني يابعد عيوني يا أخي ٠٠؟

وكانت جدتي لا تقول شيئا ، ولكنني سمعت لهاثها الى الخارج ، وكأنما كانت تقوم بمهمة شاقة · وهممت بالدخول فلماذا أنتظر ··؟ واذا كانت هناك امرأة غريبة تخشى أن ألمح وجهها ، فستعرف أنني ما أزال طفلا · فبنت جارتنا سامية لا تختبىء مني ، بل أنهـا تظهر أمامي عارية في بعض الاحيـان · ودفعت الباب دون احتراس ودخلت · قالت أمي في اهتمام :

- انصرفتم ·· ؟

وعقبت خالتي بلا اهتمام تقريبا :

- يبدو أنهم انصرفوا · أهلا ··

وكانت بين أيديهن جرزة كبيرة من نبات الآس ، يعالجن ربطها من الوسط بمنديل أبيض كبير · يترفقن بها غاية الترفق، ويعاملنها كوليد ما يزال لحمه مائعا لم يتجمد · وتنبهت لاول مرة للمرأة الغريبة عندما نبحت على حين غرة :

- هل هو بكرك يا فاطمة ··؟

وردت أمي قائلة :

- يوجد على رأسه واحد ··

وفكرت أنا في ضغينة (انها تعني أخي الاكبر المحبوب)·

وتأملتني العجوز الزائـرة بنظرات متفرسـة جامدة · ثـم تنهدت بحسرة :

- كلنا الى التراب ··

وشدت أصـابع قاسـية على قلبي وفكرت (ترى وأنـا

أيضا ·· ؟) واستعرضت مخيلتي تفاصيل جدي الميت بلمحة· وأنا أخاف ـ كما أخاف الموت تماما ـ أولئك العجائز اللواتي لا يظهرن بغير المـآتم ، وكأنهن أذنـاب عزرائيل · وبصورة خاصة ، تشاءمت من هذه المرأة الجنائزية ذات الصوت القاسي النبرات ، والوجه الشبيه بوجوه مغسلي الاموات · كان أنفها المعقوف ، وعيناها المغلقتان ، وجلدها الاصفر المعروق ، ووجنتاها الناتئتان ، تذكرني بهيئة جدي الميت الملقى على لوح التغسيل قبل أن يحشى أنفه بالقطن · ولسبب ما حمدت الله على أنها لم تشرفني بالقبلات كما هي العادة عند أمثالها · ولكن روعي لم يسكن ، فقذفت بحقيبتي الى الارض وهممت بالخـروج · واستوقفتني جدتي :

ـ قف ألا تعرف قبر جدك ؟ ··

وتسمرت بمكاني · وانتقلت أفكاري الى المقابر · قلت لها طائعا وكنت بالدرجة الاولى أود الهرب :

ـ سأبحث عنه ·

ـ انه لا يضيع أحدا أسأل عنه الحفار ·

وقالت خالتي :

ـ انه عند قبر أبي ابراهيم ·

ورددت بشيء من الحنق :

ـ من هو أبو ابراهيم ·· ؟

ـ أبو ابراهيم سلف بنت خالتي ·

قالت ذلك بنبرة دهشة (كيف لا أعرف قبر سلف بنت خالة ‥ الخ) ·

وهززت رأسي بحرون :

– لا أعرف ‥

وقالت أمي :

– أنا أدله · ألم تذهب مع الجنازة ·؟

وعرفت أنها أجهل الجميع · وأعجبتني اللعبة فقلت :

– نعم ذهبت ‥ ولكننا دخلنا وسط جيش من القبور والشـــواهد ·

وهنا وقعت ، فقبر جدي ما يزال حديثا ، ولم تنصب عليه شاهدة بعد · ولكن واحدة منهن لم تكن تتمتع بذكائي · فقد صحن بنبرة واحدة :

– اسأل الحفار ·

وكانت لهجة أمي بالرد قاسية نافذة الصبر مما آلمني · (لا بـــد من أنها تحب أباهـــا الراحل أكثر مني) وتوسطت العجوز وهي تلملم نفسها :

– أنا أذهب معه · وأزور قبر أخي المرحوم ‥

حسنا اذن ‥ فهذه المـــرأة الشيطانية ليست غريبة ، انها أخته ، وبالتالي عمـــة أمي ، وعمـــة أمي هي عمتي و ‥ أحسست بالرعب · (سأكون معها بعد قليل بين المقابر · وان قرابتها لي تزيد في ســـيطرتها علي والتصاقا بي) ووجدتني أصرخ دون وعي :

– لن أذهب الى المقبرة ·

ولم يذهل صراخي أحدا ، بل زاد العجوز اصرارا على مرافقتي . فنهضت في خفة . وتأبطت ساعدي بطريقة جعلت ركبتي تتخاذلان ، وان كانت فعلت ذلك بتحبب . ولكني تحررت من ساعدها بشراسة من يحس بالاختناق وهربت الى الخارج . وكنت أبذل جهدا لاخفي السبب الذي دعاني لهذا الاجراء الشاذ ، والحقيقة لم تكن لدي أية فكرة برفض الذهاب ، ولكن وحيدا .

كنت في ذلك الحين طفلا ، لدرجة أن الاحلام الغريبة كانت تنطبع في ذاكرتي الى أمد بعيد . وكانت شخصياتها تلاحقني حتى في أشد ساعاتي صحوا . واعتقد أني رأيت هذه المرأة مرة في كابوس . كنت معها نسقط في هوة ليس لها قرار . وعندما تشبثت بملاءتها السوداء ، كانت تخطفها مني بأظافرها الطويلة دون أن تأبه لزعيقي .

صحت من الخارج مغتنما فرصة البلبلة التي حلت من جراء تصرفي غير اللائق :

ـ ها أنا ذاهب وحدي فقد استدللت على القبر ..

ولم يجبني أحد ، ولكنني سمعت نحيبا مجتمعا خافتا مختلف النغمات ، (لا شك في أني لست السبب في هذه النوبة من البكاء ، فالنساء يبكين في كل مناسبة ، وهن على استعداد لان يخلقن في كل لحظة مناسبة خاصة للبكاء) .

وفتحت باب الحجرة لارى جزرة الآس الكبيرة منتصبة على الحائط ، ومن حولها جدتي وأمي وخالتي واقفات يبكين بأصوات تفتت الاكباد . أما العمة العجوز فكانت تضرب صدرها بكلتا يديها ، وتهمهم بكلام منغوم مطرد غير مفهوم .

وهنا أحسست بأن دموعي تتساقط ، ورحت أشارك الباكيات في صمت ٠ فقد كان الميت جدي وقد توفي البارحة ٠ وكان البيت يموج بنساء يلبسن السواد ويتشحن بأغطية بيضاء ٠ وكنت أنا أتلهى بمنظر الخروف الذي يذبح على باب البيت ٠ وكان الى جانبي صبية كثيرون يسألونني :

- هل هو جدك ٠٠ ؟

فأجيبهم فخورا :

طبعا ٠٠ وان أمي وخالتي تمزقان ثيابهما ٠

فيهزون رؤوسهم ويتابعون بشغف عملية السلخ ٠ والان أجدني أبكي بجد ونشاط ٠ ولكن لا ، فقد بكيت أيضا عندما رأيته مسجى في النعش ملفوفا بغطاء أبيض ٠ وبكيت أيضا في مساء اليوم نفسه عندما رأيت أمي مقرحة الجفون ٠ غير أني لم أنم تلك الليلة فقد كنت أراه في كل لحظة منتصبا أمامي بعكازه الطويلة ٠ أما الآن فلا أدري تماما لماذا أبكي ، ان هذه العجوز المفزعة أخت جدي ، والتي لم أرها في حياتي سوى في ذلك الحلم المخيف ، تريد أن ترافقني الى المقبرة ٠ وسنسير هناك وحدنا منفردين ٠ وحمدت الله ، وتمنيت أن يدوم البكاء والنحيب حتى الغد ٠ ولكنني ظللت أبكي بصمت ، وتزداد دموعي غزارة حين كانت تلتقي عيناي بعيني أمي الدامعتين ٠ وسحبتني جدتي من يدي وأوقفتني على الباب ، كنت أرتجف وأصوات البكاء ما تزال تطرق مسامعي ضعيفة واهية ٠ وكانت العمة العجوز تصيح : يا أخي يا حنوني ٠٠ وجدتي وحدها تنتحب بسكون ٠ وخفت أن يهبط الظلام قبل أن أقوم بالمهمة العتيدة الموكولة الي ٠ فدخلت فورا وسرت الى جزرة الآس وتنكبتها ،

وكن جميعا قد دخلن الحجرة ، وأغلقن الباب ، وأخذن يتحدثن عن مآثر المرحوم جدي بروية ومنطق . وصحت من الخارج :

ـ سأذهب ..

قالت جدتي على الفور :

ـ الله معك .. لا تنس اسأل الحفار ..

وتنهدت بارتياح . سأذهب اذن وحيدا . وسرت في الشارع وجرزة الآس تتأرجح فوق كتفي ، ورائحتها تزكمني وتحزنني . وكانت الشمس ما تزال تلهب الرصيف الايسر من الشارع ، ولكن بيتنا الصغير الذي لا يرى الشمس ، يهبط اليه الظلام بعد آذان العصر . من أجل هذا نأوي الى فراشنا قبل آذان العشاء ، ونحن نعتقد بأن الليل قد جاوز منتصفه . وكثيرا ما أفيق لاجد جدتي تصلي ولم أكن أدري هل العشاء أم الفجر .

وسرت على الرصيف الايمن بخطوات سريعة . ولكن لماذا ينظر الي هكذا هؤلاء الرجال الذين لا يفعلون شيئا . كان أصحاب مخازن الحبوب قد رشوا الماء أمام حوانيتهم وجلسوا على كراسيهم الواطئة ، يشبكون أصابعهم حول ركبهم . ثم يدفعون الى الخلف بظهورهم ، وكروشهم المتخمة تتربع أمامهم. عملهم الوحيد أن يراقبوا المارة بنظرات فاحصة وقحة بلهاء . انهم يستقبلون المار من بعيد ويظلون يتفرسون في وجهه ، ويدققون في حركاته وخطواته حتى يتخطاهم . فيتنخعون ويبصقون . ويلتفت المار الى الوراء فيراهم ما يزالون يتعقبون أثره حتى يقبل آخر جديد .

يا الله ما أثقلهم .. ماذا يريدون مني ؟ انهم يحملقون

النظـر في وجهي ، ونظـراتهم هـذه تربكني وتجعلني أنعثر باقدامي . (لا باس . أنظروا الي ما شئتم أيها التجار . أنتم يا من لا تحزنون . فأنا أحمل جرزة آس وهذا كل شيء .. وأنا ذاهب الى المقبرة لاضعها على قبر جدي . وأنتم تزعجونني جدا بحملقتكم وتخجلونني أيضا . فليس بي ما يستوجب كل هذا الاهتمام . واذا شئتم تفصيلا فان جدي مات بالامس فجـأة دون مبرر ولم يكن يستحق ذلك ، لانه كان طيبا ورفيقا بي ، وهو لم يخلف مالا على الاطلاق . وجدتي وخالتي وأمي في البيت يبكين عليه ، ومعهن امرأة غريبة تشبهه كثيرا وتدعي أنها أخته . وهي الآن تبكي وتضرب صدرها بالاضافة الى أنهـا مخلوقة مخيفة . ماذا تريدون أيضا .. ؟)

كنت كلما جاوزت تاجر برز لي تاجر آخر . يا للشيطان ما أكثر مخازن الحبوب .. ها هو ذا رجل يقبع على كرسيه وهو يحك مؤخرته في بلاهة مستطيرة ، ثم يتفرسني بعينين نصف مفتوحتين . ها أنا ذا أمر من جواره ، انه يستوقفني بلهجته الكريهة اللامبالية :

- هل أنت ابن الحجي .. ؟
- لا .. ولكنه جدي ..
- الله يرحمنا ويرحمه .

ثم يبصق في الهواء :

- كان رجلا نادر المثال .

ويرجع الى مؤخرته يحكها بوقار : (أيها الناس أنظروا جيدا فأنا لا أحمل سبت عرس ولا صندوق العجـائب ، انني أحمل جرزة آس .. لا تتظاهروا بالحزن ، فأنا لست حزينا ولكنني مرتبك وخائف ..) .

وصادفت أحد رفاقي في الصف ، كان يلعب الحجرة مع أخته الصغيرة ٠ ها هو ذا يتوقف عن اللعب ويشير الي ، وها هي ذي أخته تتوقف أيضا ٠ انه يهمس لها شيئا ثم يصمتان بحزن وكآبة صادقين ٠ الان أشعر ببعض العزاء (حقا أن جدي قد مات ، وهذا كما يبدو أمر ذو أهمية ، يجب أن أعرف ذلك) ٠

ومررت من جانب الصبيين ، وتأملتني الصغيرة بأسى واضح ٠ يا الله ما أجمل عينيها المعبرتين ٠٠ علها الآن تتساءل: ترى كيف يبدو من مات جده ٠٠؟ وعادت الدموع تخضل عيني ثم تنساب على خدي ٠ ان عيني الفتاة الجميلتين جعلتاني أبكي على جدي باخلاص ٠

وتجاوزت الصبيين ، ثم سمعت صوت حجرتهما تتدحرج على الرصيف ٠ فقد نسيا أحزاني وعادا الى اللعب ٠٠ ها هي ذي مقابر البوابة ٠ لقد دخلوا بالنعش من هنا ، ثم تفرقوا أشتاتا ، وكأن المقابر قد فتحت أبوابها وهب سكانها وقوفا منتشرين صامتين ٠ أما الآن فالمقبرة موحشة مقفرة ، لا يؤنس وحشتها ميت جديد ٠ ان صمتها يبعث الخوف ٠ ماذا لو استوقفني صوت أجهل مصدره (الى أين ياشب ٠٠ ؟) يبدو أن قبر جدي ما يزال بعيدا ٠ وأخذت أطوف في المسالك المتعرجة ، وأمر بالقبور الطويلة والقصيرة ، والشواهد الحجرية والرخامية ، وكل شيء منتصب أخرس ٠

(بسم الله الرحمن الرحيم ٠ يا حي يا قيوم ٠ زكية بنت أحمد ٠ ٢٧ رجب ٣٥٢ هجرية ٠٠) ٠

يقولون ان من يقرأ شواهد القبور يفقد ذاكرته • ولكن ماذا أفعل ما دامت مكتوبة أمام عيني (ياحي ياقيوم •• يا ••)

ترى هل حقا أن سكان القبور يرون من تحت سراديبهم المظلمة ؟ وانهم برغم هذه الحجارة والطين المتراكم فوق عظامهم ، يمكنهم مراقبة القادم ، كما لو أنهم يطلون على العالم من وراء نافذة من زجاج ؟ اذن أستطيع أن أعتقد بأن أعينا كثيرة تراقبني من قوالب فارغة سوداء • ولكن حمدا لله انهم لا يتكلمون •• وهبت نسمة صيف حارة ، فخشخشت بعض الاوراق الجافة ، ثم تطايرت من بين القبور كسرب من زرازير مجهضة الاجنحة • ان أكثر هذه القبور عارية من الآس • لعل ليس لها أصحاب يذكرونها في المناسبات الكثيرة ، وفي الاشهر الفضيلة • أو أن أهل الميت قد شغلتهم أمور الدنيا الفانية فنسوا فقيدهم منذ زمن بعيد • أو أنهم دثروا على بكرة أبيهم ، ودفنوا في حفر متفرقة من أرض الله الواسعة • وعلى كل حال ما هي فائدة الآس ؟•• هل حقا أنه ينقل الميت من النار الى الجنة ، ويشفع له أمام الاله الجبار القاهر ، برغم ذنوبه وآثامه • اذن فمعنى هذا أن الفقراء جميعا سيذهبون الى جهنم وبئس المصير ، وأن الاغنياء وحدهم سيسكنون الجنة • وعلى كل حال فأنا الآن أؤدي لجدي خدمة جليلة • سيراني الآن أقترب من جدثه ، واضع على رأسه شهادة الشفاعة • ترى ماذا يحدث لو رأيته الليلة في منامي ؟ يقولون ان من رأى ميتا في حلمه معنى ذلك أنه سيتبعه قريبا • وغصصت بريقي وتحلب في فمي سائل مائع • يجب أن أتخلى عن هذه المهمة وأعود على الفور • سأقول لجدتي اني لم أجد القبر ، أو أكذب فأدعي بأنني نفذت المهمة على خير وجه • والتفتت الى الخلف فأحسست

بالدوار • أصبح النكوص مستحيلا، فقد حوصرت تماما بآلاف من القبور ، ومن حولي أموات لا يمكن احصاؤهم • مـاذا لو استفاق الآن أحدهم ؟•

ـ قف •• قف ••

رأيت بالامس قبرا منبوشا وفي داخله جمجمة يضـحك صاحبها دون أن يعلم انها ضحكه ابديه• لربما كانت اصفى من أية ضحكة قام بها خلال حياته • لقد حملت يوما مثل هذه الجمجمة عندما امرني الاستاذ ان آتي بها من خزانة التشريح • لم اشعر حينذاك برهبة كهذه ، وصحوت فجأة اين أنا الآن ؟ يبدو انني ضللت الطريق• حسنا •• يجب ان استدل بأية وسيلة• فبينما كانوا بالامس ينزلونه الى القبر كان المؤذن يقف بعيدا • وكنت اقف الى جواره اتطلع الى ذقنه الرفيعة بشعراتها المبعثرة ، والى كفه ذات الاصابع الثلاث وهو يضعها وراء اذنه • كان يرتفع فوق قبر مستطيل • فان وجدت هذا القبر لا اضيع • وتوقفت ورحت ابحث حولي • اين هو الحفار يا ترى ؟ وكدت اصرخ من الذعر ، وتسارعت دقات قلبـي بعنف ، وتخاذلت قدماي تماما ـ ها هو ذا رجل ينبت من الارض ، من بين قبرين ، كأنه يصعد من احدهما انه يحمل على ظهره كيسا منتفخا • ها هو ذا يتقدم نحوي بوناء ويتفرسني بنظرات ذليـلة ، ثم ينحنـي ويلتقط عظمة مجهولة التاريخ ، يضعهـا في الكيس ثم يتابـع تسلله • شيء وحيد يميز الآن هذا السكون هو ضربات قلبي التي بدأت تتباطأ •

اذا كانت شاهدة قبر جدي لم توضع بعد فهذا هو قبره حتما ، لان ترابـه ما يزال رطبـا • ولكن كيف استطيع ان اغرس فيه جرزة الآس ؟ فلأحفر فيه حفـرة • اسندت حزمـة

الآس على قبر مجاور ورحت بعزيمة وسرعة احفر التراب باصابعي ٠

اذكر الآن انني رفعت رأسي مرتين ٠ احسست في المرة الاولى بدوار خفيف ولم الاحظ شيئا ٠ أما في المرة الثانية ـ وكانت بعد فترة زمنية قصيرة جدا ـ فقد ادركت بأن المساء قد هبط على حين غرة ٠ وسواء كان ذلك وهما أم حقيقة ، فان الذي حدث أني وليت هاربا أتعثر بقدمي ، واصطدم بشواهد القبور ، التي بدت انها تكيد لي ، وتناصبني العداء ، وتسد دوني المنافذ ٠

وما ازال حتى اليوم اتعذب ٠ كانت جريمتي لا تغتفر ٠ لم اغرس جرزة الآس على قبر جدي ، حرمته من زاد الآخرة ٠ جعلته بسبب جبني يواجه مصيرا اسود ٠٠٠

أسرة بعل

(بعل ـ بعولة) : تزوج ٠

(بعل ـ بعلا) : دهن وفرق وبرم فلم يدر ما يصنع فهو بعــل ٠

(باعل) القوم قوما : تزوج بعضهم الى بعض ـ المرأة اتخذت بعلا ٠

(تبعلت) المرأة : اطاعت بعلها ٠

(البعل) : الزوج (مؤنث) بعلة ٠ج بعال ٠

(وبعولة) النخل يشرب بعروقه فيستغني عن السقي ٠

وتين (بعل) : معروف ياكله كل الناس في هذه الايام ٠ وهو اكثر حلاوة واصغر حجما من (تين السـقي) (واسـرة بعل) موضوع هذه القصة : اسرة غير معروفة الا لدى جابي مؤسسة مياه الفيجة ٠ وهي بعكس التـين البعل اقل حـلاوة واكبر حجما من (اسرة السقي) واذا شئتم تحديدا اكثر فهي

اسرتي • وقد مضى عليها اسبوع تشرب من عروقها بلا ماء ولا ما يحزنون •

ولاحدثكم عن نفسي قليــلا أنا بعل هذه الاســرة ، نانا متقاعد برغم انني لم اتجاوز الاربعين من عمري • وليس لي من عمل آخر استعين بدخله على تصريف شؤوني ، وعلى هذا فأنا و (بعلتي) واطفالي الخمسة نعيش على المعاش التقاعدي الذي عمل فيه عشرات موظفي المالية وغير المالية ، واذابوا من أجله عشرات اقلام الرصاص ، واستهلكوا الله أعلم كم من اطبـــاق الورق ، ليجعلــوا هذا المعــاش ضيقا رفيعا يدخــل في « ســم الخياط » وسم الخياط هو خرم الابرة•• ولا شك في أن السلك الرفيع الذي يدخل في ثقب الابرة يضيع اذا وضع في ثقب أوسع• وجيب سترتي – كما هو معروف في كل جيوب الستر ، واسعة وواسعة جدا ، لانه يضيــع فيها آلاف الليرات • حســنا • لن اتحدث عن تصريف شؤوني بهذا المعاش ولافعــل كما يفعــل العسكريون • ان أدخــل بالموضوع مباشــرة • طرق بابي في الاسبوع الماضي ، وكنت أنا من تكفل بفتحه ، وانا أفتح الباب دائما لاسباب عديدة ،وثانيا لاني بت على مر الايام انتظر طارقا مجهولا يحمل لي بشرى سارة ، وهذه عادة سيئة جدا اتمنى ان يغفلها الناس من حسابهم ، لانها لا تعود على المرء بغير الخيبة والخسران ، وخاصة في هذه الازمنة الحديثة التي اتخذ منهــا « بول سارتر » عنوانا لجريدته • ولاعد الى قصتي :

طرق الباب،أو على الاصح قرع جرسه قرعة طبيعية ، كما تقرع الاجراس الكهربائية في كل مكان ، ولكن طبعا مع اختلاف الاثر والفوارق الاخرى ، فهناك جرس الموظف الـكبير الــذي يقرعه طلبا لفنجان قهوة ، وهناك جرس المدرسة الذي يقرع

مؤذنا بانتهاء الدرس أو ابتدائه ، وهنـاك أجراس كهربائية تقرع في كل مكان ، غير أن لباب بيتي جرسا غريبا ، لطنينه وقع خاص ، يحمل في بدايته لهفة كبيرة مـا تلبث أن تتحول سريعا الى ندم ، ولكن ماذا يفعل الانسان الذي لا يعلم بالغيب والذي لا ينتظر أحدا ولكن أعماقه تنتظر كل شيء ٠

يبدو أنني أضعت الهدف مرة ثانية فاذا استمررت على هذا المنوال فستنتهي قصتي كما ينتهي « حديث حشاش »٠ من أجل هذا علي ألا أهتم بالمعارك الجانبية كما يقول العسكريون والسياسيون أيضا ٠

كان الطارق ، يحتضن محفظة كبيرة مملوءة بالكشوف ، ولم الاحظ شكله ، لانه بادرني فورا بهذه العبارة :

(عشرين ليرة واثنتين وعشرين قرشا ونصف)٠وأنا أقبل أن يقال عني كل شيء الا أن يقال اني مغفل وذلك ٠٠ المهم ٠٠ فقد عرفت أن هذا المبلغ ليس كسبا ، بل خسارة فلم يحدث في تاريخ البشرية أن تقدمت الدولـة الى مواطن من مواطنيها المخلصين بمبلغ،مهما كان ضئيلا،بمثل هذه العفوية والسهولة٠

صحيح انها تحسب النقود على البارة ، ولكنها لا تقدمها الا بطلوع الروح كما يقول المثل و ٠٠ ذلك اذا خطر لها يوما أن تقدم شيئا ٠

وكـان طبيعيا أن أسـأل الرجل ، وهنا شملته عيناي بلمحة خاطفة ، ولا أظن أن شـكله يهم أحدا ، يكفي أن يكون موظف مؤسسة لها صفة حكومية ، وقفت آماله كلها عند حد أن يأمر فيطاع ٠ من أجل هذا كانت لهجته تحمل طابع التهديد والسيطرة ٠ وسألته :

ـ حق أي شيء هذا المبلغ ..

فرد في تغضن وفراغ صبر ، وكأنه يقول (يا الله مـا أبلدك) قال :

ـ ثمن ماء ..

أنـا أعرف أن زوجتي تحب النظافة ، وانهـا وأطفالي يشربون كثيرا من الماء في هذه الايام اللاهبة . مستعيضين بذلك عن شم الهواء ، والخروج الى النزهات والاستجمام ، ولكنني ما كنت أظن انهم يسـتهلكون في اليوم الواحـد مترا مكعبا من الماء ، فهم يعرقون كثيرا ولا (يخرجون) الا قليلا ، فضلا عن أن مسافة قبونا الضيق الخالي من الحديقة، لا يحتاج لتنظيفه الى أكثر من خرقة مبتلة كانت يوما ما بنطالا لي ، ثم استعمل بالتدريج بنطالا قصيرا لاطفـالي الاكبر فالاصغر فالاصغر .. وكنت خـلال تذكري هـذه التفاصيل أحسب ـ باعتبار اني مواطن صالح ـ ما تبقى معي من النقود لمصاريف أيـام الشهر المتبقية ، فعرفت أنها لا تكفي .

قلت للجابي :

ـ سأدفع أول الشهر ..

وهنا بعق في وجهي مستشيطا :

ـ اذن خذ هذا الانذار ..

وأخـذت الانـذار . ومن سـوء الحظ أن عشـرة الايام مهـلة الانـذار كانـت سـتنقضي قبـل انقضـاء شـهر آب الـذي كـان واحـدا وثلاثين يومـا بيـوم واحـد . وفكرت ساخرا (ترى أما كنت أسعد حالا لو وجه الي هذا الانذار في شهر أيلول ..؟) وهكذا .. رحت أنحو باللائمة على الاب الذي

اخترع الاشهر الميلادية ، والتي كانت لا يمكن احتمالها لولا شهر شباط الخفيف اللطيف في السنة غير الكبيسة خاصة . وحنقت على أن الدولة لا تستعمل الاشهر القمرية النظيفة الخالية من الذيول ، الا في الاعياد والصيام وضرب المدافع و .. ثم حاولت أن أصب جام غضبي على زوجتي المسكينة برغم قناعتي ببرائتها من كل ذنب . ولكني خشيت من المضاعفات . فأنا أعترف بأني أحب هذه المرأة الصغيرة المقطمة المختصرة تقريبا ، والتي ، تعاني من مرض فقر الدم من جوع مزمن ، وقد صنعت لي أطفالا على منوالها نحيلين ، مقددين ، يكفيهم جميعا متر من القماش ليكسوهم ، ورغيف ليشبعهم وليتر ماء ليجلو عنهم أوساخ شهر كامل .

أقول الصراحة ؟. وجدت أن دفع مبلغ (عشرين ليرة وعشرين قرشا ونصف القرش) يجعلني مغدورا . وأنا لا أحب أن أسرق برغم أني لا أتعب في الحصول على نقودي القليلة المحسوبة على البارة كما أسلفت. ولعل هذه الطريقة السهلة في حصولي على المعاش كانت تجعلني – على العكس – أحس نحوها بعاطفة خاصة لا يحس بها ذاك الذي ينحت الصخر طوال يوم ليحصل على جزء منها ، قلت في نفسي وأنا الفارغ من العمل ، لماذا لا أراجع الدائرة علّ هناك خطأ في الكشف على العداد ، ومثل أبي عقل وعقلين ، اسقطت نصف جسدي السفلي في بنطالي الواسع ، وأدخلت نصفه العلوي في قميص امتص عرقي طوال أسبوعين ، وانتعلت حذائي الذي كان زبونا موسميا لاسكافي شارعنا ، وخرجت مشيعا بدعوات قلبية صادقة صادرة من قلب بعلتي المصون .

أنـا لا أنكر باني انسان مهذب ، طيب القلب ، وأملك معنويات لا بأس بها ، واعرف احيانا كيف أتحدث وأدافع عن قضيتي ، واعرف كيف أخـاطب الموظفين وخـاصة من هم ذو مكانه ، فقد كنت موظفا يوما ما خدوما مطيعا ، وأتمتع بكرامه ولكن الظروف الـ ٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠ المهم : تقدمت الى موظف الشكايات في تحبب ، وبثقت من قلبي الجاف ابتسامة مسحت بهـا شفتي المحترقتين ، صحيح أن شفتي انفرجتا عن أسنان صفراء نخرة من فرط التدخين ، ولثة متورمة مصابة بمرض (البيوريا) ولكنها كانت ابتسامة نقية على كل حال ، لم تكن ابتسامة خالصة لوجه الله ولـكن من الصعب تفسيرها ٠ وأنا أعترف بأن لحيتي كانت طويلة عمرها حوالي أسبوع ، وان شعري كان منكوشا ، ولكن مـا أهمية ذلك في قضيه خارجة عن نطاق الجمال واللياقة واختيار وجوه للعرض، وأنا أيضا لـم أكن أطلب عملا ، كنت في السـنوات الخمس الماضية عندما أقوم بهذه المهمة أعد للامر عدته ٠ فلا أتقدم من الارباب والمسؤولين الا وأنـا على « السنتيم » كمـا يقولون ، وبالتالي ماذا أفعل لسحنتي المنفرة اذا كانت الظروف الـ ٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠٠

وقفت أشرح للموظف قضيتي ، أو على الارجح مصيبتي، فقد راحت المسـألة تتضخم في عقلي حتى وصلت الى الموظف المذكور فأضحت مصيبة حقيقية ٠٠

يقول المثل « ويل الشجي من الخلي » صحيح ، ففيما كنت أضع كل أريحيتي وفصاحتي في شرح المشكلة الوجدانية التي كنت أعانيها ، وأنا أتحدث في حرارة وشعور بالضيم ، كان موظف دائرة الجباية منشغلا عني في تصفح مجلة نسائية أو

رجالية لا أدري ٠ فقد لمحت بها جسد امرأة عارية ، لا أنكر انها كانت تستحق الاعتبار ، وقد جنح خيالي مرات عديدة ـ وأنا أتحدث عن الكشف والقبو وكل هذه الاشياء الى أمور أخرى لا مجال لذكرها الآن ، ولكني في الوقت نفسه كنت حانقا أشد الحنق لان الموظف لم يتكرم بالنظر الي ، كان يهز رأسه فقط ، أعترف بأني عذرته ، وقلت في نفسي ، ربما هو يفهم جيـدا ويسمع ما أقول ولا حاجة به الى الاستعاضة بوجهي عن التملي والارتواء منهذا الجسد الالهي الذي كان بحق يسيل اللعاب٠٠ وتنبه الشاب أخيرا الى أنني كنت أقف أمامه صامتا، وقد تنبهت أنا أيضا الى ذلك ، فعرفت بأني عرضت له المشكلة كلها بالدقة والتفصيل ، وهنا رفع رأسه وقال لي في سرعة غريبة « قـدم طلبا » وسمعته ينهرني :

ـ أين عقلك ٠٠

وبسم ، كان عقلي بصراحة في المرأة العارية المستلقية على عشب ندي ٠ ماذا أفعل اذا كانت مشاعري وخيالي قد انجذبت اليها ٠ وتذكرت زوجتي الدقيقة الحجم ، و ٠٠ لا حول ولا قوة الا بالله ٠



قلت لبائع الطوابع ، أعطني ببقية الليرة هذه المجـلة ، كذبت على نفسي ، « سأسند عليها ورقة الطلب » ٠

الى مدير مؤسسة ٠٠ يعـرض مقدمـه فـلان ٠٠ انـه بتاريخ ٠٠ أذكر بأني كنت أكتب كلمـــة وافتح على الجسد

العاري ، ثم ما ألبث أن أقنع نفسي (ستجد لديك وقتا طويلا للتمتع) وبعد أكثر من ساعة ناولته ورقة الطلب ، لاحظت بأن أصابعي كانت ترتجف · وراح الموظف يقرأ ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ شاكر بلوط ؟

وهززت رأسي بفخر · قال لي :

ـ ماذا يقرب علي شلحوط ؟

ـ قلت له :

ـ أنا بلوط ··

فخرزني بنظرة ثاقبة · وخطرت لي فكرة ، لربما كان يعرفه ، فسأستفيد من ذلك ·· سألته بشيء من الخزي · خشيت أن يدرك كذبي :

ـ شلحوط ··

قال :

ـ أيوه ·· علي شلحوط ··

وتصنعت التفكير ·· ورددت بلهجة خائرة :

ـ أظن أنه من العائلة ··

قال لي آمرا :

ـ اذا رأيته قل له أن يمر علي ··

قلت له :

ـ طيب ··

ـ ان لي معه نقودا ··

وهنا هبط قلبي « لعنة الله على هذه المعرفة » · وتابع الموظف :

ـ شو صار بينه وبين زوجته ··

قلت بلا تردد :

ـ طلقها ··

وانتفض الشاب جاحظ العينين :

ـ طلقها ؟

وهززت رأسي ايجابا ·

ـ أكيد · ؟

ـ أكيد ··

ـ والله لاخرب بيته ·· لعب على أختي ·· و ··

ونفذ الانذار ·· لا أدري ما حدث لطلبي ·· الارجح أنه وصل الى المصدر المسؤول · أنا أدرك بأن الموظف اذا كان له ثأر عند (شلحوط) فانه لن يستفيد من ورقتي ذات الطابع بخمسة وأربعين قرشا، والتي أشرح بها قضية تتعلق بثمن مياه مستحق خطأ · لقد وصل طلبي الى أعلى مصدر بالمؤسسة حتما لان الماء قطع عني في اليوم التالي ، أي قبل انقضاء مهلة الانذار بأسبوع · وأنا الآن في غرفتي أتصفح المجلة العارية بعيدا عن زوجتي · صوت ابني يسأل الجيران « تقول لكم ماما أعطونا مي » ثم قرقعه سطل فارغ « أسرة بعل » أسرتي تستقي من عروقها · ستجف هذه العروق يوما ·· قبل أن يأتي أيلول ··

أحياءٌ في قبور

مخيم « خان الشيخ » كغيره من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ٠

ما أن حل شهر شباط احدى السنين ، حتى نقصت قدرة ساكنيه على تحمل البرد والجوع والمرض، فصاروا يموتون دون ضجة ، في حين أخذ أهل الميت يبحثون عن الحطب والخبز ليعيشوا يوما آخر على الاقل ناسين أحزانهم وميتهم في العراء ٠ وترامى الى مسامع هيئة الاغاثة هذه الانباء غير السارة ، فعزمت على وضع حد لها ٠ وفعلا قامت بعمل « حاسم » ٠ فقد طرحت مسألة دفن الاموات بالمناقصة العلنية وبطريقة الظرف المختوم٠ ففاز بها تاجر تكفل بجميع مراسيم الميت ، غسيل ، تكفين ، حفر ، صلوات ، دفن ، بعشر ليرات سورية لكل « رأس » ٠

وكان هذا التاجر تاجرا حقا وفعلا ٠ لانه استطاع أن يحسب التكاليف بدقة عجيبة ، دون أن يسقط من حسابه حالة اللاجئين الصحية ، أو عددهم أو طريقة عيشهم ٠ أما حالة

الطقس وصندوق هيئة الاغاثه، فقد درسها درسا وافيا . فاستأجر التاجر لهذه العملية رجلين ، أحدهما من العمال المطرودين والآخر من (المتمشيخين) الذين يبحثون عن المناسبات . وخصص التاجر لهذين العاملين نصف ليرة لكل رأس . وقد أفرغ في مخيم (خان الشيخ) مكان خاص لحفظ الموتى ، ريثما يتم ترحيلهم الى العالم الآخر ، أو العالم الارضي .

كان هذا المخيم يتألف من أكوام صغيرة سوداء مبعثرة على الارض ، لا يمكن اذا ما انفصلت بعضها عن بعض أن توجد لها أسماء ، أما اذا اجتمعت معا فيمكنها أن تشكل مأوى لبعض الاشياء . غير أنه لسوء الحظ تعيش في داخلها نفوس بشرية لاجئة . ويبدو أن تاريخ البشرية لم يشهد في حياته الطويلة ، مثل هذه الملاجيء والا لوضع لها اسما في يوم من الايام .

كانت كل قطعة من هذا المخيم ، عبارة عن أسمال وصل بعضها ببعض بطريقة معقدة ، غرست أطرافها في الارض ، وارتفعت أواسطها على عصي مرتجفة ، ومما يزيد في صعوبة تسمية كل قطعة من هذا المخيم أن الواحدة منه لا تشبه الاخرى بأية حال ، وقد يدهش الانسان اذا ما عرف أن معظم هذه القطع ، مؤلف من مجموعات خيش ، وحصير وبسط وأشياء أخرى ليس لها تاريخ .

وفي ذات ليلة من ليالي شباط الاخيرة حضر الدنان فجأة الى المخيم :

ـ هل يوجد أموات ؟ . .

كانا يصرخان وسط البرد والريح والظلام الدامس . .

فاجابت قطع المخيم بتصفيق من أطرافها ، انني تهزها الريح · وكأنها تقول ـ نعم ·· نعم تعالوا ·

وزحف من خلال القطع السوداء المتناثرة ، بعض الصبيان والشيوخ ، بعضهم للتسلية وبعضهم لكسب الاجر ·· وتجمعوا حول خيمة متطرفة خصصت للموتى · ولعل هذه الخيمة كانت أحسن حظا من سابقاتها ، لانهـا كانت مؤلفة من قطعتين من شعر الماعز · وكان المتفرجون مهلهلين مرتجفين كأنهم قطع من خيامهم نصلت عنها زاحفة وسط الليل القارس ·

وطلب الدفان الشاب منهم أن يريحوا أنفسهم من عناء المشاهدة وكسب الاجر · فضلا عن أن العمل سيكون مكشوفا ، وأن الجو البارد والريح الزاعقة لا تسـمح لهـم بغير ملاحظة أنفسهم · فرضخوا للامر ·

وبسرعة أوتوماتيكية وضعت امرأة في كيس « قلم أحمر » وحملت الى النهر القريب ·

كان الدفان الشاب طويلا هزيلا ، يرتدي سروالا عريضا في أعلاه وضيقا في أسفله وقد كوى لمدة قريبة ، وكان يبدو جليا أن السروال قد أخنى عليه الدهر بعد أن كان في نعمة يحسد عليها ، وأكبر الظن أنه استلفه من التاجر على الحساب · أما سترته فلا يمكن أن يحصر تاريخها بالضبط ، الا أنها تنطـق بل تصرخ بسوء الحال · وفي داخل السترة كانت تنتصب عظام قوية ناتئة يكسوها جلد متين لامع · أما وجه صاحبها فكان يدل دلالة واضحة على أنـه قضى سني حياته كلهـا في كسب الرغيف · فقد كانت غضونه المحفورة كيفما اتفق ، تشهد بأنها حفرت بأزاميل الكدح والجوع والكفاح · أما الدفان الآخر فقد

كان يرتدي قنبازا حريري اللون ، قصيرا حتى ركبتيه ، مهترئا في أكثر اجزائه،منكمشا على نفسه كانه ينام فيه،أو كأنما يخشى أن يمس الارض ، وكانت تكسو رأس هـذا الدفان طاقية ، لونتها السنون . أما وجهه المسطح فكان يبدو كأنما أفنى تضاريسه في السجود .

قال الدفان الطويل لزميله ، وكان يتأبط جسد الميتة وكأنما يتأبط وسادة من القش .

ـ زبونتنا خفيفة الحمل .

فأجابه الآخر :

ـ يرحم الله روحها ، وعلى كل حال ان مكان الانسان في الجنة لا يقاس بضخامة جسمه بل بضخامة روحه .

ـ وفي جهنم .

ولم يجب الآخر ، كان يعلم أن زميله لا يؤمن بشيء .

ـ أقترح ألا نغسل المسكينة ، فالنهر بعيد والهواء شديد البرودة ، فضلا عن أن النهر في هذا الظلام الدامس قد يوقظها فيرعبها .. واذا استيقظت ..

فقاطعه الدفان الشيخ صارخا :

ـ اننا نغسل الروح أيها الاحمق .. أما الجسد فهو للديدان .

وضحك الطويل في سريرته (روح تطهر بماء بارد) ولكن هل كان حقا يخشى أن تستيقظ الميتة ؟ من يدري ؟

لربما أن هؤلاء الناس يدفنون أحياء · ربما أنهم لم يموتوا بعد ؟ هكذا كان يفكر ·

وصلا الى النهر فتولى الشيخ أمر الجثمان · اذ فتح الكيس ومط رأسه داخله واستغرق في قراءة طويلة ·· بينما مد الآخر يده الى جيبه وأخرج زجاجة كونياك · وامتص منها جرعة كبيرة ·

صاح الشيخ شاكيا :

ـ انك تدنس حرمة الاموات · فضلا عن أن روحها تنتظر الرحمة · اذهب يا أخي · اذهب ودعني أعمل وحدي ··

ـ ومن يحفر ؟

فصمت الشيخ · كان الطويل مكلفا بجميع الاعمال اليدوية أما هو فكان يقرأ فقط · وعندما لم يجد شيئا آخر يقرؤه أمر زميله :

ـ هيا ·

وتقدم هذا من الكيس فرفعه من رأسه وأدلاه بيديه الطويلتين الى الماء · كان النهر أسود فاحم السواد· يقرقع ماؤه في مكان ما قرقعة كئيبة ، ويتجعد وجهه بفعل الريح تجعدات قاسية وعميقة، كأنه يفكر غاضبا بأمر شديد الخطورة· وكانت بعض الاشجار على الجانبين تهز رؤوسها هزا عنيفا فتخشخش أوراقها شاكية وكأنما هي تندب على الميتة ، والريح لا تني تتخابط متزاحمة كأنها ضلت طريقها في الظلام · وكان صراخ طفل ثائر عنيد ، يثقب الليل والريح ، يصل حادا كوخز الخنجر

متصاعدا من جوف المخيم . وفتح النهر فمه وابتلع الكيس . وراح الشيخ يقرأ .

- هل يكفي ؟.

ولم يجب الشيخ

أعاد الطويل صياحه :

- لقد سقطت أصابعي من البرد والميتة تريد أن تنطلق مع التيار . انها تتحرك .

أجاب الشيخ :

- أغمس رأسها جيدا أيها الغشاش .

- أقول لك يكفي - أنا لست غشاشا .

فتح النهر فاه ولفظ الكيس يقطر ماء .. وتطوح الكيس في الهـواء ثم استقر على ظهر الدفـان الطويل. وسار الدفانان حوالي مائة خطوة - صاح الشيخ :

- هنا ..

وكانت بقعة من الارض انتصبت فيها أحجار قصـيرة . وبقي الجثمان المبتل على الارض . وشرع الطويل يحفر . وفي السماء كـانت غيـوم مذعورة تتسابق في جميع الاتجاهات ، والريح تقذف تباعا بصراخ الطفل العنيد .

وجثم الشيخ الى جانب الكيس وصاح :

- يا حي يا قيوم .

كان رأس المعول لا يجد صعوبة في اختراق الارض اللينة وكأنما كانت هذه الارض تفتح صدرها حانية على الميتة وصرخ الحفار ٠

ـ هل يكفي ٠

ـ ان الله يراقبنا ـ اعمل ٠٠ لا تسرق ٠٠

وصاح الحفار وقد نفد صبره :

ـ أنا لست سارقا ـ يا أستاذ ولست غشاشا ٠

ـ انك تسرق حق الميتة ٠٠

ـ ان الناس يسرقون الاحياء ويغشونهم يا شيخ بديع وأنا لا أسرق شيئا ولا أغش أحدا ٠

كان يرفع الفأس حتى رأسه ٠ ثم يهوي به كيفما اتفق ، دون أن يجد صعوبة في نزعها من الارض٠واستقام الحفار فجأة ثم انحنى على الارض وراح يزيح التراب بساعديه ، وصاح من داخل الحفرة ٠

ـ هوه انه مسكن دافيء ٠٠ أقسم بشرفي !! يحتاج فقط الى سقف ٠٠ هيا أعطني أياها ٠٠

وتناول الكيس ومدده في أسفل الحفرة٠صاح من الاسفل:

ـ هل أقرأ لها شيئا ٠؟ هيا ٠٠ ماذا أقول ٠٠ ؟ فغمغم الشيخ :

ـ استغفر الله العظيم لا تقرأ شيئا ٠٠ أنت غير طاهر ٠

وصعد الرجل، وأهيل التراب على الميتة وغرس فوقه حجر

.. هنا تنام لاجئة الى جوار اخوانها اللاجئين .

ورجع الدفانان . ومد الطويل يده الى جيبه فزجره الشيخ :

– أيها الكافر – أقسم بالله أنك لا تستاهل من ربك نظرة عطف .

فرفع الآخر ساعده وطوق الشيخ من عنقه بلطف . قال له :

– ياشيخ بديع نفختني .. لقد حرمني العمر هذه النظرة منذ أن خلقت ، وها أنا ذا أبحث عنها منذ أن دببت على الارض . ماذا تريد أيضا ؟ أنا أشرب الكونياك كيلا أبرد .. لماذا صنع الكونياك ؟ وأنا بالتالي أدفن الناس لاكل خبزا ، وهذه ليست مهنتي، أنا عامل .. عامل مطرود . وأنا الآن أعيش كي أعود مرة ثانية عندما تتوفر شروطي، شروطنا .. غدا . أنا لست سارقا، يمكن على الاقل أن أكون مسلوب الحق وهذا لن يدوم .. ما هذا الصوت .. ان الطفل لا يزال يصرخ .. يبدو أنه يبحث عن أمه لا بأس .. أتسمع ..

هيا أيها الطفل اصرخ بعناد .. غدا ستكون رجلا ..

وطوى الدفانين الظلام .

انسان بلا ماضي

قالت لي أمـي : لا تنزع ملابسك كلهـا ٠٠ أصح ٠٠ يصيبك البرد ٠

ـ لا تخافي ٠٠ سأريك الآن كيف أقف تحت السماء عاريا ٠

ـ قلت لك اصح فالبرد مضر في هذه الايام ٠٠

ـ لقد اعتدنا البرد اننا نغتسل هناك بماء النهر ٠

وكانت تبحث في صرة كبيرة عن طقمي المدني ٠ وفجأة كفت يداها عن الحركة ٠ وصاحت كمن لسعته جمرة :

ـ بالماء البارد ؟

ـ قلت لك بماء النهر ٠٠

وكأنما أشفقت أن يكون ما أقوله حقا فارتعش وجهها ، وأخذت تدعو على نفسها بحزن وعمق وكأنها ألحقت بي أضرارا بالغة فأرادت أن تقتص من نفسها بالدعوات ٠

كانت الصرة مكونة من قطع خـروق باليـة ذات ألوان متعددة موصولة بعضها ببعض ، ويظهر أنها حقا بقجة عرسـها لانها أصبحت رمة لفرط القدم . قالت ملحة دون أن تنظر الي :

– طمئني يا ولدي لا ترعبني .. ألا تبردون ؟.

– اننا لا نموت من البرد ولكننا ..

– هه .. وجدتها كانت مختبئة في الاسفل .

وكنت أقف عاريا مختالا بعظامي الطويلة البارزة :

– ولكني أريد قميصا ..

– البس قميصك الخاكي الآن ريثما يأتي أبوك فيعطيك قميصه ..

(حسنا فقميصي اذن أخذوه) وارتديت البنطال .

– ولكن يا أمي ليس هذا بنطالي .

– انـه بنطالك يا ولدي ، بنطال أخيـك اهترأ وصـار ممسحة منذ شهرين .. وأبوك لا يلبس بنطالا ، ولا أنا ..

– طيب أعطني السترة ، وعندما ارتديت السـترة تمت المهزلة ، فقد أطل ساعداي من الكمين كساقي جدي مسلوخ ، وأصبح الجيب تحت الابط .

صحت في ثورة وغضب :

– هل تضحكين ؟.

أجابت والدموع تنهمر من عينيها مع الضحك :

ـ كبرت يا ولدي أصبحت طويلا ، ألا تراني بجانبك كأني ابنتك · على كل حال ستفيدنا هذه البزة ، نعطيها لاخيك فقد أصبح عاريا · (وأكملت بعد لحظة) : أما أنت فستشتري غيرها ·

صحت في غضب لا يقاوم : هذه الملابس العسكرية ليست لي ·· ليست لي ·· أفهمت ؟ يأخذونها مني عندما أسرح ، ماذا أرتدي اذا بعد ذلك ؟ هل صدقت اني لا أبرد · انني أحس بقلبي من الآن يؤلمني ·· هه ·· اشتر غيرها ·· من أين آتي بالمال ؟ هل أنا أستاذ مدرسة أم صاحب دكان ؟ ان رفاقي جميعا يتناولون رواتب من أهلهم وأنا وحدي أعيش على سبع ورقات ·

وطرق الباب في عنف وسمعت خب أرجل طويلة تطرق الارض ، ودخل والدي :

ـ كنت أعلم أنك ستأتي اليوم سمعت صوتك من رأس الحارة ··

وجمدت في مكاني دقيقة كاملة · أهكذا يستقبلني أبي بعد غياب ثلاثة أشهر ؟ والتفت الي مرة ثانية وتفرس في وجهي :

ـ كنت أعلم أيضا أن شاربيك سيشقان لنفسيهما طريقا في وجهك ·· أما صوتك فلم أكن أحسب له حسابا ··

وفتل ساعدي بيده في قوة وقال : عال ! هكذا أريدك أن تكون رجلا · وضرب بكفيه وقال لامي :

ـ ألم أقل لك أنه سيجيء اليوم؟ انك لا تصدقينني أبدا· أنتن أيتها النساء ·· آه من عقولكن ·· انكن لا تصدقن مخلوقا مهما كان صادقا ، وبالتالي لا يصدقكن أحد على الاطلاق ·

ورفع يده يمنعها من الكلام : أجلي حديثك الى ما بعد العشـــاء انني اذن جائع . وتطلع الي قائلا : أليس كذلك يا حسان ؟.

كان والدي رجلا جلفا يحب القوة ويعبد العسكرية،ولكنه مع الاسف لم يذق لها طعما . وتمنيت في تلك اللحظة أن يزحف على بطنه وسط الوحول والاشواك،ويحمل على ظهره رزمة كبيرة من الامتعه ويسير بها ساعتين.ويسهر ليلة كاملةببندقيته وحيدا في الظلام ، ثم بعد ذلك يتحدث بهذه الخشونة .

وضرب كفيه على ركبتيه وقال كأنه رئيس يمتحن مجندا :
– ايه يا حسان .. ماذا تفعلون الآن ؟.

وصاحت أمي من المطبخ : حسان .. هل تحب الكبة ؟ صنعتها خصيصا لاجلك أنني أعرف أنك تحبها .

وانتفخ خدا والدي وهو يزدرد الطعام في شهية فظيعة ، أما أنا فكنت أتناول القرص وأقضـــمه في لذة وعـلى مهل ، ولم تشاركنا أمي في الطعام ولكنها جلست الى جانبي وأسندت ذقنها على راحة يدها وأخذت ترقبني في صمت .

– انني أعرف أنك تحبالكبة وقد ملأتها لك جوزا ودهنا، كل ، .. فيها العافية .. هل تأكلون كبة هناك ؟

– اننـــا نأكل من جميع الاشـــكال والالوان (وتذكرت المعكرونة والشوربة في القصعات) ولكننا نتناوله في شهية، اننا نأكل هناك أضعاف ما نأكل في بيوتنا .

– لانكم تتعبون ولي على أمك .

وأخـــذت تدعو على نفســـها بحـــرارة . وكان والـــدي

يرمقها شـذرا بعينـين ضـيقتين · وكـان كلامهـا يزعجـه كل الازعـاج ولكنـه لم ينبث بحـرف · كان يأكـل ويصغي فقط · انه حتىولو شاء أن يرد فهو لا يستطيع، لاناللقمة كانت تسد جميع الفراغ ، من الشفتين حتى البلعوم ، فلا يجد الصوت له مخرجا · وكان شارباه الاسودان اللذان ينالان نصيبهما من الطعام أيضا ، مزروعين في وجهه بصورة غريبة ، فهما مؤلفان من مجموعة أوتاد شعرية قاسية مبعثرة وطويلة · وأعتقد أنه يمكن عدها لانها متباعدة وظاهرة بشكل واضح ، وكانت بارزة الى الامام بروزا مدهشا ، حتى لتبدو كأنها حقل أوتاد منصوبة على شفته العليا ، أما أنفه فكان كحصن مرتفع محاط بأسلاك شائكة · وبالقدر الذي كان فيه شعر شاربيـه الشـائك قويا ومنتصبا ، كانشعررأسه رقيقا وخفيفا · أما مقدمالرأس ، فقد حصد تماما وحلت مكانه صلعة حمراء ناصعة · وتساءلت في تلك اللحظة : ترى ألا يسـتطيع والدي أن يعارك بشـاربيه وحدهما ؟ وسألتني أمي :

ــ بماذا تفكر ؟ هل أعجبك الطعام ؟·

ــ جدا ··

ــ انني أعرف أنك تحبه ·

وكأنما لاحظ والدي أنها أعادت هذه العبـارة أكثر من مرتين ، فرمقها بعين خابية مغيظة ، واغتنمت أمي هذه الفرصة فقدمت له قرصا كبيرا ، وقالت لي : ستمكث عندنا هـذه المرة طويلا أليس كذلك ؟·

ــ أربعا وعشرين ساعة ·

ــ بس ؟ معنى هذا انك ستسافر مساء الغد ·

ــ لا ·· في الصباح ··

واخذت تدعـو على قلبها وقامتها من جـديد ٠٠ وعادت تقول :

– وكيف تعيشون هناك من يطبخ لكم ؟ وماذا تأكلون ؟ واين تنامون ؟٠

– ننام على أسرة حديدية ٠

وكف والدي عن المضغ ، وتطلع في وجهها في شماتة وكأنه يقول لها : هل فهمت الآن ٠

كانت أمي تبدو لي أقصر كثيرا مما كانت عليه في الماضي، ولكنها أسمن ، كانت كقطعة زجاج ملتهبـة طويلة وضعت في قالب صغير ٠ ولكن وجهها ظل كثير النحول بارز الوجنات ، وعلى جانبي فمها ظهر اخـدودان عميقان ٠ أمـا رأسـها فقـد انسـكبت عليه شلة شـعر بيضاء تخللها بعض السـواد ٠ وارتجفت عيناها وهي تقول لي :

– كلمـا رأيت جنديا في الشارع ظننته انت ، فأسـرع واسرع حتى أصل اليـه ٠ ومرة قـال لي أحدهم عندما رآني أتأمله في امعان : ماذا تريدين مني ؟ فسألته عنك ، فقال انـه لا يعرفك ٠ هل حقا انكم لا تعرفون بعضكم بعضا هناك ؟

– اننا يا أمي أكثر من أن نجتمع في خيمة واحدة ٠

– مسـكين قلب الام كـم يتعذب ! ورأيت مرة جنودا ينزلون من بـاص كبير يحملون على أكتافهـم مزاودهم ورأيت بينهم شخصا يشبهك تماما بحذائه وبنطلونه وطاقيته فركضت اليه صائحة : حسان ٠٠٠

وتأملتها بعيني ، ولم اجرؤ على أن أقول لها : ان تصرفك هذا لا يخلو من سخافة ، غير انني قلت في نفسي : لكم هي مضحكة هذه الام !٠٠ قالت انهم يشبهونني بأحذيتهم وبناطيلهم ، أما الوجوه فقد نسيتها تماما ٠

ـ ألا يعذبونكم ؟

وفجأة أجفلت أمي أثر صيحة قوية ، فقد انتهى والدي من الطعام ٠

ـ كفى أيتها المرأة يا للشيطان ! انني والله العظيم لا أدري هل تزعجينه أو تعطفين عليه ، ما معنى كل هذه الثرثرة ؟ انه يعيش أحسن منك ومني ٠٠ نعم ، انه يعيش على سرير ويأكل ما طاب له أن يأكل ويلعب ٠ وهناك له رفقه كثيرون ٠ تصوري لو أن كل أم راحت تبحث عن ابنها في الشارع لانقلب العالم كله الى خلية من المجانين ٠٠ يا لهاتيك النساء ! لا أدري وربي هل خلقن لراحتنا أم لشقائنا ؟ انهن في الوقت الذي يعطفن فيه علينا يزعجننا أشد الازعاج ٠٠

كان والدي قاسيا في حديثه ٠ ومع أن كلام أمي لم يحدث في نفسي العزاء الذي أريده أو الترثيه الذي أبتغيه ، الا أن والدي جعلني أحب ذلك العطف وأتمنى منه المزيد ٠ ولست أدري في تلك اللحظة لم ظننت أنه غار عليها لانها سألت عني شخصا غريبا ، يبدو أنه خاف من أن يكون ذلك الغريب قد سمع صوتها أو رأى وجهها أو ٠٠

ـ ابن خالتك حسين عندك هناك ؟٠

ـ لا ٠٠٠

ـ وخالك ٠٠٠

ـ لا ٠٠٠

ـ و ٠٠٠٠٠

وصاح والدي كمن نفذ صبره :

ـ ألا تدعينه يأكل بحق الانبياء ؟٠

كانت أمي تجفل من والدي وتصمت مباشرة بعد أن يجعر في وجهها ٠ وساءني أن أكون سببا في مشاجرتهما ٠ فنهضت وخرجت من الغرفة ، فأحسست بأن أمي تتأملني من الخلف في اشفاق وأبي في اعجاب زائد ٠ لا شك في أنه يقول في نفسه : ها هو ذا ولدي قد صار أطول مني ومن أمه ٠

كان بيتنا يبدو نظيفا جدا ، ومعتما كالقبر ، وضيقا لدرجة خلت فيها أن جدرانه تقترب بعضها من بعض لتسحقني بينها سحقا ٠ وخرجت الى الحارة ووقفت أمام البيت ٠٠ حقا أنني طلت جدا ! كنت لا أستطيع أن أصل الى حلقة الباب قبل أن أقف على رؤوس أصابعي ، أما الآن فأنني أجد الحلقة تنحني الى الاسفل من تلقاء نفسها ٠٠ أما حارتنا فكانت تبدو معتمة وصغيرة ونظيفة أيضا ، وفوق كل ذلك أشعر الآن فقط بأن لي صوت الرجال ٠ ها هي ذي جارتنا أمينة تطل من النافذة ، ونفخت صدري وأملت سيدارتي الى اليسار ٠٠ لم تكن هذه الفتاة في نظري شيئا يذكر ، أما الآن فانني أراها تختبىء وتخجل ٠٠ ليتني أطرق بابها وأدخل كما كنت أفعل في السابق ٠ لا شك في أنني سأجد لها نهدين منفوخين كبيرين ٠

وأطلت أمينة مرة ثانية وكأنمـا أرادت أن تدلني على وجودها وصاحت :

ـ نعم يا ماما ۰۰ أنا هنا ۰

عندما كنا وهناك نرى فتـاة من بعيد ، تظل موضـوع أحاديثنا ساعة كاملة أما الآن ۰۰

وجاءت أمي : ماذا تفعل هنا ؟

★ ★ ★

وفي منتصف الليل هببت من سريري مذعورا أثر صيحة قوية يظهر أنها صدرت مني بالذات ، وأحسست بشعر رأسي ينبت من جديد عندما رأيت وجـه أمي الصغير يطلع علي من وراء الزجاج ۰ وفتحت الباب ودخلت : ما بك يا ولدي ؟

ـ لا شيء ۰۰ ما هذه الضجة ؟ لقد سمعت انفجارا ۰۰

ـ هذه جارتنا يا ولدي انهـا تعمل في الليل على نولها الخشبي ، وبين آونة وأخرى يسقط الثقل الحجري ، لا تخف ، ان ذلك يحدث دائما ۰۰

ـ هل كنت تراقبينني من المساء ؟۰

ـ يظهر أنك رأيت أحلاما مزعجة ۰

ماذا حدث بعد ذلـك ؟ نعم في الصباح ، سفحت ورائي سطلا من الماء وقالت مع السلامة ويبدو أنها ما برحت تتحدث مع جارتنا أمينة على الباب حتى الآن ۰۰ وبعد ذلـك لوحت بيدها النحيلة : مع السلامة مع السلامة ۰۰ هه ۰۰ يظهر أن الله لا يستجيب لغير الدعوات السيئات ۰۰۰



انني أقف الآن في هذا العنبر الكبير وسط المستشفى ، أذكر ما حدث منذ ثلاثة أشهر ، لا شك في أن أمي قصرت جدا ، وأبي سقط جميع شعره ، وأعتقد أنهما لا يزالان يفكران بي ٠ تقول أمي : « أين هو يا ترى ؟ » فيجيبها أبي : « كفى سخافة ، انــه ٠٠ » ولا أدري بمــاذا يجيب ٠ وسوف لا تصــدقه أمي فيتشاجران ٠ طيب ، على كل حال يجب أن لا أعود الى البيت ، ان وجهي الذي ظلت أمي تتأمله بامعان قد فقدته ٠ ويحسن بي أن لا أعود بهذا القناع من القماش الابيض ٠ ترى متى يزيلونه عن وجهي ؟ لا شك في أنهم لا يجرؤون ، اذ يخافون أن أقف على مدى بشاعته فأقذف بنفسي من النافذة ٠ طيب ، هكــذا أفضل ، سأمشي في الشارع منفوخ الصدر ، أطوح يــدي في الهواء وأصيح في الناس : أنظروا أيها المرفهون المنعمون ، انني أنا أعود من المعركة وليس لي أحد الوذ به ، وسوف لا تعرفني أمي ولا يعرفني أهلي جميعا ٠ كان بيتنا ضيقا ونظيفا ومعتما ، وجارتنا أمينة كبرت ونضج نهداها ٠ وأمي تنتظرني في البيت تهيىء لي أقراص الكبة ٠٠ غير أنني الآن لا أستطيع أن أمضغ غير الشوربة ٠ لا شك في أنها تبحث عن كل جندي في الشارع وتقف أمامه قزمة صغيرة وتسأله : هل تعرف ولدي حسان ؟ فيجيبها بقوة : « لا أعرفه » وسيتأملها فيجدها شيخة عجوزا ٠ حمدا لله أن أولئك الذين تسألهم عني لا يعرفونني والاأصبحت حديث الجميع ٠

– انني أعرف أمه ٠

– وأنا أيضا ٠

– انها عجوز صغيرة ٠

ـ ولها صوت كصوت الضفدعة ٠

نعم انهم يسخرون من كل شيء حتى من الموت ٠ ها هي ذي الاسرة مصفوفة على الجانبين تحوى شبانا صغارا لهم أمهات مثلي ٠ سوف يعودون يوما الى أهلهم يبحثون عن طقومهم المدنية ٠ أما أنا فقد مسخ طقمي ، فاذا رجعت فليس لي ما أرتديه ٠ طبعا أن هناك عدة أسباب تمنعني من العودة ٠ وعلى هذا فسأدور في الشارع وأبحث عن أي عمل ٠ واذا لم أجد ٠٠ ولكن لا ٠ سأجد وأعمل طباخا في فندق ٠ فقد جربت أن أطبخ وحدي ثلاث مرات ، ونجحت ٠ ولكن أحدا لم يذق طعامي ٠٠ من يدري فلربما كان لا يذاق اطلاقا ، ومع ذلك وجدته طيبا لانني عارف أن لا طعام غيره ٠٠ ليت والدي يأتي الآن لاصرخ في وجهه بوحشية : « أنظر أنني رجل » ٠

منذ لحظات كنا نسمع أصواتا مرعبة تصدر من غرفة العمليات والآن عم الهدوء ٠٠ ها هو ذا الجرس يدق ، جاءت الشوربة ، ليتني أجد شيئا جديدا أفكر فيه لاطرد من رأسي المقنع هذا الواقع الاليم ٠ أختي الصغيرة احتذت حذائي العسكري فتعثرت ووقعت ٠ حسنا ! أمي أطلت علي من النافذة ٠ جاءت عمتي وخالتي تسلمان علي وتودعانني ٠ مع السلامة ٠٠ مع السلامة بأمان الله ، بحراسة الملائكة ٠٠ الانبياء والرسل تمشي وراءك ٠٠ عال جدا ! كانتا تدعوان لي والبصاق يتطاير في وجهي مع الدعوات ٠ ان السماء ذات كبرياء وانفة فهي لا تتقبل دعوات عجائز كريهات ٠ يالله كم أتمنى لو أبكي الآن ٠٠ انني وحيد ، ولو بكيت فسوف لا يراني أحد ٠ سأبكي بصمت وستبتل هذه الخروق البيضاء

قبل أن تصل الدموع الى وجهي المهترىء . من الخير لي ألا أفكر أبدا ، بل أبحث عن حياة جديدة . ماذا لو أدرك البلى عقلي أيضا ، ألا يكون ذلك أفضل ؟ ان الذكرى تؤلم ولا تسعد .

– هل تسمحين لي أيتها الممرضة أن أخرج الى الشمس قليلا ؟..

– انتظر حتى ترحل الزائرات .

هذه الممرضة ذات الشاربين الصغيرين تكذب علي دائما . وتبدو جبارة عاتية أمام الجميع . لا أريد أن أتزوجك أيتها الفتاة . فأنا لا أفكر في الزواج على الاطلاق ، فعلام هذه العنجهية الفارغة ؟ كان خير لك أن تحلقي شاربيك بالموسى .. حمدا لله ، انها لم تسمعني والا ..

هناك زائرات .. وفتح الباب ودخلت أمي .. هل هذه أمي حقا ؟ سحقا لهذه الحياة ، يظهر أنها تشوه الناس جميعا ، الذين يحاربون والذين لا يحاربون على السواء . هل هذه الكومة من العظام أمي ؟ لا شك في أنها لم تخرج من غرفة العمليات ، انها آتية من البيت حتما .

واصطخبت في جمجمتي ثورة عنيفة من المشاعر . ودق قلبي في عنف غريب لم أعهده في حياتي حتى في أشد المعارك هولا ورعبا .. لو جاءت أمي بحالتها الاولى قبل أن يهدمها معول الزمن لبدوت أمامها أكثر ثباتا . أما حرام أن أهرب من هذه الأم المسكينة ؟

كان وجهها شديد الشحوب ، وقد رفعت منديلها الاسود وأخذت تضحك وتبكي بلا دموع وتغمغم « حسان » .. يجدر

بي أن أثبت الى النهاية ، سوف تفتش وتذهب وتظل تحلم بي حتى أعود · كانت تحمل بيدها سلة صغيرة ، بدت وهي على ساعدها كبائعة البليلة · وألقت بالسلة على الارض وهرعت الى السرير الايسر وتعلقت بأرجل المريض وهتفت : حسان ؟ ترى من أخبرها أنني هنا ؟ وكان سريري الرابع من الصف نفسه فنهضت بهدوء ووقفت وسط المهجع · اذا سألتني الآن هل تعرف حسان فسوف أجيبها : « لا أعرفه » أما اذا عرفت صوتي ؟ آه يا رب ان ذلك ما لا أستطيع فعله · ترى هل أدرك التشويه صوتي أيضا ؟ أفضل شيء ، أن أهز رأسي فقط ·

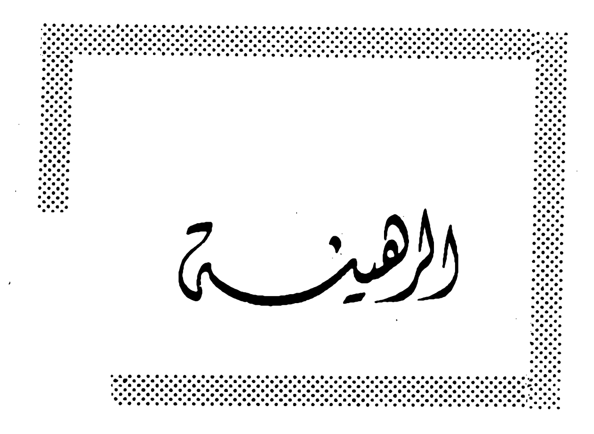
وقفزت أمي الى السرير الثاني وأزاحت الغطاء عن وجه صاحبه ، فراح هذا بيده المفقودة يحاول النهوض · وعندما وصلت الى السرير الثالث كان قد أدركها الاعياء فاستندت على حافته واقتربت منها الممرضة ·

ـ من تريدين يا خالتي ؟

ـ ابني حسان ··

وتطلعت الممرضة الي ، وقالت لها شيئا ، وهنا لم احتمل نفسي · فاستدرت بسرعة · وعدوت الى خارج المهجع · وفي الممشى الطويل سمعت صوتا بعيدا ، بعيدا جدا ·· وكنت أعدو ، وكان هذا الصوت يعدو ورائي ويخترق أذني ، ضعيفا ، كأن أسلاك الهاتف تنقله في ليلة عاصفة ·

ـ حسان ·· حسان ·· لقد ·· (لهاث عنيف) ·· لقد اشتريت لك ·· (بحة خفيفة) ·· طقما جديدا ·· ح ·· حسان ·· لا تهرب ·· ستعيش انسانا من جديد ··


الرهينة

يقع مطعم الصحة الى جانب فندق الامل في شارع ضيق اسمه شارع العاصـمة ٠ ولا شك في أن العاصمة كـانت من الطيبة والزهد والتواضع وجميع الصـفات القويمة الحميدة لانهـا رضيت أن تعطي اسـمها بكل جـود الى ذلك الشارع الهرم ٠٠

فنظرة واحدة الى ذلك الشارع ـ ولو من طرف خفي ـ تعطي مدلولا محزنا ، لا عن الادميين الذين يسكنونه فحسب بل عن العاصمة أيضا ٠ واذا استطاع الرجل الكريم أن يغفل النظر ، أو يغمض عينيه عن الركام وأكوام الفضلات والقاذورات والمياه الآسنة التي تغمر حفره الكثيرة ، فلا يمكنه أن يمنع أنفـه وحواسه الاخرى عن التعرف على طبيعة هذا الشارع ٠ ويكفي أن يكون الانسان متوسط السمع ويضع خطوته الاولى في بدايته ، ليعف عن المغامرة بطبلة أذنه ، ويعود أدراجه مؤثرا السلامة ، مستغنيا عن كل أعمـاله وأشـغاله التي عليه أن ينجزها في مكان ما من شارع العاصمة ٠ وهو اذا لم يصدق

أذنيه وقرر العبور فيه ، متجاهلا صراخ باعة السمك ، وطرق الحديد ، ولحامات الاوكسجين ، وزعيق النساء والاطفال ، عليه أن يشمر عن ساقيه ثم يحترس غاية الاحتراس على جيوبه ، وعلى هذا يضطر الانسان أن يظل مفتوح العينين ، والا وجد نفسه في لحظة من اللحظات قد أصبح عاريا من كل لباسه .

ومن سوء الحظ أني كنت أنا من سكان هذا الشارع ، أنام في فندق الامل وأتناول طعامي في مطعم الصحة . واني اذ أعترف الآن بأني أعاني من أمراض لا يحدها حصر ، واني فاقد آخر ذرة من الامل ، أقدم فكرة بسيطة جدا عن حقيقة المطعم الذي كنت زبونه والفندق الذي أنام فيه . ولكي أربط مصيري بمصيرهما برباط وثيق ، أو لاحدد صلتي بهما على الاصح ، علي أن أوضح أكثر فأقول بأني (رهينة) لدى صاحبيهما .

نعم (رهينة) . وهذه هي القصة . وهي بسيطة ومختصرة للغاية . ولكن ما هي الفائدة من اضاعة الوقت .؟ يكفي أن أقول بأن رفيقي الذي كان معي في هذا الفندق قد اختفى منذ أسبوع مدعيا انه ذهب ليحضر نقودا . وبقيت أنا (رهينة) حتى يعود ، وليس هناك أي أمل في عودته وذلك اذا قدر له وظل على قيد الحياة ، لانه على الارجح عاد الى العاصمة سيرا على قدميه .. وهناك سيعرف انه نجا بجلده ، فضلا عن أنه لن يجد من يشتريني بثمن مبيت سبعة أيام مع طعامها ، هذا الثمن الذي أعترف لصاحبي الفندق والمطعم بتقديره . لانهما احتفظا بي لقاءه . وان ما يعزيني بكل مصائبي ، هو معرفتي اني أصبحت انسانا ذا قيمة . ألست انسانا ذا قيمة .؟ من ينكر .؟ كما أن ثمني يرتفع اغفاءة بعد اغفاءة ،

ووجبة بعد وجبة ، كاي خروف أو حيوان أليف ، مع بعد الفارق واختلاف النتيجة ٠

فأنا يجب أن لا اسمن ولا أستريح لابقى محافظا على مستواي في بورصة الرهائن ٠ فالعامل في ارتفاع ثمني ليس زمنيا كاثر ، ولا صحيا أو جماليا كحيوان ، بل (نوميا طعاميا) اذا صح التعبير ٠ أي بمقدار ما يصرف علي ٠ وكان يجب أن تنقص قيمتي لا أن تزيد ، باعتبار انني أشيخ في كل لحظة عشرة أعوام ، وانني أضمحل شيئا فشيئا ، وازداد عرضة لصنوف الامراض من جراء تناول الطعام في مطعم (الصحة) ٠

ولكن ذلك لا يضر ، بل العكس يفيد ٠ فصاحب فندق الامل يحتفظ ببقية من أمل في أن أموت عنده وذلك في أفضل الظروف ٠ وعلى هذا فانه يحافظ علي ويعتني بي وأحيانا يكشر في وجهي ٠ وفي منتصف الليل يتلمس عظامي ليتأكد من وجودي ٠ كان أخشى ما يخشاه أن تقبض علي الشرطة ، وبهذا يخسر كل شيء ٠ أما اذا فطست فطسا طبيعيا فسيتمكن من بيع أشيائي ٠ انها لا تساوي كثيرا ، ولكنها تساوي شيئا على كل حال ٠٠ كما أن صاحب المطعم بدوره صار يعاملني كزبون لا شأن له ، كقطة مثلا ، بات لا يعبس في وجهي ، أو يستثقل ظلي ، وذلك بعد أن تأكد من أني لا يمكن حتى أن أصلح للعمل عنده بثمن طعامي ٠ وعلى هذا راح يقدم لي وجباتي من فضلات الزبائن ٠ اسمعه أحيانا يسأل عني صاحب الفندق ليطمئن (أين هو زبوننا الخردة ؟) فيشير صاحب الفندق بعينيه الى الاعلى ٠ كان يخشى أن ينفرد زميله بأشيائي كلها ويبقى هو خالي الوفاض ٠ من أجل ذلك كان دائما يتفحص قماش

قميصي ، ويلقي نظرة على حذائي الذي اشتريته قبل القيام بتلك الرحلة بحثا عن عمل ٠

أنا اذن هنا في مهمة٠ القصة بسيطة وطبيعية٠ طالبا عمل رحلا الى مدينة ساحلية ثم نفدت نقودهما دون أن يشتغلا ٠ القضية لا تستحق الاهتمام ٠ وهما في هذه البلدة لا يعرفان أحدا يستلفان منه حاجتهما ، وعلى هذا أصبح أحدهما رهينة ٠ قد يكونا قد اخطآ عندما صرفا الليرات العشر الاخيرة أجرة برقيات الى اهليهما (ارسلوا لنا نقودا ٠ نحن في مأزق ٠ نموت من الجوع ٠ قبض علينا ٠ الخ ٠٠) ولكن من قال ان اهل انسان ما من امثالنا يفكون مشنوقا بقرش واحد ٠؟ اذا لم يكونوا مستعدين للدفع في سبيل شنقنا أو اعتقالنا الى الابد ، ليتخلصوا من شرور لا حصر لها ٠ هكذا يظنون ٠٠ مع اننا شابان من أصحاب القيم العالية ، اننا أصحاب ضمير ٠٠ وجدانيان ٠٠ لا نسرق ٠ ولا نحتال٠٠ الحق انه خطر لنا ذلك ٠ هذا دليل على قيمنا العالية لاني أعترف ٠ قد يكون ما منعنا عن اقتراف الجريمة ، هو الجبن أو الضعف أو ضيق الحيلة ، ولكني لا أنكر بأن الدافع الاخلاقي كان له الاثر ٠٠ الاخير ٠٠

قال لنا موظف البرق والبريد محتدا : (قلت لم يأت جواب ٠ لم يأت ٠ العمى) ونقر رفيقي على جمجمته ٠ (وجدتها) ٠ وذهبنا الى البنك ٠٠ كيف وجدها لا أدري ٠ ولكنه وجدها على كل حال ٠٠ (ربما ارسلوا النقود الى البنك ٠٠) فندق الامل كان يزرع في نفوسنا الامل ٠ اقسم بالله ان هذا هو اسمه ٠ وعندما نزلنا فيه لم نكن فاقدي الامل ، حتى اني اؤكد اننا لم نعرف اسمه الا بعد ان قيدنا اسمينا وحجزنا غرفة ٠ علمنا ونحن نهبط الدرج لتناول الغداء أن

اسمه (فندق الامل) ، وذلك بأن رفعنا راسينا كي لا نضيعه ٠ وخطونا خطوة واحدة ثم دخلنا الى مطعم (مطعم الصحة) ٠ كنا على كل حال نريد أن نستمتع بأقل مصروف ٠ ألم نكن في طلب عمل ؟ ها أنا ذا في مهمة ٠٠ انني أموت في البطالة ٠ صاحب الفندق وصاحب المطعم مستعدان لبيعي لقاء احد عشرة ليرة فقط لا غير ٠ أما فكرة بيعي بالمزاد العلني ، فقد اضمحلت بعد أن بت لا أساوي شيئا ٠ ثيابي وحقيبتي وحدها هي ما أساويه ، نسيت شيئا ٠ (القبعة) اشترى كل منا قبعة قش ٠ ما تزال قبعتي جديدة ٠ لم استعملها ٠ فعندما وضعتها على رأسي لمحت وجهي في واجهة زجاج فارتعدت ٠ رفعتها فورا ، وهي ما تزال نظيفة ٠ يبدو أنني أهذي ٠ كنت في اليومين الماضيين أشكو من امعائي ، ولا بد أن المرض بدأ يرتفع حتى وصل الى الرأس ، مارا بالقلب منذ أكثر من ثلاثة أيام ٠ كان مرضنا المزمن سيكولوجيا ٠ على فكرة ٠ قالت لي أمي منذ شهر : (اعمل يا بني ٠ اعمل ٠ صرت رجلا ويجب عليك أن تتزوج كفى دراسة لا فائدة منها) كنت أخطىء دائما٠ وأخطأت تلك المرة ، فلم يتوفر لي عمل وهكذا لم أتزوج ٠ رأيت صباح اليوم امرأة شابة تنشر الغسيل على الشرفة ٠ كانت كما تبدو كمن قلعت ثوبها الوحيد لتغسله ، لذا بدت نصف عارية ٠ الثديان الناضجان كبطيختين ، الساقان البيضاوان كعمودي رخام ٠ يا الهي ما أشهاها ! على فكرة كنت شبعان ، وقد خف قليلا مغص أمعائي وتلبك معدتي ٠ وتلك المرأة التي كما يبدو خرجت من الحمام عارية على زعيق أحد الباعة ٠٠؟ ألم تكن شهية ٠٠؟ سيأتي الرجل بعد قليل ، آن أوان انصرافه ٠ فهو ما أن يتناول غداءه حتى يدفع زوجته

الشابة الى الغرفة . كان ستارها ممزقا يفضح ما يجري وراءه من مكاني في السطح .

بعد أن يئس صاحب فندق الامل من قبض نقوده ، دفعني الى السطح لانام على فراش اندلقت امعاؤه على الارض . كنت رهينة رخيصة ولن تضيع هناك .. على العكس ، لمسة سريعة من عزرائيل وينتهي كل شيء . سيدي عزرائيل . اعطني فرصة واحدة .. واحدة فقط .. انني ما زلت شابا .. أنظر الي جيدا .. لا تغرنك تغضنات وجهي ، وقتوم عيني ، ونحالة عظامي ، أطلب تذكرة نفوسي فأنا ما زلت في الحادية والعشرين ، أليست لديك دائرة نفوس ؟. نحن لدينا . أطلب منها بعض المعلومات التي تهمك . لا تريد .؟ اذن افعل ما تريد ، اليك روحي ..

وصحوت . كان صاحب المطعم يصرخ :

- أين زبونك الخردة .؟

- ...

لا شك في أن صاحب الفندق يشير بعينيه الى الاعلى . (لا تنسوا القبعة . انها معلقة . ما تزال معلقة في الغرفة التي سكنتها في اليوم الاول) .

وتصورت صاحب الفندق يعمل بأصابعه دائرة (أخنقه .. أخنقه ..) . ولكن عزرائيل أنهى زيارته ، ولن يعود الا غدا . وغدا يخلق الله ما يشاء . فأنا أنام في فندق الامل . يا أمل .!

كان قد تقدم رفيقي من أحد موظفي البنك .

ـ ألم تأت حوالة بريدية بأسمي ؟٠

كان الموظف مشغولا بحوالات مادية حقيقية ، لذا لم يجب ٠٠ ومن وراء قضبان نحاسية ، كان محاسب الصندوق يحسب ٠ واحد ٠٠ اثنان ٠٠ ثلاثة ٠٠ أربعة ٠٠ آلاف ٠٠ (نحن لا نريد آلافا بل وحدات) أحسست بأصابع فولاذية تضغط على ساعدي ٠ والتفت الى رفيقي :

(اسمع ٠٠) ووضعنا خطة لا أقول جهنمية ، بل حكيمة للحصول على بعض الاوراق ٠

(ان الدنيا على فوضويتها وبلبلتها منظمة أدق تنظيم ٠ ففي العالم تطبع أوراق النقد بجميع الاشكال والالوان ، وتقذف الى جميع الانحاء بصورة ألا تقع أي ورقة منها في جيوبنا ، أليس في ذلك تنظيم دقيق ٠٠ ؟ ٠)

وضعنا خطة كاملة وشجاعة ٠ ولكن عرفنا أخيرا أنه ينقصنا المسدسات ٠ أين أنت يا (والاس بيري ٠ ؟ ٠) وخرجنا من باب البنك ونحن نحصي الخطوات والدرجات ٠ مسدس واحد يكفي ٠ ننهي القضية دون ضجة ٠ لا يوجد جرس انذار ٠ الزبائن قلة ٠ يبدو على محاسب الصندوق أنه رعديد ٠ مسدس من الخشب على الاقل ٠٠ أيها النجار اصنع لنا مسدسا من الخشب ، ادهنه باللون الاسود ٠٠ حسنا ارفع يديك ٠٠

يا الهي !٠ ان يدي تؤلماني٠ يبدو أنني أستنفذ قوتي قطرة قطرة ٠٠ (ما أعجب هذه الحياة !٠ ان الانسان لا يدري ماذا يجب عليه أن يصنع بها ٠٠ وذلك اذا فتح عينيه وأحس أنه يعيشها حقيقة ٠ فهي تنصرم قبل أن ينتهي من التفكير فيما

ينبغي ليعيش يوما آخر · ومن الغريب أن تكون هذه الحيـاة على تقدمها واتساعها وبهرجتها تجعل الانسان أسوأ مما كان في زمن ما قبل التاريخ · ولا شك في أن مخلوق ما قبل التاريخ كان أسعد حالا ، وأكثر توفيقا في تذليل عقباته · كان رجل ما قبل التاريخ اذا أحس بالجوع خرج الى أحضان الطبيعة حتى يلتقي بالوحش ، فيقتله · وفي كثير من الاحيان يحدث العكس · يقتل الوحش الرجل ، وعلى كل حال كان يجد المخلوق ما يأكله دون أن يعاني من أمراض العصر الحاضر · عسر الهضم والحموضة ، وتلبك المعدة وتطبل البطن ومغص الامعاء ·· الخ ··)

وعندما كان رجل ما قبل التاريخ يشـعر بالحاجـة الى امرأة ، يومىء لها بيده فتسرع اليـه بلا فلسـفة أو ارهـاق بالمغازلة ، أو وضع الطهارة في كفة الميزان · ودونما تفكير فيما سيحدث لها بعد تسعة شهور · المهم أن مخلوق ما قبل التاريخ كان سعيدا خالي البال ، فهو يرضي حاجاته كلهـا بأبسـط الوسائل · كان يملأ بطنه ، يرضي غرائزه ، ثم يتمطى ببـاب مغارته ، دون أن يحسب حسابا لاجرة البيت أو ثمن النـور والكهرباء ، ودون أن يقلق للمستقبل · لقد مضى ذلك الزمن السعيد ، ولن يعود ، لطالما قد اخترعت وسائل المدنية و ··) لا أدري أين قرأت هذا الهراء ؟· المهم :

ها هو ذا صوت من الاسـفل ينـاديني ·· اني أسـمع اسمي جليا واضحا · صاحب الفندق ؟· يا الهي · انه يردف اسمي بكلمة (أفندي) أفندي ؟· يا للسعادة !· ماذا حدث ؟· ولكن لم الانتظار ألست نزيلا في فندق الامل ؟· ساعدني يا رب على هبوط هـذا الدرج · اني أحس بدوار حـاد يلف رأسي وكهرباء ترعد ركبتي · لم أنهض من فراشي منـذ الامس ·

ليست لدي القوة · أنا مريض · مريض · و · أسندني الرجل قبل أن أسقط · كان وجهه غريبا ·· كان متفائلا فهو يبتسم · قال في استعجال :

ـ لك رسالة مسجلة · فورا الى البريد ·· الى البريد ··

أين الدوار ؟ أين الكهرباء ؟· لا ·· لست مريضا ·· وصلت الى دائرة البريد في شارع يبعد عن الفندق أكثر من ربع ساعة ، وصلت اليها بسنة من اللهفة ولكن بخمس دقائق ··

فندق الامل · السيد ·

انه لي ·· لي ·· لعنه الله على هذا المظروف كم هو قاس، انه يأبى أن يشق · أصابعي ترتعش · قلبي يخفق في عنف · عاد الدوار والكهرباء · وفتح المظروف وسقطت منه ثلاث صفحات مليئة بالكلمات ·

(صديقي العزيز ··) ·

ولكن أين الحوالة ·؟

(كم أنا بشوق اليك) ··

تبا لك ولاشواقك ·· أين النقود ·؟

(لو تعلم كيف وصلت الى دمشق ·!) ·

ان ذلك لا يهمني أيها الخائن ·· انني رهينة ·· رهينة ··

(كان ذلك مغامرة طريفة سأسردها عليك ··) ·

آه ·· يا رب !· ماذا أفعل بنفسي ؟·

(وفي صافينا التقيت ب ٠٠

انه يتكلم عن كل شيء ما عدا المشكلة التي أعانيها ٠٠

(وبت في حمص عند صديقنا ٠٠)

ليته لم يفق ٠ لقد نام واستيقظ و ٠٠ (سردت قصتنا الى زميلنا محمد فضحك كثيرا) ٠٠ ضحكة عنز في المسلخ ٠٠ اضحكوا ما شئتم ، فوداعا ٠٠ اذن ٠٠ وخطر لي خاطر عجيب :

لماذا لا أهرب وأختفي ؟٠ سأفعل ذلك ٠٠ ها أنا ذا أعدو ٠٠ وأعدو ٠٠ سأختفي واختفيت نهائيا ٠

أليس ذلك رائعا ؟٠ لقد تخلصت ، لم أبق رهينة ٠ أنا الآن في المستشفى ٠ صحوت هنا على سرير ٠ قيل لي في الامس أني نقلت من دائرة البريد فاقد الوعي ٠ وداعا يا شـــارع العاصمة ٠٠ سأزورك يوما ما ٠ لن أنساك ٠٠ تحياتي الى فندق (الامل) ٠٠ تعالي أيتها الممرضـــة الحســناء أعطني يدك ٠ سأسمع نصيحة أمي وأعمل ٠ ل ٠٠ أتزوجك ٠٠ أعيدي علي قراءة تلك الحاشية في الرسالة فلم تقع عليها عيناي من قبل ٠

(صديقي العزيز ٠ كن مطمئنا إني أعمل على تدبير بعض النقود في غضون اليومين القادمين لافك أسارك ٠٠)

المرتفع الصغير

كانوا ثلاثة يتسكعون على الرصيف الايمن في شارع بغداد .. والمطر يتساقط من السماء رذاذا . وأشجار الكينا والصفصاف على الجانبين تنحني أوراقهما ببطء ثم تسقط دموعا كبيرة .. وكأنها تندب بصمت . ومن خلال سجف النوافذ المعلقة ، كانت تنفذ الى بلاط الشارع أنوار باهتة حزينة .. ومن بعيد كانت المصابيح المعلقة وسط الشارع تتلاحق بطيئة مترادفة وكأنما هي تسير في جنازة . والمطر ما برح يتساقط واهنا كهمس الاسرار ..

لم يكن هناك برد قارس ، غير أن الشارع كان مقفرا . وهؤلاء الشبان الثلاثة كانوا يسيرون الهوينا صامتين . وزحف أقدامهم وحده كان يوشوش الصمت بلهجة غريبة . منذ عشر دقائق كانوا قد تناولوا شيئا من عرق أبي دياب الخمار ثم خرجوا الى رصيف الليل ليتشردوا .. ولم يكونوا مشردين بالمعنى المفهوم ، غير أن أفكارهم كانت تقودهم دائما الى تجريب كل شيء .. وكان واقعهم المعين يحبب اليهم أن يأتلفوا

ويعيشوا وفق ما تسمح به حريتهم المكبوتة ، ولم يكونوا من بلدة واحدة ، بل كانوا من مدن وقرى مختلفة ، الا أن رابطا قويا جمعهم معا · وألف منهم كتلة واحدة ·· وكانوا تقريبا يفكرون برأس واحد ·· غير أنهم يبدون آراء مختلفة ، ولكنها تؤدي الى نتيجة واحدة ، وهي أنه يوجد انسان فوق هذه الارض يعيش عيشة تفرضه عليه قوة غاشمة ، عليه أن ينتصر عليها · أما الرابطة التي جمعتهم معا فهي : أنهم قدموا الى هذه المدينة وسكنوا فيها ليعملوا نهارا ، ويدرسوا ليلا · ويسيروا في أغلب الاحايين متسكعين في الشوارع المقفرة ، بعد أن يبتلعوا سوائل بيضاء لاذعة الطعم في حانة أبي دياب المتواضعة ··

وقال أحدهم وكان أصغرهم سنا وأطولهم قامة ، له شعر كثيف وعينان سوداوان كبيرتان :

– لربما يوجد في مكان ما من هذا العالم وفي هذه اللحظة بالذات أشخاص مثلنا يتسكعون في الشوارع أو السهول أو على الشطآن ·· وهم يبحثون عن شيء ·

فأجابه الثاني وكان قزما في حوالي الثلاثين من عمره ، كث الشاربين ، قصير الرقبة ، مستطيل الجسد ، يبدو من الخلف ككيس حنطة زمت فوهته بخيط مصيص :

– وعلى كل حال ان من يعيش في هذه الدنيا يجب عيه أن يظل يبحث عن الاشياء ··

وقال الثالث ، وكان يرتدي معطفا سميكا ، حجب الظلام أجزاءه البالية :

– أما أنا في الحقيقة فلا أدري عماذا أبحث ··

وظل الثلاثة سائرين ·· ومر باص مسرع ثم توقف على بعد عشرة أمتار حيث سقطت منه فتاة راحت تتلفت حولها في حيرة وتوجس · قبل أن تختفي في حارة ضيقة ··

قال الشاب الصغير :

ـ لو كنت وحيدا لتبعتها ·· يبدو أنها رشيقة القامة ··

فأجاب القزم :

ـ سوف لن تنال منها شيئا على أية حال ·· لقد ارتكبت أنا نفسي هذه الحماقة في احدى المرات فاصطدمت بوجه مخيف ·· ان الفتيات الجميلات لا يخرجن في الليل وحيدات ، وهن ان اضطررن للخروج يهيئن على الدوام صرخة حادة يطلقنها عند اللزوم ··

ـ والتفت الثالث فجأة وهتف :

ـ يبدو أننا وصلنا الى المقابر ·

وأجاب الصغير :

ـ نعم هذه مقبرة الدحداح ·· وهنا يسكن عمي ·· وبهذه المناسبة هل جربتم أن تسيروا في الليل وسط القبور ؟· ان هنا عالما خاصا يجدر بنا أن نعيش فيه قليلا ونحن أحياء على الاقل ·· اذ لا بد لنا من أن نسكن هنا في يوم من الايام ·· الناس جميعا أصحاب البنايات والمتشردون على حد سواء ·· ان في هذه المدينة كثيرا من البشر يبحثون عن أوكار يلجؤون اليها ·· أما عندما يموتون فتنتهي مشكلتهم وسيجدون بيوتا في سهولة فائقة ··

– وسينتقلون اليها مجانا ..

– وذلك اذا علم بهم أحد وهم يموتون ..

واجتازوا بابا حديديا ضيقا وشرعوا يخوضون بين القبور ..

– يقولون أن في باريس مقبرة خاصة للعظماء يسمونها (البانتيون) .

– وفي هوليود مقبرة للكلاب .. قصورها من رخام ..

كان المطر ما يزال يتساقط رذاذا ، تستقر حباته على الرؤوس العارية فتترك عليها آثارا ماسية . أما على القبور الرطبة فلا تحدث أثرا على الاطلاق .. ولم يكن الظلام حالكا تماما ، ولعل قمرا صغيرا كان يسبح فوق الغيوم الباهتة ، يهرب خيوطه الرفيعة من خلالها ، فينفذ الى الارض بصعوبة .

الا أن الشواهد المنتصبة كانت ترى بشكل واضح ..

وفيما كانت أقدام الجماعة تجتاز كثيرا من الحفر اللزجة، وجدوا أنفسهم يتوقفون أمام حائط واطئ تكاثفت وراءه القبور على صورة غريبة ، وكأن أصحابها ينتظرون فرصة مناسبة ليشقوا طريقهم الى الهرب من هذا العالم الكئيب الصامت .. وهنا أشار الشاب الصغير الى مرتفع صغير قائلا :

– هنا يسكن عمي .. انه هنا مجهول أيضا كما كان في عالم الاحياء .. لا قبر محترم ولا شاهدة حتى ولا ما يدل على موته .. كل شيء متواضع .. وهو على كل حال لم يكن يحب الاحتفالات ..

وصمت الشاب وقد تهدج صوته بشكل ملحوظ ناسعفه القزم مواسيا :

ـ وفي الحقيقة ماذا يهم الميت اذا وضع فوقه جبل من تراب أو انتصبت على رأسه أعمدة من رخام ؟ غير أنه لمما يحزن حقا أن يبقى الفقراء فقراء حتى القيامة ..

واستعاد الشاب الطويل رباطة جأشه ثم استطرد :

ـ من يظن بأن هذه الكومة من الطين تضم تحتها عظام رجل ملأ الدنيا بأعمال يديه ، وأشبع أرضها بعرق جبينه ؟ ولكنه هكذا كان دئما .. ان قبره يدل عليه .. رجلا متواضعا بسيطا للغاية .. وعندما مات خرجت وراء جنازته وحدي مع حملة النعش .. ولم يسر أمامه عرق أخضر .. مات دون أن يحدث ضجة .. ولم يعلم بموته أحد ..

وعاد صوت الشاب الى التهدج فأسعفه الزميل الثالث :

ـ من الطبيعي أنه لم تذكر تأبينه الصحف .. ولم تردد نعيه الاذاعات ..

ـ نعم وجنازته في الطريق لم تحدث أي اضطراب .. اللهم غير جندي لا أعرفه وقف أمام نعشه وقفة عسكرية ثم أدى له تحية تنضح بالجلال ..

وقال الشاب القصير وقد برقت عيناه فجأة في حدة وغضب :

ـ انه من أولئك الناس الكثيرين الذين دخلوا هذه الدنيا مصادفة .. ثم خرجوا منها في خطة مرسومة .. دون أن يتركوا أثرا يملأ النفوس .. أما اذا أحصيت أعمالهم على الارض ..

ولم يكمل الشاب جملته فقد صر على أسنانه.. ثم صمت .. ورد الشاب ذو المعطف البالي :

- ولكن ماذا يجدي ذلك .. ومن سوء حظه أنه توفي قبل أن يصدر قانون الاموات ..

- من المؤسف أن تصدر قوانين الاموات قبل أن يستوفي الاحياء حقوقهم ..

- صحيح .. ويبدو أنه لم يركب السيارة في حياته .. وقدر له في النهاية أن يحمل الى قبره على الاكتاف ..
ورد ابن أخ الميت :

- وعلى كل حال كان يفضل أن يذهب الى قبره ماشيا على قدميه لو استطاع ذلك .. وفي الحقيقة ماذا يهم الميت ان رحل الى قبره ماشيا أو في طائرة أو على عجلات مدفع ؟. المهم هو النهاية .. هو العيش مع الديدان ..

كان يمكن لو كان غنيا أن يوضع على رأسه شاهدة رخامية عالية ويحفر عليها بالخط الرقعي :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا حي يا قيوم .. هنا يرقد رقدته الابدية المأسوف على شبابه وأعماله الصالحة فلان .. الخ ..

وسيزوره الكثيرون ..

وقال ذو المعطف وكان يتمتع باسلوب ساخر :

- وعلى كل حال ان احدا مهما سمت منزلته لا يستطيع أن يقدم له في وحشته هدية نافعة .. ان من يزورون الاموات

عادة ٠٠ لا يفعلون ذلك الا ليسلوا أنفسهم وكثيرا ما يقومون بذلك من قبيل الشماتة ليس الا ٠٠

ولاحظ القزم بأن زميله اليتيم يكتم نوعا من الانفعال ٠٠ فأمسك به من ساعده والتصق به قائلا :

ـ لا فائدة من العويل ٠٠ انه كما قال ٠٠ فبكاؤنا لا يجديه نفعا ٠٠ كما أنه يجدر بك أن تضع على قبره علامة معينة ٠٠ كيلا تضيع أثره في زياراتنا القادمة ٠٠

وعاد ذو المعطف الى دعاباته ٠

ـ ان رأيي أن يبقى على حاله ٠ فأصحاب القبور المدروسة سوف لا يجدون صعوبة يوم القيامة عندما ينبتون من أجداثهم كالسنابل ٠٠ وأنا أرجح ألا توضع فوق ظهور الاموات أحمال ثقيلة ٠٠ اللهم الا اذا كانوا رياضيين ٠٠

ورد القزم وقد خشي أن تفلت منه ضحكة نابية :

ـ يجدر بنا أن نذهب ٠

واعترض ابن أخ الميت قائلا :

مهلا سأحدثكم عنه قليلا ٠٠ وستعجبون اذا عرفتم أنه كان رجلا مدهشا ٠٠

وبدأت حبات المطر تكبر وتثقل أثر هبة نسمة دافئة ٠٠ وأخذت شواهد القبور تصطك تحت تأثير طرقات المطر الخرساء ٠٠ وتابع الشاب حديثه عن عمه :

ـ لقد حدث في تلك السنة جدب ماحق ، فلم تمطر

السماء قطرة واحدة ‥ ولم يحصد أهل قريتنا حبة شعير ‥ من أجل هذا هاجروا تاركين أراضيهم وتشردوا في المدن ٠

ـ حتى السماء هكذا ‥ انها تحبس الغيث عن الناس فتجعلهم يموتون من الجوع ٠ ثم تسكب عليهم فجأة حساب السنين السوابق دفعة واحدة فيموتون بالفيضان ٠

ـ لان ميخائيل أيضا موظف شديد الاهمال ٠

ـ وعندما رحل عمي الى المدينة كنت أنا بجسدي العاري متاعه الوحيد ‥ وأذكر كلمة قالها لي أثناء سيرنا الطويل عندما أدرك التعب قدمي فتأوهت (ان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب) وبذلك استطاع في المدينة أن يجد مأوى لي وله ‥ وعندما ذهب بي الى المحكمة ليدافع عن نفسه سأله القاضي :

ـ بماذا تجيب على ادعاء هذا الرجل الذي احتللت كوخه ؟٠

فابتلع عمي ريقه بصعوبة ثم صاح كمحام قدير :

ـ يا سيدي المحترم ‥ (قال المحترم بلهجة بليغة) ‥ انني وهذا الطفل لا نستطيع أن ننام أكثر من شهر على رصيف الشارع ‥ وأنا لست متشردا أو شحادا كما يخيل لكم ‥ بل أنا فلاح وعلى استعداد لان أكسب رغيفي بالحلال والشرف ‥ أنا مستعد أن أشتغل عاملا طوال الليل والنهار ‥

ولست أدري ماذا حدث بعد ذلك ‥ فلم يكن الكوخ مكانا بالمعنى الذي يدل عليه ، بل كان شيئا شبيها بخرابة مهجورة ترتع فيها الحشرات والزواحف ‥ صنع لها عمي

جدرانا من الطين وظهرا من القش وبابا من القصب ٠٠ وعندما أتم عمله ذاك وجدته يربت على كتفي قائلا في تحبب :

ـ أما قلت لك ؟ ان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب ٠٠

وأنا أعترف الآن بأنني كنت حملا ٠٠ لان صاحب الخرابة استغل وفاة عمي فطردني من الخرابة بعد أن أصبحت صالحة لسكنى الدجاج ٠٠

كانت السماء تزدحم بالغيوم المتحشدة ٠٠ وكأنها تهييء نفسها للاطباق على الارض ٠٠ وبين لحظة وأخرى كانت تنفطر عن شق ساطع تبدو خلاله الشواهد وكأنها تتطاول لترى ما يجري هناك عند قبر لا شاهدة له ٠٠ ويهدر في الفضاء رعد مدو فترفرف الشواهد أجفانها من الرعب ، في حين ظل الشبان الثلاثة يقفون أمام المرتفع الصغير الذي لم يكن ليأبه لشيء ٠٠ وتابع الشاب حديثه :

ـ وكان عمي رفيقا بي للغاية الا أنه كان يقسو علي في بعض الاحيان ، ولا غرابة في ذلك ٠٠ كان يريد أن يصنع مني رجلا ٠٠ فقد أفسح لي مكانا في مدرسة قريبة ، وراح يعمل ليلا ونهارا ليقدم لي الطعام والملابس ٠٠ وعندما سألته مرة :

ـ من أين تأتي بكل هذا يا عمي ؟٠

نظر الي في صرامة وفتح في وجهي كفين متورمين ٠ بصق فيهما ثم راح يفركهما بقوة وهو يغمم :

ـ الرفش والمعول يا ابن أخوي :٠٠ الرفش والمعول والساعد هذه هي التي تؤمن العيش ٠٠

كان لا ينقطع عن جلب الخبز والادام الا في يوم عطلته ٠٠

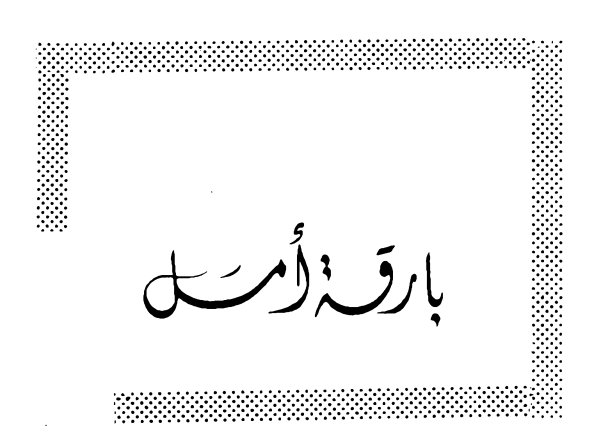
وكنت أحسده عليها في أكثر الاحيان ·· جاهلا بأن تلك الايام كانت تسبب له حسرة لا يمكن أن توصف ·· وكنت أعجب : لماذا لا يفرح بالعطلة كما يفرح بها طلاب المدارس ·؟

وتنهد الشاب وهو يردف :

- والآن ماذا بقي له ؟ انه في عطلة أبدية ·· لم يبق لديه ما يحزنه ·· وأرجو أن يكون هنا تحت مرتفعه الصغير ينام في راحة ·· أخشى أن يكون مكانه ضيقا فلا يتيح له مد ساقيه الى نهايتيهما ·· .

وسكت الشاب ·· وأخذ سيل المطر ينهمر بقوة هائلة·· خيوطا طويلة قاسية كالفولاذ تصل ما بين السماء والارض ·· تقرع الشواهد والقبور قرعا شديدا متواصلا وكأنها تشن عليها بداية الهجوم ·· وانسابت الجداول الصغيرة بين الرموس العالية والمنخفضة على السواء ·· محدثة بينها فواصل عميقة ·· (لربما يحزن الموتى الآن ·· ان حدثا مجهولا يفرق بين لحودهم ··)

وعلى المرتفع الصغير كانت تتكاثف القطرات متلاحقة متتابعة كأنما هي مخلب نسور جارحة تنخب في جسد فريسة ·· وراحت ذرات التراب تتلاشى عن المرتفع الصغير شيئا فشيئا ·


بارقة أمل

استيقظ في الفجر ، في الساعة الخامسة من الفجر · ولم تكن افاقته من النوم ، بل من أحلام اليقظة ·· فهو لم ينم ·· ظل يتقلب على أضـــلاعه طول الليل وهو يفرض جميــــع الاحتمالات ·· أخذ منذ انصرافه من عمله ظهيرة الامس ، ثـم عودته في المساء - يعالج موضوعا واحدا معينا ، ويجند كـل امكانياته الحسية والباطنية في خدمة هذا الموضوع ·

وانسل من جانب زوجته في هدوء ، كما يفعل الهر عندما يتمطى ، واجتاز الحيز الضيق ما بين سريره وسرير أطفاله ، ليذهب الى النافــذة الواطئة ، ويرفع عنها الستار ، وراح في غبش الفجر الاصفر يستعجل ارتفاع الصباح · ولم يشأ أن يضيء النور ، لانه وجد في ذلك دلالة - ولو من طرف خفي - على طول مدة الانتظار · وبـدأ ولاول مـرة في حياته ، يهتم بأشياء لم يكن ليحسب لها وجودا في يوم من الايام · وكـانت عقارب الساعة من أبرز هذه الاشياء · كان يقترب كل فترة من ساعة المنبه الموضوعة فوق رأسه ، ويستجلي دقائق حركتها

البطيئه · ثم يعود ويقارنها بساعة يده : دقيقة ·· نصف دقيقه ·· لا يهم ·· فما تزال هناك ساعات طويلة ·· أربع ساعات ·· وعلى الرغم من أنه لاحظ بعد مدة بأن ميناء ساعته قد شحب من فرط القدم، وان زجاجها تأكل من الداخل· الا أن ما ظل يشغله هو حركة الآلة بالمجموع لا بالتفاصيل · كان يهمز الوقت ، ويلهب ظهره بحسيس أعصابه ، وكأنه يعالج حصانا حرونا يأبى أن يتقدم خطوة واحدة · وكان يعجب عقب كل فترة : ألم تمض غير هذه المدة القصيرة ؟··

وأحس وهو يقف وراء النافذة بأن زوجته تفتح عينيها · وهذه بادرة غريبة أذهلته كثيرا · أصبح في الآونة الاخيرة مفرطا في الحساسية ، خاصة وانه أعطى لخياله الحرية الكاملة ، بعد أن امتطى صهوته وأرخى له العنان · واستدار الى الخلف ، وهمس في تحبب بدا طبيعيا جدا :

ــ صباح الخير ··

وضحكت الزوجة في سرها (لم يعتد لسانه أن يزلق بكلمة خيرة منذ زمن بعيد ··) وبما أنها كانت تعرف سر هذا التحول الطارىء ، فقد غمغمت في تردد :

ــ صباح الخيرات ··

ثم أضافت بلهجة متبدلة :

ــ ولكن يا محمود ما يزال الوقت مبكرا جدا ··

وعجب الرجل من أن زوجته لا تشاركه تلهفه المشبوب، ولا تعير القضية اهتماما لائقا · وخاطب نفسه : (وماذا يهمهما الامر أصلا ؟ ·· فهي لا تتعب بالنقود ·· ولا تدرك قيمتها

الا بالقدر الذي تأتي به من مشتريات ·· ان قيمة الليرة عندها هي ما تساويه من أدوات زينة لا مـا تساويه من جهـد ··) وشعر بأنه يظلمها ، ولكنه رد في جفاء ، أسفا على أنه بذلك يعكر صفاء خواطره الدائئة :

ـ كم الساعة قال لك ؟·

وتفاجأ الزوجة بهذا السؤال ، وترد بلهجة بدت للرجل انها نابية تجرح العاطفة :

ـ ألم أقل لك في التاسعة ··؟ قال في الساعة التاسعة·· كم مرة سالتني ··؟

وصمت الزوج · لقد أدرك أنه في حالة غير طبيعية · وانه أصبح قليل التماسك ، صارت أهون الاشـياء وأبسطها تخدش عواطفه · ولكنه لم يعذر زوجته ، بل ظل يلومها في سره · ولم يشأ أن يترك الافكار السامة تعتدي على خواطره العزيزة ، التي حضنها في رأسه وراح يقلبها بأناة وحذر ، كما تفعل الدجاجة الحاضن ببيضها قبل أن ينشق عن صيصان ملونة تنط وتزقزق · وعندما وقف أمام المرآة ليرتدي ملابسه لم ينظر الى وجهه أو الى هيئته · كانت عيناه تبحثان عن شيء آخر · كان عادة يعجب بترتيب شعره الخرنوبي اللون· ويعتني بصورة خاصة بتمشيط جوانبه على شكل معين ·· ولـكن في هذه المرة ـ وبرغم الفسحة الكبيرة في الوقت ـ لم يلتفت الى شـيء ·· كان يتأمل أفكاره ·· مـا وراء أفكاره ·· ولربما تحقيق أمانيه · وكـان هـذا التأمل يبعث الى قلبه اطمئنانا واضحا مضمونا مؤكدا لا شائبة فيه · كان يخاطب نفسه :

(مـن يدري ؟·· ان الاقـدار التي تخلق المشـاكل في

بساطة تستطيع أن تحلها على الطريقة نفسها ٠٠ أنا لم أخطىء ٠٠ ولكن الظروف هي التي صيرتني الى هذه الحال ٠٠)

أصبح يؤمن بالقدر ٠ ولم يكن يكفر به ، بل لم يكن له شأن في اعتباره ٠ كان كل منهما يسير في طريقه دون الحاجة الى مساعدة الآخر ٠ منذ الامس فقط بدأ يفكر على مستوى جديد ، ولكن ليس غريبا على الاطلاق ٠ كان محمود انسانا واقعيا الى أبعد الحدود ، وكان لطبيعة نشأته تأثير كبير على اتخاذه هذا الاسلوب من أساليب الحياة ٠ كان أبوه رجلا عمليا ، اذا داس أحد أبنائه على رغيف لا ينفعل أو يثور أو يتوجه الى السماء ، بل يقول بحكمة وروية :

– من غير اللائق أن يدوس الانسان على طعام يوضع في الفم ٠٠

أما القضايا الغيبية الاخرى فلم تأخذ لها طريقا الى رأس الشاب لانه ظل بمعزل عنها حتى الامس ٠ وهو عندما وضع القدر في اعتباره ، لم يفعل ذلك بدافع العقل بل بدافع العاطفة ٠ وجد نفسه يحاصر من كل الانحاء ثم يهاجم على حين غرة ، وبصورة لم يجد فيها مناصا من اتخاذ هذا السبيل ٠ الفى أن الظرف المعيشي الذي بات عليه يحتم عليه أن يلتجىء الى هذا النوع من الحلول ، وذلك من باب التجربة لا من باب اليقين ٠ كمن أصبح يفكر بامكانية صيد العصفور بيده بعد أن فقد الوسائل الاخرى ٠٠

كان محمود خدام الجامع – في حوالي الاربعين من عمره ، قصير القامة نحيل العود ، وهذه الصفة الاخيرة لم يكتسبها بالوراثة ، ولم تستطع مهنته المكتبية أن تحني من ظهره ولكنها

أخذت من عينيه • وفكر في يوم ما أن يستعمل نظارتين طبيتين،
الا أن هذه الفكرة لم تنفذ على الفور ، لاسباب مادية بحتة •
وظل يتناولها التأجيل حتى خمدت نهائيا • اذ اعتاد الرجل
على تكييف أعماله وفق مقدرته على النظر ، مستعينا بذاكرته
وحواس أخرى على تصريف شؤونه ، ومن سوء الحظ أن عينيه
كانتا رأسماله الوحيد •

وبالرغم من أن الرجل لم يصل الى الذروة ـ أية ذروة
كانت ـ الا أنه هبط تدريجيا ، حتى وجد نفسه في هذه الحال•
وقد بدأ هبوطه منذ خمس سنوات بعد أن تزوج بعدة أشهر •
ومن الغريب أن الرجل الذي كان يفني شبابه في احصاء المال
وتدقيق الحسابات كمستخدم ثانوي في مكتب معاون المحاسب،
كانت تنقصه القدرة على الموازنـة بين مورده ومصـاريفه •
وهكذا بدأ ينحدر في تمهل حتى وجد نفسه في درك أسفل • لم
تكن امرأته مسرافا ، ولم يحمله أولاده الثلاثة طاقة كبيرة ،
الا أن الامور أخذت ـ من ذلك الحين ـ تسير على نحو معين لا
دخل لاحد في التأثير عليها • وبصـورة جعلت دفـاتر البقال
والخضري واللحام تحمل رصيدا مدورا من شهر الى شهر ،
حتى أصبح تسديده يحتاج الى معونة القدر ••

وكانت لحظة من لحظـات السـاعة الواحدة من ظهيرة
الامس ، هي البارقة التي جعلته يبدل خط سيره • كان يجلس
الى المائدة يتناول طعام الغداء ، وكانت زوجته الى جانبه تثرثر
بكلام متقطع لا معنى له :

(الحليب المجفف لا يشـبع الطفـل ، انه يبكي طول
النهار ••)

وكان هو يفكر : (اذا نقلني مدير الشركة الى قسـم

الدعاية ، استطيع أن أوفر وقتا طويلا يتيح لي عملا آخر) .

وتقول الزوجة : (الجيران يرمون علينا قشر البرتقال والخس) .

ويفكر الزوج : (شـركة المناسج بحاجة الى مستخدم ليلي) .

وتتابع المرأة (بائع المازوت لـم يمر هذا اليوم وبيتنا رطب لا يرى الشمس) .

وينتقل الرجل بأفكـاره الى رئيسه ولومـه المتكرر : (تأخرت اليوم أيضا في تسيير معاملة صيدلية الشفاء) .

وتعود الزوجة بعد صمت الى الحديث عن برنامج المرأة المـذاع في الصباح : (يجب دلـك البشـرة بمحلول نسيت اسمه .) ..

ويكون محمود غارقا في حساب وهمي عن الادوية التي وردها الى الدكتور ابراهيم الاشقر .

وتبتلع الزوجة لقمتها بشراهة وتردف : (وجاء اليوم ساعي البريد وقال ان لك رسالة مضمونة) .

ويبحث الزوج في صحنه عن قطعة ثانية من اللحم ويتساءل (ترى هل أتمكن من أن أجد الغلط في حسابات هذا الصباح ؟ ان معاون المحاسب يغلط وعلي أن أجد أغلاطه ..)

وتستـطرد الزوجـة : (وقـد رفض أن يسلمني الرسالة ..)

ويعود الرجل الى حساباته : (هناك نقص بمقدار ١١٠٣

ليرات ، فاذا كان الغلط بحساب خانة الالوف والمئات فما هي قصة الثلاث ٠٠ ؟)

وتستأنف الزوجة : (قال يجب أن تستلمها بيدك ٠٠ ألا تسمع ٠٠ ؟ ويصرخ الرجل في شراسة (ما هي ؟) وترفع المرأة رأسها مجفلة وترد :

ـ الرسالة ٠٠

ويزوي الرجل ما بين عينيه ويتمتم :

ـ رسالة ٠٠؟ اية رسالة ٠٠؟

وتجيب المرأة في غيظ وسخرية :

ـ الرسالة التي أحدثك عنها ٠٠ أين عقلك ٠؟

ويتيه الرجـل في دوامـــة من الخواطر في حين تمضي المرأة قائلة :

ـ قال يجب عليك أن تذهب غدا في الساعة التاسعة الى دائرة البريد لاستلامها بيدك ٠

و ٠٠ تتبدد أفكار الرجل ، كما لو أنهـا غيوم واطئة عصفت بها ريح مجنونة ٠ وينفطر في داخله شيء أشبه ما يكون بانبثاق النور في عيني الضرير ٠ وتلوح له البارقة ٠٠ بارقة الامل : (٠٠ رسالة ٠٠ ومضمونة ٠٠ ورفض تسليمها لي شخصيا ٠٠ ما معنى هذا ٠٠ ؟) وراحت خطوط وجهة تتقارب وتتباعد ، تتقلص وتتمدد ، وفي كل لحظة كانت ملامحه تتخذ شكلا من الاشكال ٠ وكان حاجباه يطاوعان مجريات أفكاره بسهولة ، فراحا يهتزان بلا انقطاع ، يتشابكان تارة وينفصلان

تارة أخرى . ومن تحتهما كانت عيناه لا تستقران على حال . ولم تواكب نظرة الزوجة حالة زوجها ، بل تركته في هواجسه ونهضت تلم الصحاف مسترسلة في حديثها :

ـ سأذهب هذا المساء لمشاهدة التلفزيون عند جيراننا .. كـان يجب عليك أن تقدم طلبا .. كل الناس صـار عندهم تلفزيون الا نحن ..

ويغيب شبحها ، أمـا صـوتها فيظل مهيمنا على كـل شيء ..

لم يخطر له في يوم من الايام أن ينتظر ساعي البريد . ولم يكن ليراوده أي أمل في أن تأتيه أخبار ما تحمل له النبأ العظيم . وراح في حذر وعبوس يستعرض معارفه وأصدقاءه وكـل من يمت لـه بصلة من الصـلات : (ممن يا ترى ..؟ والـدي مـات دون أن يخلف شـيئا .. وأنـا أدرى الناس بذلك .. وأخوتي اثنان موظفا حكومة ، مرتبة تاسعة درجة ثانية .. وأنا أراهما كـل يـوم تقريبـا .. وأختي الوحيدة تزوجت من رجل منحوس عله ينتظر الآن معونة الاقدار بعد أن طرد من عمله ولوحق لاسباب سياسية . (أما عمتي ..)

وهنا بدأت خواطره تنحو منحى آخر : لا شك في أن هذه العجوز الابليسة قد أحست بنهايتها فباعت الدار ..

ـ ابن أخي العزيز ..

ـ (لا .. لن تقول ذلك .. فهي لا تعرف كيف تبوح بكلمة طيبة .. ستكلف أحدا بكتابة الرسالة ، وستطلب اليه مرات عديدة أن يعيد عليهـا مـا كتب .. فهي امرأة دقيقة الملاحظة ، وتخشى أن تفلت منها عبارة كبيرة ..)

ـ ابن أخي .. بعت الدار .. أعرف أنك لا تحبني ..

قد لا تكتب هذه الجملة .. ستقول بدلا عنها :

ـ أنت نسيتني .. أما أنا فلن أتخلى عنك ..

(كانت وستظل تشعر بالتفوق ..)

ـ لان الكلب لا يرمي ذنبه ..

(ستقول ذلك لا من قبيل المزاح .. فلا يهمها أن تنعت نفسها بأبشع النعوت اذا كان في ذلك مس بالآخرين) ..

ـ وبما أن الله تعالى قد أمر بايتاء ذي القربى ..

(ستملي هذه الآية على الكاتب فهي تحفظ القرآن ..)

ـ وهذه حصتك .. أنا لم يبق لي أحد .. وغدا سأقف بين يدي الله ..

(كانت تخاف ربها وتتملقه كثيرا ..)

ـ على أن تقرأ على روحي ..

(انها لا تعطي شيئا بلا مقابل .. لا بأس .. انه ثمن بخس ..)

ـ ولا تنس أن توزع كل عيد ..

« لا شك في انهـا سـتطلب مني طلبات كثيرة .. فأنا أكبر أخوتي .. »

ـ عسى أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ..

« كانت تحس احساسا ممزقا بأنها أخطأت كثيرا ..

فقد تزوجت من ستة شيوخ كانوا يتركونها بعد مدة أقصاها سنة واحدة ‥ اما الى الحيـاة الاخـرة حيث يجدون راحتهم الابدية ، بعد أن يتركوا لها كل ما يملكون ، أو تجعلهم ـ اذا وجدت أن أهداب الحيـاة ما تزال في صالحهم · يضعون بين أيديها نفقات الطلاق ، ثم يهربون الى مكان بعيد ‥ كـانت تنتقي أزواجها في بصيرة ودقة متناهية ، كما ينتقي الثعلب فريسة سمينة هينة يسيل لها اللعاب ‥ »

ـ وفي الختام ‥ أرجو ألا تبوح لاحد ‥

« ستظل على تكتمها الشديد الى ما بعد النهاية ‥ فهي لا تحب أن يعرف أحد ما تملك وما تخبيء ‥ »

ويسمع من المطبخ صوت زوجه يضج بالشكوى :

ـ يا ربي البلوعة مسدودة ‥ كم مرة قلت لك ‥ ؟ كيف أجلو الصحون ؟‥

ويصـحو الرجـل بغتـة ، ويشـعر بأن امرأته تتآمر ضده ، وانها تنشله من أفكاره في ضغينة ولؤم‥

ـ المجاري كلها مسدودة ‥ أفضل أن أسكن في البرية ولا أسكن في قبو ‥ ما هذه المعيشة الملعونة ؟‥

ويهز الرجل رأسه : « صحيح ‥ معيشة ملعونة ‥ معك حـق ‥ يجب أن تسعفنا قـوة مجهولة ‥ ها هي ذي الاقدار ‥ » ·

وعلى حين غـرة الفى نفسه مقيد الارادة · وجدت هذه الفكرة الهائجة في رأسه وكرا حصينا وركنت اليـه وراحت تستبد بكل حواسه · وأخذ يتمسك بأفكاره قبل أن تشرد الى المجاري المسطومة والديون المتراكمة والضيق الذي ليس لـه

منفس · وراح يقسر خواطره قسرا على خدمته في انارة طريق الخــلاص ·

كان يعتبر ابدال المسكن علة رهيبة وخاصة عندما تبحث مسألة الايجار ، حتى اذا وجد ذلك المسكن البعيد الصغير غير الصحي الذي لا يسكنه أحد · وقد ألف بيته ذاك لدرجة أن نمت بينهما عاطفة ·· عاطفة أشبه ما تكون بالمقت · وتوشجت بينهما صلة غريبة ، كالصلة التي تتوثق عراها بين السجين وزنزانته · وكانت كل زاوية من زوايا القبو ، قد تركت في نفسه انطباعات مرة اليمة تزداد قتاما يوما بعد يوم ··

وانفلت الى الشـــارع · كـــان قبل اليوم يحس – وهو يصعد درجات القبو – احساس الحيوان الذي نجا من شرك · أما هذا الصباح فكانت مشاعره تدور على نحو مختلف · وكان الجو باردا ، وريح شباطية متجلدة تنخل في الفضاء رذاذا من ثلج – ولكنه لم يستشعر بردا ، ولم يمس جلده لفح الهواء · كان يملك حصانة غريبة · وعجب من أن الناس يســقطون أعناقهم بين أكتافهم ، يغــذون الســير أو ينتظرون وســائط الركوب · كـــانت الفكرة الطيبة المهيمنة عليه ، تدفىء قلبه وتشع من حوله شمسا وضـــاءة · وراح يستنبت من العمارات المرتفعة والعربات الفارهة ووسائل الغنى والترف التي تدوم في عينيه – تفاصيل كثيرة ، كانت تبدو له الآن شائقة مؤثرة ، وود لو يعانق أشخاصا لا يعرفهم ، كانت تملأ جوانحه نشوة عارمة · كمن تيقن من الظفر بأبعد مشتهياته · ووجد نفسه يمر من أمام البقال ، فخالجه لاول وهلة ذلك الشعور البائس القديم ، كما تتسلل فأرة جائعة الى صندوق سكر مهمل اعتادت عليه ، ولكنه لم يحن رأسه بل طرد ذلك الشعور في وقاحة :

ابعد ·· لم يبق لك خبز ·· انتهى عملك · وتقدم من البائع في جرأة بدت له نصرا حاسما وهتف في نبرة صامدة ·

– صباح الخير يا أبا راغب · واحتشدت في حلق السمان كثير من الكلمات ، ولكن ملامح زبونه كانت تحمل أخبارا سارة ··

– تأخرت عليك قليلا ·· ما عليه شيء ·· طول بالك علينا ·· سأستلم الآن رسالة مضمونة ··

وأضاف في نفسه : « وعندما تطرق الباب بعد الآن لن أطلب الى زوجتي في ذل وخنوع أن تكذب » ·

لا تؤاخذني ·· الحمد لله ستحل المشكلة تماما ·· أعطني الآن باكيت دخان ··

ويناوله البائع علبة دخان دون أن يفوه بحرف ، ويتمعن الامر في كثير من الريب · ولا يعطي الرجل تفسيرا آخر بل يتابع طريقه · كان كل ما يراه ويلمسه وحتى كلماته نفسها تبعث في صدره الالهام · وتوحي له بمضمون مبارك للرسالة السماوية · وأراد ألا يخلط أفكاره فيما يدور حوله · أخذ ينظر الى الناس والاشياء على نحو خاص · كان يحس بأنه أصبح يملك رصيدا معنويا كبيرا · وشعر بأنه بات يتجاوب مع نفسه على صورة تحير العقل · كان يمشي على الهواء خفيفا طائرا تتوقد في روحه جذوة من نور · وأخذت نشوته تدفعه الى الامام دفعا رقيقا كما يدفع الشراع المنتفخ بقارب صغير على صفحة نهر هادىء · ووجد نفسه بغتة يسرع الخطى فضغط على شكائم نفسه :

« تمهل ·· لم هذه السرعة ·· ؟ » وتمنى لو تكون

دائرة البريد في آخر المدينة ، ليصل اليها في تمام الساعة التاسعة ، كيلا يبدد سعادته في الانتظار ، أو يضيع نشوته في التسكع ، وليظل على تماس مباشر مع خواطره الملائكية ٠

وكان قد اعتاد أن يسير على الرصيف الايسر ، وهذه عادة اتخذها تلقائيا لا دخل لها بشيء معين ٠

وفي هذه المرة قال في نفسه : « لماذا لا أبدل عاداتي ٠٠ ؟ عسى أن يكون في ذلك تبديل عام لخطوط حياتي كلها ٠٠ ؟ ونفذ فكرته على الفور ٠ وعندما اجتاز الطريق وقفز الى الرصيف الايمن ، أحس فعلا بأن كل شيء في حياته قد أصبح ذا لون جديد ٠ ووصل الى موقف المجتهد ـ وكان يسكن في الميدان ـ فاجتمع بأحد أصدقائه ، ودار بين الرجلين حوار قصير ، شعر الصديق من خلاله بأن حادثا ما قد شطر حياة صاحبه الى شطرين ٠ وخاطب نفسه « لا بد من أن يكون لتألقه المفاجىء سبب معقول ٠٠ » ٠

عندما وصل محمود خدام الجامع الى دائرة البريد كانت ضجة المدينة قد ارتفعت الى ذروتها واستطاع ـ ابان سيره الطويل ـ أن يتخلص مما علق في دماغه من شوائب ، وأن يدفن في المهد احتمالات وفرضيات مشاكسة لا يمكن أن تصدق : « اذا لم يكن من عمتي فمن أي مصدر يكون ٠٠؟ » وكان يفكر بعمته كثيرا حتى في أيام الرخاء ٠٠ وراح يذكرها بشكل خاص عندما توفي زوجها الاخير ـ وكان مزارعا في حوران ـ أما دارها الكبيرة في مدينة حمص فقد خلفها لها زوجها الثالث وكان تاجر أغنام ٠

وفيما هو يصعد درج البناء الضخم ، اكتست ملامحه

فجأة بتعابير نزقة طائشة ، لو قدر لاحد أن يفسرها لقال في نفسه : « ان هذا الرجل يستعد للمشاجرة مع خصم لدود • » وكانت الفكرة التي غزت رأســه في تلك اللحظة هي : « واذا رفضوا لسبب ما أن يسلموني تلك الرسالة ؟ » ورفع معصمه الى عينيه ثم لوح بيده في الهواء مخاطبا نفسه بصوت مسموع : « ها هي ذي الساعة التاسعة ودفع الباب الزجاجي ثم دلف الى البهو الواسع • » •

ووقف في البداية مع الرتل الذي يصطف وراء نافذة الحوالات • رأى الناس هناك يبرزون هوياتهم ، ثم يأخذون أوراقا مالية لقاء حوالة مقصوصة الجــانب • ولو اســتعرض الرجل تاريخ حياته ـ لوجد تلك اللحظة أغنى من كل ما عاشه وتخيله طول زمانه • : « ها هي ذي •• سوف لن تقطب زوجتي بعد اليوم •• ولن تدمدم في سخط عند مسألة النقود •• » وراح يهيل التراب على دفــاتر الدائنين وزوايــا قبوه المظلم ، والظمأ الشديد الى السعادة ، والحنين الى وجود خال من الهم والقلق ، وعلى كل ماضيه جملة وتفصيلا • كان يحمل بطاقته الشخصية بيده ، وعاد يتأمل صورته ، كان منذ سنتين أكثر شبابا تبتسم عيناه في رضى واطمئنان • والتفت الى الخلف ليطلع على الحالة التي كان عليها المنتظرون • كان يبدو على البعض اللهفة والتشوق ، ولكن ليس على درجة كافية من نفاذ الصبر • واخرون يقفون كالنائمين وكأنهم يصلون الى الله • وراح يتخيل ما يجري هنــاك وراء النافــذة • أحس احساسا مبهما بأن ملامح وجه موظف الصندوق لا توحي بالاطمئنان ، وانه يوقع الناس على الحوالة التي يحملونها قبل أن يسلمهم نقودهم • وقال في نفسه :

« ان هذا الموظف المسكين لا يستطيع الافادة بشيء من النقود التي يعدها » ·

كان أمامه رجل طويل العنق يحجب النافذة بالطول ، وفي المقدمة امرأة سمينة يأخذ كتفاها النافذة بالعرض · كان الرتل يصطف بين حاجزين من القضبان الخشبية · وزاحمت المرأة نفسها لتخطو ضمن حيز محدود ، ويبدو أنها أطالت الوقوف عند النافذة ، ريثما تبصم بابهامها ثم تعد النقود على طريقتها الخاصة · وصرخ بها صوت من الخلف :

ـ زيحي يا أختي ·· العمى ·· وزاحت المـرأة · وفي لحظة معينة أحس الرجل بأنه أصبح أقل استجابة لخواطره ، وشعر في رعب بأن أفكـاره تتجمد ، وبـأن خيانه يهبط من السمـاء السابعة ·· وأحس لاول وهلة بالبرودة ـ لا تلفح أذنيه ـ بل تتمشى في أوصاله · : ماذا حدث ··؟ وانحسر المد كاشفا عن القاع الرهيب ، مخلفا وراءه قشا أسود ، ونفايات نتنة ، وحثالات ، وصدأ ، ورائحة تقزز النفس ·· ثم ألفى نفسه وجها لوجه أمام موظف الصندوق ·

سأل موظف الخطابات المسجلة في لهجة روتينية :

ـ ما هو الاسم ··؟

وتطلع الى الوجـه الـذي أمامـه ، كان صاحبه ضيق الكتفين ولحظ من ورائهما شخصا يطلب رسالته فلبى طلبه وهو يتمتم في سخرية :

ـ بحياتي لم أر أحدا لا يعرف اسمه ··

كان الغلاف رقيقا ، بدا لاول وهلة أنـه فارغ تماما ·

وفضه بأصابع مرتجفة دون حماس ، ثم أخرج من داخله ورقة تشبه الحوالة التي تصرف من الشباك الآخر ، والتي يأخذ أصحابها نقودا كثيرة ٠٠ وقرأ محمود خدام الجامع محتوياتها في تمهل وامعان ٠٠ ثم قلب ظهر الغلاف مرتين ، وقرأ اسمه بصوت مسموع ٠ ثم عاد ليقول للموظف : « لا أريد أن أستلم هذه الرسالة ٠٠ » ٠

ولكنه لم يفعل شيئا ٠٠ حاول فقط أن يذكر : ماذا يفعل هنا ٠٠ في هذا المكان وفي هذا الوقت بالذات ٠٠ ؟

ها هي ذي القضية اذن ٠٠ سأترك القبو الذي أسكنه ٠٠ ذلك أفضل ٠٠ انه رطب لا يرى الشمس ٠٠ سأترك المكان المنحوس ٠٠ هذا ما كنت أسعى اليه ٠٠ ها هي ذي القوة المجهولة ٠٠ الاقدار ٠٠ انها تنقذني ٠٠ ولو قذف بنا الى الشارع ٠٠ انذار باخلاء المسكن ٠٠ صحيح ٠٠ لقد عجزت عن دفع القسط الاخير من الايجار ٠٠

ودفع الباب الزجاجي ووقف عند المدخل ، بين سلمين حجريين ، الشمالي يؤدي الى مركز عمله ، والجنوبي الى داره ٠ الى أين يذهب ٠٠؟ لا الى مكان ٠٠ الى أي مكان ٠٠ كله سواء ٠٠

ووقف في أرضه لا يتحرك ٠٠ يرقب من خلال سقوطه الابدي ـ اختلال التوازن ، وأبواق الدعاية ، وباعة اليانصيب ، والناس الذين يركضون الى غير هدف ، والفراغ المجيد ، والتفاهات الرائعة ، والبوارق الخلبية ، وكل شيء ٠٠ كل شيء ٠٠

طباخ الريحة

كان يبدو منشرحا للغاية ، مفرطا في الابتسام ، منطلقا ، متوثبا ، يكاد يرقص ويرفع عقيرته بموال بلدي ٠٠ وأنا لم أره منذ وجودي في هذه القطعة غير مرة واحدة ، وذلك عندما رأيته ينتقل بأمتعته ليعين طاهيا في نادي الضباط ٠

قال لي وهو يضع صحن (البفتيك) على الطاولة أمامي :

ـ مساء النور يا سيدي !

وبدت تحيته اساءة لي في الصميم ، وتحديا للانقباضة النفسية ، التي كانت تعقد شريطها في صدري في قوة وحزم ، والتي كنت استسلم لها في لذة فائقة ٠ وبما اني كنت مفتقرا الى كل دواعي الانشراح والانطلاق التي كان الجندي يمرح في بحبوحتها ، فقد هززت رأسي في صمت وبؤس ٠٠

وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما شرعت بتناول عشائي وحيدا ، بين عدد من الكراسي والطاولات والصحون وأباريق الماء الفارغة ٠

ونادي الضباط الذي يستريح على شاطىء البحر ، قلما يؤمه أحد في هذه الساعة المتأخرة ، نظرا لبعده النسبي عن المدينة ، ولاسباب أخرى لربما كان أحدها وجوب استيقاظ الضباط باكرا مع نعيق البوق للوقوف على رؤوس أعمالهم ٠

وقد قررت ، بصورة أوتوماتيكية أن أقضي على عشرة أرغفة ، متحديا الانقباضة النفسية التي كانت تزداد أصابعها قسوة فوق خناقي لتمنعني عن التنفس ٠

كما قررت ، من باب التحدي أيضا ، أن أحدث أكبر ضجة ممكنة مستعينا بالشوكة والسكين والصحن ، لاقهر الصمت الذي يخيم على المكان بأسره ٠ وفجأة انطلقت في الصالون الكبير ضحكة مستطيلة رفيعة ، أحسست فيها كنصل حاد يغوص في قلبي ٠

والتفت الى الخلف لاجد الجندي لا يزال مكشرا عن أسنانه السوداء يلفظ الضحكة حتى آخرها ، دون أن يبتلع منها شيئا ٠ وهو يحول رأسه يمنة ويسرة في تعجب جنوني ٠٠ وراح ـ بعد ما أطلق لضحكته العجيبة ما شاء لها من العنان ـ يحدث ذلك الصوت الذي يصدر من بين رأس اللسان وسقف الحلق ، الدال على اغراق في السخرية والتعجب ، مرددا :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ لا حول ولا قوة الا ٠٠٠

وكنت عندما أزمعت على تناول العشاء في النادي ، أعلم تماما بأنني سأكون وحيدا ، وقد هيأت نفسي لهذه الحالة ، فضمنت وجود الصمت الذي أتلذذ فيه وهو يعذبني حتى الموت ٠ غير ان ما حدث قلب خطتي رأسا على عقب ٠ فقد بدأت

أتعذب في صورة أكثر بشاعة ·· وشعرت بأنني بائس ·· بائس أكثر مما في استطاعتي أن أتحمل ·

وما حدث بعد ذلك كان رد فعل عنيف ، غير أنه حدث فعلا وبصورة غير مقصودة ، فقد ارتفع الصحن بيدي الى الاعلى ، ثم سقط على الارض · ورحت أراقب قطعه تتبعثر بالعشرات كل قطعة منه تفتح أشداقها على ضحكة تنضح بالهزء والسخرية·

وتقدم الجندي في خفة راقصة ، وراح يجمع القطع الضاحكة وهو يمط الكلمات بصورة مفضوحة :

ـ فداء راسك يا سيدي ·· فداء راسك ··

وتنهدت في صمت :

ـ هات صحن حساء ··

ـ تأمر يا سيدي ··

وقدم لي الصحن مع ورقة معلوكة ومع الورقة والصحن قدم لي هذا السؤال ··

ـ ما هو شيء يضحك يا سيدي ؟

وفرد الورقة الى جانب الصحن ·· (لا شك في أنه يقدمها كسلطة شهية ··) وقرأت في أحد جداولها « الام فوزية » ، مكتوبة بخط أنيق ··

وبدأت استنتج أن هذا الجندي ليس غير هازل كبير ، فغامرت بالصمت الذي لم تصن حرمته وسألته :

ـ ما هذا هل هو صك وفاتك ··؟

فأجابني في حسرة :

- يا ريت يا سيدي ..

وأحسست بصابونتي ركبتي ترتجفان .. نظرت الى وجهه .. كان صريحا وبسيطا للغاية .. وقال في براءة مخجلة :

- رفضوا يوفونها يا سيدي .. رفضوا الاعتراف بموتها ، هنا في اللاذقية ..

- من هي ؟

- زوجتي يا سيدي .. (زوجتي قالها في دهشة بالغة)

لا شك في أنها مهزلة حقيقية قررت فجأة ، دون مقدمات ان أشارك فيها حتى الصميم .. فسألته :

- ولماذا لا يوفونها ؟.

فدهش لسؤالي دهشة أذهلته ..

- ألا تعرف يا سيدي ؟. لانها أكبر من عمرها بعشر سنوات ..

قلت وكأنني لا أعي ما أقول :

- ان هذا السبب يجبرهم على أن يوفونها بسرعة ..

فارتسمت على محياه سمة محيرة من البلادة .. حتى كدت أصرخ من الفرح .. بل أنني ضحكت .. ضحكت فعلا بصورة لا بأس بها . فسألني :

- لماذا لا يوفونها اذن ؟.

ـ لانها كما أظن لم تمت ٠٠

ـ يا سيدي دفنتها بيدي ٠٠ هاه ٠٠

قالها في حدة ومد في وجهي كفيه السوداوين ، وافقت على نفسي بعد قليل ، أعد خطوطهما العميقة المتشابكة وأفتش عن ذرات التراب الباقية من عملية الحفر ٠ وظلت اليدان ممدودتين في وجهي حتى أصبحت مستعدا لان أراهن بحياتي على أن هاتين اليدين قد حفرتا قبرا ودفنتا فيه جثة زوجة ٠٠ وسحب الجندي يديه عندما أيقن بأنني قد اقتنعت وصدقت وقال لي :

ـ صدقت يا سيدي ؟٠

ـ كل الصدق ٠

ـ ومع ذلك فهم يرفضون أن يوفونها ٠

وعدت أفكر ٠٠ (لا شك في أن هذه المهزلة الحقيقية هي خير ما في هذا الكون من عبث) ٠ قلت له في روية :

ـ يجب أن يقتنعوا ويصدقوا هم ٠

ـ ولكنهم لا يصدقون ٠٠

قالها بلهجة يائسة ٠٠ قلت له :

ـ هل مددت لهم يديك ٠٠ تما ما كما فعلت الآن ؟

ـ والله يا سيدي نسيت ٠

ـ كان يجب أن تفعل ٠٠

وهز رأسه وكتفيه واستدار ٠٠ فاستوقفته :

ـ لا تظنني أمزح معك · هـذه خـير طريقـة لتجعلهم يوفونها فعلا على أن لا تغسل يديك بالصابون·· اتركهما هكذا كما هما الآن ··

فاعترض :

ـ لا يصح يا سيدي أمام موظفي النفوس الرسميين ·

ـ لا يهم ··

ـ والله يطردونني مثل الكلب ··

ـ لا بأس المهم أن يصـدقوا ويوفونها ·· واذا طردوك مثل الكلب بعد ذلك تكون المشكلة قد حلت بسلام ·

وفكر قليلا ، ثم هز رأسه وكتفيه كرة أخرى ·

وعدت الى عشائي · كانت السمنة التي تحيط بالصحن قد تجلدت · أمسكت بالشوكة وأخذت أنقر بهـا على حافـة الصحن · وقد زايلتني فكرة الاكل حتى التخمة ·· ورحت أفكر ·· غير أنه هرع فورا الى جانبي ·

ـ أمرك يا سيدي ··

لم أكن أدعوه ·· كنت أفكر فقط · زوجة هذا الجندي ماتت ودفنها بيديه · وهذه حقيقة لا شك فيها · وهم هنا في اللاذقية يرفضون الاعتراف بذلك ·· انها مشكلة حقيقية ··

لم تكن أفكاري في بادىء الامر تخرج عن هذا النطاق ·· كان هذا ما شغلني فعلا دون سواه ·

والتفت اليه ·· كان ينتصب الى جانبي ·· وفي استعداد

وتوتر ، ينتظر مني أمرا نافذا لحل المشكلة . كان طويل القامة هزيلا ، في وجهه الاسمر ندبتان بارزتان . ممطوط الشفتين مرفوع الحاجبين ، ولعل هاتين الصفتين الاخيرتين قد أساءتا اليه كثيرا في حياته المديدة في سلك الجندية .

فشفتاه الممطوطتان جعلتاه يبدو دائما انه على وشك الابتسام ، أما ارتفاع حاجبيه ، فقد طبع على وجهه دهشة أبدية ، وحرم عليه موهبة اصطناع العبوس والرصانة ، هذه الصفة اللازمة لكل جندي ناجح . لا شك في أن هذا الجندي لو استطاع أن يتخذ هيئة صارمة ولو مرة واحدة في حياته ، لامكن أن يرشحه أحد رؤسائه الى رتبة عريف .. بل لكان بالامكان أن يصل الى رتبة عقيد .. من يدري ؟. انه سيء الحظ دون أدنى ريب ، وذلك يعود بالدرجة الاولى الى شفتيه وحاجبيه ..

ـ أمر يا سيدي .. ناديتني ؟. وانتبهت اليه .

ـ آه كنت أفكر فقط .. قف .. أريد أن أفهم القصة . ان كان ما تقوله صحيحا ..

وفرشت الدهشة على جبينه صورتها الكبيرة ، وأطلت من عينيه بكل معانيها :

ـ ألا تصدقني يا سيدي ؟.

ـ قلت ، زوجتك ماتت ودفنتها بيديك ، ولا يريدون أن يوفوها في اللاذقية ، ما معنى ذلك ؟. ولماذا تريد أن يوفوها في اللاذقية ما دامت قد ماتت فعلا ؟ ودفنت هناك .

كان يصغي الي بكل جوارحه . وكأنه يفاجأ بالقصة لاول

مرة . وسرني أن أراه يفاجأ بالقصة وأن أجده يدهش حتى النهاية ، فتابعت :

- ولكن قل لي . ما دامت زوجتك قد ماتت فعلا وقولا ودفنتها بيديك - كما تقول - فماذا عليك ان وفوها أو أبقوها حية ترزق ؟.

وبدا كأنما يستجدي حقه المهضوم .

- الله يطول عمرك .. والتعويض لا يدفعونه لي ما لم تمت في اللاذقية ؟ وقت ماتت زوجة الجندي فرحان أخذ عليها تعويض خمسا وعشرين ليرة ..

- هه .. صحيح ! ألم يدفعوا لك التعويض ؟.

- لا يا سيدي .. كيف يدفعون لي ما داموا لم يوفوها ؟

وتجلت لي المشكلة على حقيقتها .. التعويض .. هذه هي المسألة.. خمس وعشرون ليرة تعويض وفاة. فالعسكريون يتقاضون تعويضا عن كل ولادة أو وفاة تحدث في عائلاتهم .

- ولكن كل الحق على الرقيب الممرض . أخطأ بكتابة صك الوفاة . بدل أن يكتب السن أربعا وثلاثين كتب أربعا وأربعين .. غلط بعشر سنين ..

وراح يحرك يديه وصدره ويستعين بدهشته وشفتيه الممطوطتين في شرح القضية ..

- هكذا يا سيدي .. غلط بعشر سنين .. أنت تعرف يا سيدي أنها ماتت في المستشفى يوم السبت .

وسرت الي بغتة عدوى الدهشة فسألته :

ـ أنا أعرف ؟!٠

وكانت دهشته أكبر :

ـ نعم يا سيدي ٠٠ ألم توقع لي مأذونية أربعا وعشرين ساعة ؟٠٠

ان هؤلاء الجنود يثيرون العجب فعلا ، فهم ينتظرون منا أن نعرف عنهم كل شيء ، وان نحفظ تواريخ ميلادهم ، وألا ننسى شيئا من أدق تفاصيل حياتهم ؟٠ واستدركت قائلا :

ـ طيب وبعدئذ ٠٠

ويبدو أنه أراد أن يطلعني على أدق التفاصيل فمثل لي الحادثة :

ـ أثناء ولادتها بفاطمة تعسر الطلق وكانت وحدها ، ولولا أم بدوي ٠٠

ـ من هي أم بدوي ؟

وصرخت الدهشة في وجهه :

ـ أم بدوي يا سيدي ٠٠

ـ آه عفوا أم بدوي الولادة ٠٠

ـ الولادة ؟٠ لا ٠٠ أم بدوي زوجة حسين المحمد ٠٠

وتبدلت معالم وجهه وبدا أنه يعاتبني فحركت رأسي بأسف محاولا تبرير نسياني الدائم ٠ وعاد الى الشرح ٠٠

ـ لولا أم بدوي لكانت ماتت قبل ما أراد لها الله بشهرين ٠٠

وهنا كدت استوقفه ٠٠ (لولا أن أراد لها الله بشهرين ٠٠) ما معنى ذلك ؟ ٠

غير أني امتنعت في اللحظة المناسبة ٠

وصمت قليلا ، وقد هيأ دهشة مسبقة للسؤال الذي يمكن أن ألقيه ٠ ولما تأكد من أني صمت استطرد في شرحه ٠

ـ وكان الاولاد عندها في البيت ما عدا أحمد وصبحي وصالح وفهد ٠٠

وهنا غامرت ٠ لم أستطع أن أحبس السؤال :

ـ كم ولدا عندك ٠٠

وأغمضت عيني كي لا أرى دهشته ٠ وأجاب كأنما يذكرني فقط ٠٠

ـ فاطمة أعطتك عمرها بعد أمها بيومين ، بقي عشرة بعيون الشيطان عليا وروضة ومها ٠٠ و ٠٠

وأحسست بالجوع فجأة ٠ فرميت الشوكة والسكين جانبا ، ورششت كل محتويات المملحة فوق الطعام المتجلد ٠٠ واستأنفت عشائي بأصابعي ٠ وكانت أصابعي ترتجف ٠


المتيّمون

في الحارات القديمة ، يعيش الناس كما يعيش الآخرون، دونما فارق في الامور الحياتية الاساسية ، فهم يحلقون رؤوسهم ويعشقون ويحلمون ، ولا يختلفون عنهم الا في الحالات الثانوية جدا ، كطريقة التفكير ، وتناول الغذاء ، والاسباب التي تؤدي الى الموت ، أما النتائج فهي واحدة على الدوام ، الرضاء التام ، ثم العودة الى الله ··

والى جانب بضع عبارات ، لطخ بها جدار ترابي بدهان يبدأ ورديا وينتهي لازورديا ·· يفهم منها الحصيف انها تعني حلاقة ، وتطهير أولاد ، وفتح كي ·· وخلافه · الى جانب هذه العبارات شق لنفسه حاجز منخلي ، يمنع دخول الحشرات ـ فجوة كبيرة وسط الجدار · وفي داخل هذه الفجوة ، عشش صاحب الاعلان المذكور أعلاه · واتخذ لنفسه صانعا وأجيرا ، للمساعدة في الاعمال التي تتطلبها أشغاله العتيدة ·

وقد اشترط المعلم منذ البداية على معاونيه ـ وهذه

ملاحظة هامة ، أنه سوف لا يمنحهما أجرا على أعمالهما ، لسببين ، أولهما انهما سيتعلمان الصنعة ـ وصنعة في اليد أمان من الفقر ـ والسبب الثاني وهو مادي بحت ، ان زبائن المحل وان تخلوا عن سائر الصفات الحميدة ، فهم لا يتخلون عن صفة الكرم ، أي أنهم يدفعون (البخشيش) دون تردد . أما اذا وصف المحل من الداخل ، فيختلط الامر ، وتضيع أهم ميزاته ، وهي كونه (صالون حلاقة) .. عفوا ..

وذات يوم انتهى الحلاق لتوه من قلع شعر أحد زبائنه ثم عاجله بالتهنئة التقليدية .

ـ نعيما .

وارتعد الزبون ـ يبدو أنه لا يتحلى بأية صفة حميدة على الاطلاق ـ وفكر كم ستكلفني هذه الكلمة ..

ـ الله ينعم عليك .

وصرخ الاجير في احدى الزوايا ، بصوته الثاقب ..

ـ نعيما .

وهز الزبون رأسه ، فهمت ، وأجاب بالنفي ..

ـ الله ينعم عليك ..

وعاجله الصانع بالضربة القاضية ..

ـ نعيما .

فأجفل .. من أين برز هذا الشيطان الجديد ..؟ وأجاب مؤكدا عدم موافقته ..

ـ الله ينعم عليكم أجمعين ٠٠

وانقض على المنخل ، وانطلق بسرعة وكأنه عصفور أطلق من قفص ، وتنفس بارتياح ، مالئا رئتيه بالهواء النقي ، الهواء الذي لا رائحة له ٠ بعد أن حطمت دماغه رائحة الصالون المؤلفة من كوكتيل غريب ، ممزوج بجميع الروائح المتباينة ٠ وانطلق من الدكان قبل أن يتناوله الاجير لينظف له طربوشه المزفت ٠ وسبق الصانع الى السترة المعلقة فانتشلها من أحد المسامير ٠ وقد سمع بأذنه صوت فتقها بينا واضحا ، وفر لا يلوي على شيء ٠٠ وان كان قد أحس بوضوح انه مطارد بعيون ونيات غير طيبة ، بأية حال ٠٠ ووقف على بعد عشر خطوات من باب الدكان ، فوضع سترته على كتفه وبدأ بحملة تنظيف واسعة النطاق ٠٠

قبض على الطربوش باليد اليسرى ، وانهال عليه بالكم الايمن مسحا وتنظيفا ، وبين آونة وأخرى كان يضم شفتيه ، ثم ينفخ نفخة كبيرة ، فيتطاير الغبار كثيفا ، ثم لا يلبث أن يعود أدراجه على الطربوش والسترة والرأس المحلوق ٠٠

ثم قربه من عينيه بحركة لا ارادية ، فالفى بقعة سوداء تلطخ جانبا كبيرا من زيفه ، فراح يحكها بأظافره بهدوء ، خوفا من أن تبرز أصابعه من جلدته الكالحة ، وبهت لون البقعة قليلا ، ولكنها ظلت حية ترزق ٠ واسترعى انتباهه منظر الطره المنكشة ، من فرط القدم ٠ فأخذ يواسيها بين أنامله برفق ٠ فكانت تمتد قليلا ، ثم تتقلص دفعة واحدة ٠ وود لو يطوي طربوشه في جيبه ، ويرتاح منه الى الابد ٠ ولكن برودة الجو التي انسابت الى رأسه في تلك اللحظة ، جعلته يؤخر هذا الحدث التاريخي الى اشعار آخر ٠ ومهد الطرة مرة أخيرة ،

فتناثرت خيوطهـا بـين أصابعه ٠٠ فلوى رأسه قليلا ، وبان الكدر جليا على سحنته الحديثةالتصليح ٠ وكاد يعيد الطربوش على رأسه ، لولا أن لمح أحـد أركانه قد تقوص ٠ وان سـطحه امتلأ بالوهاد ٠ فادخل اليه قبضته ، ودفعه دفعتين رفيقتين ، فاستقام قليلا ٠ غير أنه حكم عليه حكما صارما ـ أصبح هذا الطـربوش لا يصلح الا للشـغل ٠٠ لا بأس ٠٠ ووضعه على رأسه كيفما اتفق ثم أعاد توازنه من جديد ٠٠

وجاء دور السترة ، فتناولها من على كتفه ، وأخذ يتأملها في اشمئزاز غريب ، هـذه سـترته وهو يرتديها منذ الازل ، لماذا حدث ؟ ما هذا الاشمئزاز ؟٠ وسحنته في هذه الآونة لا تقبل أي تعبير لا يتصف بالرضى ٠٠

وأي تعبير آخر معاكس يجعله يبدو ـ وهذا أمر مؤسف جدا ، كأنه لم يحلق ٠ المهم٠٠ لقد حار من أين يبدأ بالتنظيف٠ واختصر الطريق ، متخذا أهون السبل ، فقبض على السترة من الكتفين هكذا ٠٠ يمكنك أن تتصور ذلك ، ورفعها عاليا ثـم هوى بها من قمة رأسه ، فحجبته عن المرئيات على قلتها في هذه الحارة ، لجج من الغبـار النقي غبـار نقي ؟ لا يهم ٠٠ وأعاد الكرة بين رفع وخفض ، ثم توقف على حين غرة ، حين اصطدمت السترة بالعمود ، نكسر نصف أحد الازرار ، وبقي النصف الآخر معلقا بها ٠٠ ولوح بها ـ أخيرا ـ في الهواء فاستقرت على كتفه ٠ وأدخل يده في الكم ، فلم يبرز منها غير ثلاث أصابع ٠ وظهر الضيق على سحنته من جديد ـ سبحان الله ـ قلنا أن غير الرضى لا يليق الآن على سحنته ٠ ولكن ما العمل ٠؟ وسحب يده في عنف ـ النرفزة مرة أخرى ، ثم أدخلها بهدوء ، محاذرا

أن تدلف بين البطانة والقماش ، وفي هذه اللحظة سمع صوتا يناديه ·

ـ نعيما يا أخانا ألا تزال هنا ؟ ـ

وارتبك الزبون ـ حتى الارتباك يجعل سحنته في هذه الآونة تعبر عن شيء آخر يصعب وصفه · وأجاب متضاحكا ، وقد بدا وجهه كقطعة قماش مكوية بعد الرفو :

ـ والله ·· اني أنتظر أخي ··

وأجاب الصانع ، وكان قد خرج لامر ما ، ولعله الحصول على البخشيش ـ يبدو أنه كثير التفاؤل ·

ـ أخوك ·· هل لك أخ ··؟

فاستدرك الشاب معتذرا

ـ آه أخي ؟·· قلت ابن عمي · لماذا تضحك ··؟

وأجاب الصانع في خبث ··

ـ لا ·· لا شيء ·· فقط ضع طرة الطربوش الى الخلف ··

ورجع الصانع ، تاركا الشاب يلعن حظه التعس ، الذي أبى الا أن يجعله هدفا للهزء والسخرية · لقد ذهبت جهوده التي بذلها ادراج الرياح · وخطته التي صاغها في دقة واحكام فشلت فشلا ذريعا ·· فمنذ أن بدأ الحلاق يضع الصابون على وجهه ، راح يتأمل السترة في المرآة ، ويفتش عن الطريقة التي سيتناولها بها قبل أن يسبقه اليها الاجير · كان يخشى الفرشاة

اللعينة خشبية كبرى ، التي ما أن تمس ثيابه بعد الحلاقة حتى تكلفه المبلغ المرقوم · عدا عن خوفه على عيون الزبائن وأنوفهم من الغبار المعشش في خيوطها ·· كما أخذ من خلال المرآة يتأمل الطربوش في انتباه وترقب فارضا كل الاحتمالات : (سأتناول السترة باليد اليمنى والطربوش باليسرى ··) هكذا كان يفكر وقد اغتبط كثيرا عندما ذهب الاجير في مهمة ، مما ساعده على امكانية تنفيذ خططه كلها في دقة واتقان ·· ولكن ·· يا للاسف ·· ما كادت تنتهي الحلاقة ويتناول الحلاق زجاجة الكلونيا ·· حتى حضر الاجير ·· وتأهب الصانع ، وعاجله الاثنان بضربتين متلاحقتين ·

– نعيما ·· نعيما ··

وبعد أن صم أذنيه ، وانهزم شر هزيمة يكتشف أمره ويسخر منه ومن بخله الشنيع ··

(لا بأس ·· سوف لن أحلق هنا مرة أخرى ، وستطوى هذه القضية من أساسها ، ولن يذكرها أحد ··)

هكذا فكر مواسيا نفسه · وتردد قليلا قبل أن يلتفت حوله في ارتباك · ثم سار في طريقه · وتحسس ذقنه مزيلا عنها بقايا قطنة دامية · ثم شد سترته الى الاسفل في رفق كيلا تتفتت خيوطها · وتسللت يده الى جيبه بهدوء · وعبثت أصابعه بشيء ما ، أعاد الى تقاطيع وجهه علائم الارتياح ··وفكر : (لقد وفرت من البخشيش حوالي ربع ليرة ، ان النقود الآن تكفي ولا شك ·· سأجعلها تعشقني عشقا ، ستعبدني ، آه ·· يا محبوبتي الصغيرة ·· ماذا تفعلين الآن ··؟ انتظري قليلا ·· سأصل اليك لا ·· لن أتأخر ··)

وخفق قلبه فجأة ٠٠ وعربد عربدة صاخبة :

لا شك في أنها تسكن قلبه ٠ لماذا اذن حاولت أن تهرب منه ؟ لقد اهتز فؤاده بين حناياه لمجرد ذكرها ٠٠ سعاد ٠٠ آه ما أجل هذا الاسم ٠٠ سعاد ٠٠ سعاد ٠٠

كان يوما مشهودا في حياة قلبه ، ذلك اليوم الذي تعرف فيه عليها ٠٠ هذا القلب الذي لم يخفق في حياته لسبب ما غير الجوع والتعب ٠٠

ففي ذلك اليوم كان عائدا من عمله في معمل الكبريت ، حيث يشتغل من الصباح حتى المساء ٠ وعندما وصل الى البيت ، وكان يلج الباب المتداعي ، رآها ٠٠ رأى النور ٠٠ وأحس بالحياة ٠٠ رآها تخرج من بيته وراءها ضفائر شعرها الفاحم ، وفي يدها شيء ما لم يلفت انتباهه ٠٠ فقط سحرته اليد اليمنى التي تحمله ٠٠ ومن اليد انتقلت عيناه بسرعة خاطفة الى الوجه المتضرج كلون البرتقال ٠٠ يا الله ما أجمل الاسنان التي انفرجت عنها شفتاها الكرزيتان ٠٠ واصطدم بالعتبة وكاد يهوي على وجهه ، لولا أن تدارك الامر في آخر لحظة ، وتشبث بحلقة الباب ٠٠

وسألته أمه ما الخبر ٠؟ فقد رأت وجهه متهللا مستبشرا ٠

ـ ماذا ٠٠ هل ازداد أجرك ٠٠ أم أن هناك منحة ؟٠

هكذا سألته بتعبيرها الخاص ٠٠ ولم تطل فرحة الام عندما بدأ يسألها عن الفتاة ٠ وعرفت أن أسباب البشر لم تكن غير نظرة واحدة الى وجه ابنة الجيران الجدد ٠

وبدأت منذ ذلك اليوم حياته تسير على منوال آخر ..
ففي اليوم التالي ، تربص لها طوال المساء والسهرة ، ليقول لها مساء الخير . وفي صباح اليوم التالي ، تأخر عن موعده ربع ساعة لكي يحمل عنها صحن فول مدمس . وتعمد أن يمس يدها . يقولون أن للكهرباء مفعولا مزعجا . من قال هذا .. ان تمس يدها فعل الكهرباء . صحيح .. ولكن ما أحلاه . انه يجعل الدم والقلب والروح ، كل هذه الاشياء الرومانطيقية، تضطرب اضطرابا لذيذا جدا .. اضطرابا مميتا من اللذة .

ولم ينم تلك الليلة . ظلت الكهرباء تسري في عروقه . ورائحة زيت الشعر تزكم أنفه ، منذ فاحت رائحته من شعرها المصفف اللامع ..

انه لم ير الحب في حياته كلها .. في ربع القرن الذي عاشه .. لم يجرب أن يسير مع فتاة غريبة أو قريبة ، انه لم يستشعر حتى الآن هذه اللذة .. التي لطالما منى نفســـه بتمنيها مع أية مخلوقة ولو كانت الشيطان ..

ولكن هذا اليوم ستحقق أمانيه كلها .. قالت له بعد أن تمت مراحل الحب جميعها .. النظرة فالابتسامة فالسلام فالكلام ، قالت له انهـا تشتهي أن تذهب الى الســـينما .. وسيأخذها هذا اليوم سيأخذها لترى صــــباح تغني وتحيـــة ترقص .. وراح يتصور بخياله الذي أفلت من عقاله ، كيف سيسير معها جنبا الى جنب ، وسيفقأ عين كل من سيتعرض لها بكلمة ، وليكن من يكون .. وبينما كان يسير وهو يجتر أحلامه بهناء ، طرأت له فكرة مفاجئة ، ماذا لو لم يتحقق أمله لسبب ما . كأن تعتذر في آخـر لحظة ، أو يمنعها أهلها عن الذهاب ؟.. آه ما أقسى الصدمة .

وهو الآن يحب ٠٠ كباقي الناس الذين يسكنون في الحارات الجديدة ، وفي العمارات ٠٠ أليس له قلب ٠٠ ودم ٠٠ وبقية الاشياء الاخرى ؟٠ هذه المواد الاولية اللازمة لتركيب هذا المفعول السحري العجيب ٠٠ انها تحبه ولا شك ٠ وان لها التركيب نفسه : قلب ودم وصدر وعروق وشرايين والى آخره ٠ وهي بالاضافة الى ذلك ، من سكان الحارات العتيقة الذين لا يأنفون من واقعهم المألوف ٠ سيذهبان هذا المساء الى السينما ٠ وفي الظلام ستتلاقى أيديهما مصادفة ٠ وستعود الكهرباء الى الجري في عروقهما ٠٠

ووصل الى حارته ٠ ومر بأحد الجيران فسأله عن الساعة ٠٠ وقدر له جاره الساعة ، انها الخامسة تقريبا ٠٠

لقد حان الوقت ٠ ولاول مرة في حياته راح يحصي الدقائق ، وكانت ساعته الناطقة تنبض في عنف ٠ وما حدث بعد ذلك ، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الانتظار القاسي المرير ، الانتظار الذي لا طائل وراءه ، ان عاد الى البيت : الى الحجرة الوحيدة التي يقطنها مع أمه تسبح في الظلام ٠

ـ أين أنت أيتها العجوز ؟٠

وأجابه الصوت في احدى الزوايا ٠٠ وكأنه صوت من الماضي السحيق ٠٠

ـ أنني هنا يا ولدي ارتق لك جوربك ٠٠

وأجابها ساخطا :

ـ انني لا أرى شيئا ٠٠ فكيف ترين في هذا الظلام ٠

فأجابه الصوت :

- الفانوس معلق يا ولدي .. هل لديك عود ثقاب ..

فأجاب الابن في عصبية ..

- دائما الثقاب .. الثقاب .. أين تذهبين بالكبريت.. هل تبيعينه ..؟

ورد الصوت في حنان متناه ..

- أنني أشم فيك رائحة جميلة يا ولدي .. آه لقـــد ذكرتني يوم كان أبوك رحمه الله .

وفتحت الام فمها وراحت تتحدث عن حبها الاول .. كيف تعرفت على والده .. وكيف أحبها وأحبته .. ووخزت الابرة يدها فتوقفت قليلا عن الكلام .. ثم تابعت :

- كان يقول لي يا ضوء عيني ..

وظلت تثرثر .. اليتيم المسكين يشد ذقنه الناعمة في غيظ وألم .. ومن حوله كان كل شيء .. حالكا .. ولا شيء يضيء غير الابرة في الظلام ..

ساعة الصّفر

من سوء الحظ أن طعام العشاء كان شهيا فوق العادة ٠ وهذه بادرة كنا نلحظها في الاوقات التي تسبق عملا حربيـــا معينا ٠ وسوء الحظ هنا لا أقصد به اقدامنا على عمل خطير ، ولكن لسبب آخر ، لربما كـــان تافهـــا بنظر أولئك الذين لا يعتبرون الماء عنصرا هاما من عناصر الحياة ٠

فقد كان العشاء مؤلفا من شوربة الخضر المملوءة بقطع اللحمة ، والكبة المقلية كرات ، والحلويات (بقلاوة) التي يقول عنها الجندي أسعد الحمادة (كل واذكر) ويحبها حتى الجنون ٠ ويبدو أن طاهي السرية لم يذق الطعام ٠ أو أنـــه أساء التقدير حين تمليحه ، لدرجة أن البقلاوة نفسها كـــانت مالحة برغم أنها لم تكن من صنع يده ٠

من أجل هـــذا كـــان طعم الـــكبة يلذغ الحلق لملوحتهـــا المفرطة ٠ مما دعا أسعد الحمادة أن يصيح في وجه الطباخ وهو يلتهم أحد الاقراص (ولدتك أمك في مملحة يا ثور) ٠ وطعام العشاء بالاضافة الى أنـــه كان غنيا وشهيا ، فقد وزع علينـــا

بكثرة ملحوظة · اذ تبقى من حصة أسعد ـ ولاعتبره قياسيا في هذه المناسبة باعتبار أنه الجندي الوحيد الذي ينظم ملحمة شعرية في وصف الرغيف ، كما أنه يستطيع أن يأكل طعام زمرة كـاملة دون أن يقول الحمد لله ـ أي دون أن يشـــعر بالشبع ـ من أجـل هذا لا يوكل اليــه بجلب الطعام الا عند الحاجة القصوى · فقد تبقى من حصة عشائه عدة أقراص من الكبة وكومة سخية من اللحم ، عدا البقلاوة التي راح يستمتع بمنظرها وهو يتجشأ · وباختصار استطعنا أن نملأ مزوادنا حتى التخمــة بما تبقى من وجبــة العشــاء التي وزعت علينـا بسخاء · وهذه مهمة نقوم بها في الاحوال العادية ·

الا أنها في هذه المرة لم تخل من تندر البعض · مما دعا الرقيب الاول أن يبشرنا قبل النوم ، بأن ما تبقى من الطعام سيكون فطور الغد · ولربما غداءه أيضا · كما أوعز الينا ، بأن ننام بملابسنا ومعداتنا ، وان نكون مهيئين في كل لحظة للرحيل · مما أثار ارتباك الجندي حميد فضل الله ، الذي لا يغمض له جفن مـا لـم يتجرد من جميع سيوره الجلديـــة والقماشية · ولا يحلم أحلاما هنيئة ما لم ينم عاريا ·

كانت سريتنا تحتل خندقا طولانيا على سفح التل ، الذي يرتفع الى جانب بحيرة طبريا · وكان هذا الخندق يعتبر من خطوط النار الاولى ، اذا حذفنـــا نقـــاط المراقبة المنتشرة في الاسفل ، والتي تحيط بالتل من جميع نواحيه · وهذا الخندق الطويل الذي لم نكسب نحن شرف حفره ، كان عريضا وعميقا بصورة مناسبة ، يستطيع أحدنا ، حتى أسعد الحمادة العملاق، أن يجد في أعمـــاقه ملجأ مريحا ضد القنابل والرصـــاص من جهة ، ومن البرد والحرارة من جهة ثانية · لذلك ما أن ملأنا

بطوننا بالطعام الشهي الآنف الذكر ، حتى راح كل منا يهيء من مزودته المتخمة وسادة مريحة لرأسه الحليق . مما أثار حسد اولئك المساكين الذين ظلوا واقفين للحراسة ..

ولا ندري بالدقة كم قضينا من الليل ، حين أفقنا جميعا دفعة واحـدة ، وكأننا على موعد مـع مطراتنا . اذ رحنا نلثم شفاهها في شهية بالغة ، بينما تصاعد من الخندق المجاور صوت أسعد الحمادة بشعر غزلي رقيق ، يصف مطرته بصبية قصيرة تبتسم بلا انقطاع ، وينساب رضابها في حلقه الشائك ليجعله طريا كالعجوة .

ويبدو أنني استسلمت لاغفاءة قصيرة ، عندما سمعت هرجا غـير عادي يسري بـين الجنود ، وافقت على الحقيقة الرهيبة : (لقد نفد الماء .) وسرعان ما طار النوم والشبع من عيوننا ومعداتنا . ورحنا نمضغ كلمـة الماء حتى سببت لنا مغصا وعسر هضم . ان معنى نفاد الماء في مثل هذه الحالات أبشع من أن يوصف . خاصة وان رحيلنا سيكون قبل ملء الصهريج ، الذي كان معدا لتزويدنا بالماء طول اليوم التالي . أما من تبقى في مطرته شيء يرطب به شفتيه ، فقد أحكم غوثه السدادة ، وضمه الى جانبه في وعي وحذر شديد ..

والواقـع أن الموقف لم ينجل على حقيقته ، الا بعد فترة مـن الوقت . عندمـا أحس بعضنا بالعطش . وهنـا بدأت المشكلة تتعقد . والشخص الذي وضع يدنا على المشكلة وجعلنا نتلمسها ، هو الجندي حميد فضل الله ، فيلسوف الفئة أو عالم الغيب ، كما يسميه البعض . كان هزيلا كالدودة . في حوالي الثانية والعشرين من عمره . يرى حالما مفكرا عـلى الدوام . كانت له حاسة غريبة بالتنبؤ . وكثيرا ما تصدق

تنبؤاته (ستوزع علينا أحذية جديدة) وتوزع هذه الاحذية في اليوم الثاني أو في اليــوم نفســه ٠٠ (سيذهب بعضنا في مأذونية) ويحدث ذلك فعلا ٠٠ (أنها طائرة صديقة) ٠٠ وتمر من فوقنا بســـلام ٠٠ (هــذه القنبلة ستسقط بعيدة) ٠٠ وهكذا ٠٠ كان اذا سئل : من أين تعرف ذلك يا عالم الغيب ؟ يهز رأسه في تواضع ويبتسم ٠٠ لقد وضع هذا الفيلسوف يدنا على المشكلة عندما قال : سنرحل ٠٠ أو سنهجم بصورة أدق حوالي الفجر ٠٠ وقد كشف عن سر تنبؤاته العجيبة ، عندما فسر التعليمات التي أعطيت الينا في المساء ؟٠

(طعام شهي وزع بسخاء ٠ طلب الينا معاون آمر لفئة أن نحتفظ بالباقي ثم أوعز الينا أن ننام بجميع معداتنا ٠ قبل الطعــام فتشت الاسلحة والذخيرة بصورة دقيقة ٠ كمــا راح الملازم يتلمس الحراب ويتأكد من ثباتها ، وهو يوزع ابتساماته ودعاباته الى الجميع ٠ متى كان الملازم يبتسم بهذا المقدار ؟ بل متى كان يربت على ظهر أسعد ؟ كل ذلك طبيعي ٠٠ طيب ٠٠ لقد اجتمعت اليوم بأحد رفاقي أتى من بطارية المدفعية المنصوبة في الخلف ٠ ماذا قال لي ؟ قال اننا نستعد للهجوم ٠ وانهم أعطوا الاوامر اللازمة للقصف في الساعة صفر ٠ هل تعلمون ما هي الساعة صفر ؟) وصمت قليلا ثم قال : (أعني الساعة ٠٠ صفر ٠٠ وهل هذا طبيعي أيضا ؟ المهم أننا سنسير قبل الساعة صفر هذه ٠ وسترتفع الشمس الى كبد السماء قبل أن نصل الى أهدافنا ٠ وأهدافنا بعيدة بعض الشيء ٠ أعني أننا اذا شئنا أن نسير اليها سيرا عاديا ، نحتاج الى ساعتين أو أكثر ٠ أما في التقرب فاننا نحتاج الى اضعاف هذه المدة ٠)

واســـتمر حمود في التنبؤات ٠ استمعنا اليه في بادىء

الامر دون أن نعيره الاهتمام الكافي • كلنا يعرف معنى الاوامر التي أعطيت الينا • ومـا دام لا يعـرف معنى الساعة صفر ، فمعنى ذلك أنه مثلنا • وطلب اليه أحدنا السكوت • غير أنه عندما بدأ يوضح المشكلة ، رحنا جميعا نصغي اليه في انتباه : المسـافة طويلة •• التقـرب تحت الشمس دون مـاء •• العطش ••

تطلعت حـولي في الخندق الطويل المعتم • الجميـع جالسون تبرق عيونهم في الظـلام • وصاح أحدهم لـم أتبين معالمه من صوته :

ـ ماذا يهم ، لن نموت من العطش ، سـنجد مـاء على الطريق •• سنشرب من الشريعة ••

فرد عليه حمود :

ـ الشريعة على يسارنا يا فهمان • سيكون بيننا وبينها السرية الثانية ••

وارتفع الصوت المنطلق من نهاية الخندق :

ـ من البحـيرة اذن •• سـتكون الى جانبنـا •• وأجاب حمود :

ـ البحيرة ••؟ مسـكين •• لن يشـرب من البحيرة الا أولئك الذين يحمون جانبنا •• انهم الدبابات •

وتحسر الصوت خاتما حديثه قائلا :

ـ ايه ليتني كنت في سلاح المدرعات ••

تمنيت في تلك اللحظة أن أهوي بيدي على وجه حميـد

لاخرسه . لقد بدأ يزرع الخوف في نفوسنا . ان خيانه يضر في بعض الاحيان أضعاف ما ينتجه من فائدة . قد يكون مسليا لفترة ما ، غير أن هذا ليس وقت التسلية . انه يضرب على الوتر الحساس . وصحت في وجهه عندما ران الصمت :

ـ هل لك يا حضرة الفيلسوف أن تصمت ..

ـ ولماذا أصمت ؟..

ـ لانك جبان ..

ـ جبان .. ؟ أنا أتحداك ..

ـ أرني رجولتك .. اذهب واملء مطراتنا من البحيرة ..

همس س ..

ورفعنا وجوهنا الى الاعلى ..

ـ لم هذه الضجة ؟..

كان صوت الملازم الاول آمر السرية ينتصب على حافة الخندق ، طويلا يكاد رأسه يلامس صفحة السماء . ومن حوله تتغامز ملايين النجوم .

وصمتنا جميعا واصخنا السمع . كانت بضع طلقات متفرقة تصدر بعيدة عن يميننا . تتخللها بعض رشات بطيئة وضخمة ، صحبها انفجار عنيف ، تبعه انفجار آخر أقل عنفا . وسكت الرشاش وبقيت الطلقات المتفرقة . واتجهنا بحواسنا الى المعركة التي تدور .

(لا شك في أن بعض رفاقنا يقومون بعمل ما على الشاطيء

الشرقي . قد يكون بعضهم الآن يطلق الرصاص على العدو دون أن يفكر في الماء . ولكن الماء عندهم بصورة وافرة . لا بأس سنخوض المعركة بدورنا ، ولن تتاح لنا الفرصة للتفكير في الماء . انني أحس ببعض العطش .. لا يهم ذلك .. سنشرب عندما نصل الى الامام ، الى تلك النقطة التي رأيناها عند الصباح . انها محاطة بشجر كثيف ، تقع مقابلنا مباشرة . ستكون هدفنا الاول . لقد حذرنا الرقيب من الشجر . قد تكون مخبأ لليهود . يجب أن نوجه اليه انتباهنا أثناء الاستكشاف ..)

وقطع علي سلسلة تفكيري صوت الملازم :

ـ هل تعشيتم جيدا .. أسعد .. أين أسعد ؟..

كان يغط في النوم في أحد منحنيات الخندق . والله وحده يعلم بماذا يحلم . ويبدو أن أحدا قد دفعه بقوة . فغمغم بشتيمة مضحكة ..

ـ انهض يريدك الملازم ..

وبرز رأسه الضخم من المنحنى .

ـ بلا مزح يا ..

وصاح الملازم :

ـ أسعد كيف وجدت الطعام ؟

ـ مالح يا سيدي مالح ..

وصدرت من جوف الملازم ضحكة خشنة طويلة . تخللتها عدة شهقات وسعلات . وقطع الضحكة دفعة واحدة ليقول :

- طيب · واحد يلم المطرات الفارغة ويلحقني ··

حوالي الفجر كنا قد قطعنا مرحلة التقرب المستور ، واتخذنا تشكيلة معينة ونحن ملتصقون بالارض ··

وبينما كان آمر الحضيرة يتفقدنا ، راح كل منا يشد مطرته الى جانبه في اطمئنان ، وكانت أصوات الطلقات المنبثقة عن يميننا ، قد اتخذت طابعا عنيفا · كما أن أصوات الانفجارات قد توضحت بصورة أخذنا نشعر معها بالارض ترتج · استسلمنا جميعا للصمت · تطلعت الى الامام · كان الظلام بدأ ينجلي ، وأصوات الانفجارات تبدو وكأنما تسعى الينا · كنا منبطحين على الارض · (ستكون فئتنا هي فئة الراس · أنا الجوال الثاني · حمود الجوال الثالث · سنكون رفيقين متلازمين · كان يجب أن لا أوجه اليه كلمة نابية انه انسان طيب ··)

وفجأة برق ضوء خاطف ، لفنا جميعا بشملة بيضاء · والتفت الى اليمين · كان حميد يرفع معصمه الى عينيه ، كأنما هو يريد أن يدخل فيهما ساعته المستطيلة · والتفت الي بدوره هامسا :

- أنظر ها هي ذي الساعة الصفر ·· وأجبته ··

- حميد ··

وابتلعت ريقي في صعوبة ثم أردفت ··

- انني أعتذر ··

وصفرت القنبلة فوق رؤوسنا ·

وتصاعد في البعد لهب أحمر · تبعه انفجار عنيف · وبدأ الهجوم ··

بائع في سوق الحميديّة

في مدخل شارع النصر يكثر ماسحو الاحذية ، والفلاحون الغرباء ، الذين يتشبثون بالرصيف كيلا يضيعوا ، وبائعو الفلافل الذين يقلون عرقهم وأوساخهم في أقراص ، وبائعو الحظ السيئو الحظ ، والدجالون والعاطلون والقوادون أيضا ، وباختصار يستطيع الانسان أن يعيش هناك كما تعيش الجرثومة ·

وفي رأس الشارع انحنى رجل فوق الصنبور ، وكور كفه تحت الماء وراح يعب (بق · بق · بق) كان الماء يسقط في جوفه الفارغ كقطع الحجارة ·

وكان يبدو من الخلف ، بقدميه ومؤخرته ، كرمز لا يمكن تحديده لشيء قذر وبال لدرجة لا تستحق الاعتبار · وعندما امتلأت معدته ، استقام في كلل شديد وكأنما ينهض تحت جدار من الاسمنت · اح ·· ومسح فمه بظهر كفه ·

لم يقل الحمد لله ، فقد نسي هذه العبارة منذ أمد

بعيد ، أو الحمد لاحد ٠٠ لان أحدا من الناس لم يهبه شيئا حتى ولا ماء ، ولو كـان للماء ثمن ، لمـا حصل عليه بأي حال من الاحوال ٠

ومنذ مساء الامس أخذ يفكر على الشكل التالي :

ان الماء هو أرخص شيء يمكن أن يملأ به معدته ، معدته الخاوية على جوعها ٠ والماء ، فضلا عن أنه بلا ثمن فهو سهل الهضم ، والاشياء السهلة الهضم يقولون انها صـحية ٠٠ لا بأس اذن ٠٠ ومشى خطوتين فقرقعت امعاؤه ٠ مرحى لقـد أحسست بالامتلاء ٠

يجب على الانسان أن يكـذب ، لكي يعيش ، هذا مـا استنتجه أخيرا ٠ واذا لم يجد أحـدا يكـذب عليه أو يغشه فليكذب على نفسه ٠٠ على معدته ٠ أستطيع أن أفرض نفسي أنني تغذيت اذن ٠٠ حسنا ٠٠ واستند على حـاجز المراحيض العمومية ، وراح ينتظر زبونا للحذاء البالي الذي يحمله منذ يومين ٠ لقد اهتدى أخيرا الى هذه الطريقة من أجل العيش ٠٠ أن يبيع حذاء عتيقا ٠ يستطيع الانسان أن يسير حافيا مـدة طويلة ، أما جائعا ٠٠ وهنا خصم أفكاره ، سوف تسمع معدته حديث الجوع فتثور ٠ يجب أن يخدرها بالاكـاذيب والمـاء والهباء ٠٠

ان التسول والسرقة لا يرضى بهما رجل يحترم نفسه ، ويظهر أنه من هذا النوع من الناس الذين يحترمون أنفسهم ٠ وتأمل الحذاء بعينيه وفكره ، فراودته فكرة مضحكة : لمـاذا لا يعرض الحذاء في معرض (الانتيكا) ؟ لا شك في أنه سيعجب أحدا من الغرباء ، أو الاغنياء ، بل لربما قبض ثمنه غاليا جدا ،

كاثر عتيق خالد . وفي هذه الحالة سيبيع اثاره العتيقة جميعا ، سرواله وصدريته باعتبار أنهما تحفتان . ما الفرق بينها وبين الحديد الصدىء اذن . تلك التي يسمونها اثارا ؟ وفي الحقيقة كان الحذاء مثيرا للتأمل والرثاء في آن واحد . ومما يثير الدهشة فيه هو أن يسمى حذاء ، لانك لا تستطيع أن تطلق عليه هذا الاسم في أي حال من الاحوال . فأبسط تعبير عن الحذاء هو ما يوضع في القدم كي يفصلها عن الارض على أقل تقدير . أما هذا الشيء الذي يحمله والذي يسميه باسمه القديم البالي (حذاء) ، لا يمكن حتى للنفايات على ضعتها أن تقبله في زمرة من زمرها المتعددة الاشكال الالوان .

والآن وهو يستند على حاجز المراحيض ، أحس لاول مرة أنه عرف كيف يغش نفسه ما دام لا يستطيع أن يغش أحدا من الناس . ورفع الحذاء فجأة في وجه قروي نصف ميت وزعق « سباط » جديد .. يا سباط .. وانتفض القروي وتعثر بقدميه وكاد يتهدم لو لم تسنده شجيرة حور على الطريق . يبدو أن هؤلاء الزبائن لا يحتاجون الى أحذية ، لانهم يصلون الى القبر قبل أن يفكروا باستعمالها . يجب أن أجد طريقة أخرى للبيع . ان الصراخ لا يفيد شيئا . اذ أن البعض يظنونني أغني أغنية من نوع جديد ، والبعض الآخر ، وهم العقلاء ، يحسبونني مجنونا أسلي نفسي . والمجانين في هذه الآونة كالعقلاء تماما ، يفعلون ما يبدو لهم . وعلى كل حال فانني لا أجذب بصياحي انتباه أحد ، أو أرعب بالاحرى غير المفلسين ماديا وروحيا ، أولئك الذين يلهثون وراء الصحة والرغيف ، فيسقطون فجأة قبل أن يحصلوا على ضالتهم . أما الاحذية فآخر شيء يمكن أن يفكروا بها ، آخر شيء على الاطلاق .

وشهر الحذاء وصاح سباط جديد ٠٠ جلد تمساح ٠٠ جلد بغل ٠٠ ج ٠٠ وتشبثت فجأة في صدره نوبة من السعال الاصم الاخرس ، راح يتلوى خلالها حول نفسه كالافعى ٠ وخرجت أخيرا من فمه قطعة حمراء ! هـ ٠٠ يبدو أنني أمضغ رئتي لاملاء معدتي ٠ حسنا ٠٠ هكـذا اذن يأكل الانسـان نفسه ٠ لا ريب في أن معدتي ورئتي سينتهيان في وقت واحد وفي مدة قصيرة على أبعد تحديد ٠ لا بأس ٠٠ ان في المـوت ـ كما يقول المجربون ـ راحة أبدية ٠ وقفزت أفكاره الى القبر المظلم ٠ ان الله العلي العظيم يطعم الديدان فلماذا لا يطعمنا ٠؟ وتصور نفسه في قبر ـ والجائعون كالفلاسفة تمـاما يبدون خياليين الى درجة مؤثرة ـ وديدان من جميع الاشكال والاحجام تنخر بطنه وعينيه ، وتبحث عن رئته بصورة خاصة لسهولة ابتلاعها ٠٠ ووضع يده على صدره وكتم السعلة من جديد ٠

وأفاق على زعيق طفل رفيع ٠

ـ بويه يا بيك ٠٠ بويه أصلية بفرنك ونصف ٠!

وطرق الطفل فرشاته على رأس صندوقه ثم راح يقلبها في الهواء ٠ كان الطفل حافيا عاري الرأس ٠ وقد بدا شعره المجعد كفرشاة ثانية قذرة ومستديرة ٠ أما بنطاله وقميصه اذا صحت تسميتها بأسم من الاسماء ـ فكأنما كان يستخدمها في تنظيف الاحذية ٠ أما رقبته وقدماه فقد بدت بلون واحد ، وكأنما يلصقها جميعا في الارض ٠٠ في الوحل ٠٠

ـ أتريد أن تمسح يا أخ ؟ ٠٠ هات ٠٠ بفرنك واحد ٠٠

ولم يفهم الرجل شيئا في بادىء الامـر ان هذا الطفل يظن أن معي من النقود ما يجعلني أفكر بمسح حذاء ٠٠

ـ هات ٠٠

ـ ماذا ٠٠ ؟

ـ الحـذاء ٠٠ لامسـحه لـك ، سـيصير جديدا ٠٠ لماذا تضحك ؟٠٠

ـ لانني لا أستطيع أن أبكي ٠٠

وفكر وهو يترنح قبل أن يقف أمام الطفل ٠

(هل تعلم ما أعني ؟ الانسان يضحك ويبكي بسـهولة فائقة لانهما بلا ثمن ٠٠ انني أضحك لانني جائع ٠٠ أليس ذلك رائعا ؟٠ جائع منذ ظهر الامس والآن أبيع حذائي لآكل ٠ ولو كنت أملك قرشا واحدا لاكلته ـ أعني اشتريت به ما يؤكل ، وهذا الحذاء لا يستطيع أن يوفر لي رغيفا ٠ هل تعلم ما أقول ؟٠ أنا لم أفكر طول حياتي بمسح الحذاء ٠٠ هـذا الحذاء لبسته متأخرا جدا ، وقد خدمني بصورة يشكر عليها ، لانني خلال هذه المدة كنت أبحث واياه عن عمل ٠٠ في الماضي كنت ألبسه بقدمي ، والآن أحمله بيدي ، غـير أن المنحوس منحوس ٠ كلانا ، كما يبدو لا يستطيع أن يطعم الآخر ٠٠ مهما أفنينا حياتنا ـ كما ترى ـ في سبيل ذلك ٠٠)

وصمت الرجل في اكتئاب متابعا حركـات عيني الطفل السريعتين ، وملامح وجهه البريئة التي اكتست بصورة تدريجيا بمسحة من التفكير المضحك ٠

وزقزق الطفل أخيرا بعد أن فكر بما يجب قولـه في هذه اللحظة الحرجة ، والى هذا الرجل البائس ٠

– اذن أنت لا تريد مسح الحذاء ، طيب مع السلامة ...
وهز الرجل رأسه ، وكأنه يقول : الله يسلمك ، ويبدو انه بهزة رأسه هذه ، تجاوبت فيه افكار جديدة ومن نوع آخر ، لعله ، لم يظهرها في حياته .

لقد أحس بشيء يغلي في صدره ، ولعله بقايا القوة الفانية التي تثبت وجودها حتى النهاية . ان هؤلاء الناس ، لا يهمهم أحد حتى ولا من يموت . ان الكلاب تثير انتباههم بصورة افضل . وفي هذه الحالة يكون الحيوان خيرا من هذا الانسان . لقد رأى في احدى المرات سيدة أجنبية تحمل قطتها ، وهي تذرف دموعا ثخينة موجعة . وقد اغمي عليها في باب العيادة . وعندما سئلت عن مرضها المؤلم ، أجابت بين الشهقات والعبرات :

– ان سوسو .. سوسو المسكينة يا حبيبتي ... آه أن سوسو ... لم .. لم .. تتعش جيدا ...

وراحت أفكار وذكريات جديدة تمليها على رأسه معدته الخاوية . وأحس بهاتف عميق قوي ورصين : أنت أيها الرجل ... أنت انسان .. أنت أثمن وأعظم قوة في هذا العالم . يجب أن تحصل على الطعام بصورة اسهل مما يحصل عليه الحيوان . ان ذلك من حقك . هذه الارض لم تخلق لواحد أو لعدة ... انها للجميع .. بلا استثناء . ان الله يطعم الديدان ، والكلاب ، والخنافس ، فالاحرى به أن يطعمك أنت . ومعنى هذا أن طعامك موجود في كل مكان . ان لك حصة في كل شيء . غير انه يسرق منك . هذه هي الحقيقة ، انه يسرق منك أيها الرجل .. هل تعلـم ؟...

وداهمته نوبة السعال وكان ، يقطع الطريق من شارع

النصر متوجها الى مدخل سوق الحميدية ، وعلى الرصيف تماما بصق لطخة حمراء ··

ان معدتي تأبى بشمم أن تأكل رئتي ، ان تسرق شيئا منها · انها تلفظها خارجا · ان هذا العصر هو عصر الذئاب والنعاج ، وأنا من هذا النوع الاخير ، اذن يجب أنأ كون ذئبا لاصارع الذئاب ·· الذئاب السارقين ، وأخذ حقي ·· حقي المسلوب ··

ووجد نفسه يسير في سوق الحميدية · هنا طبقة اخرى غير طبقة المراحيض · هنا يسير أناس باوداج منتفخة وبطون أكثر انتفاخا · وابتسامات راضية مطمئنة سعيدة · من هنا يجب أن أحصل على الغداء ···

ورفع الحذاء عاليا وزأر : غداء ·· غداء ·· غد ··· آه ماذا أصيح ؟·· بدأت أضيع رشدي دون ريب ·· حذاء ·· غداء كلمتان متشابهتان ، لا شك في أن معدتي هي التي تصرخ · وتوقف بغتة أمام احدى الواجهات العريضة · هذا سيد يبتسم له في وداعة ··

كان شابا أنيقا جدا جميلا للغاية ، عيناه زرقاوان صافيتان ، وخداه احمران متورمان كالتفاح ، وشفتاه رقيقتان بنفسيجتان كالاقحوان · وحدث نفسه : هذا السيد هو ضالتي ، انه يبتسم لي في حب ووداعة لم أرهما في حياتي ··

ـ آه يا سيدي انظر : انني أحمل هذا الحذاء منذ الامس ، حذائي أبيعه لاكل ·· هل هذه عدالة ؟· انك تبتسم لي ، وهذا ما يشجعني على سرد قصتي اليك ·· أنت لا تأنف مني أليس كذلك ؟··

وانني كما تراني أبصق دمي في الشـارع واملأ معدتي بالماء منذ يومين • ولاشك في أن لي رائحة جد كريهة ، لا أشمها، لانني لا أحس بها • انه لايبدو عليك الاشمئزاز لمنظري ، لا شك في انك رحيـم •• جـد رحيـم •• اذن يا سيدي اشتر هذا الحذاء • لا تلبسه ، ان لك ولا شك أحذية كثيرة ، هذه التي تضعها أمامك ولكن •• ماذا أفعل ؟ خذا هذا ، افعل به ما شئت واعطني ثمنه لاكل • انني كما تراني يا سيدي أدور منذ يومين دون أن أعثر على سيد مثلك • أنا لا أطلب حسنة ، استطيع أن أعمل ، انه لا يزال عندي قدرة على ذلك • انني اعطي شيئا مقابل الطعام •• اعطي حذائي ، قوتي أيضا •• اتسمعني ؟• لا شك في أن قصتي محزنة ومع ذلك فأنت تبتسم ، لا بأس انها دلائل الرحمة • ستمد الآن يدك الى جيبك •• خذ الحذاء •• انه يساوي شيئا ولو قليلا ، ثمن رغيف مثلا ••

ولقد طردت أيضا ـ نسيت أن احدثك من البدايـة ـ طردت من الخان الذي الجأ اليه ، منذ ثلاثة أيام ، لانني أقلق النائمين بصفير حنجرتي • لقد نصحوني الا أدخن • وعندما أقسمت لهم انني لم أذق السيكارة منذ شهر ، ثارت ثائرتهم واتهموني بالكذب •• انهم رجال أقوياء ، وغلاظ غير انهم رحيمون •• فقد طردوني في بساطة عندما بصقت أمامهم • وقد حاولت أن أكتم السعلة في صدري غير انها تتغلب علي بصورة فظيعة • وفوق هذا ، فانني أبصق دما في أغلب الاحيان •• ان ذلك محزن أليس كذلك ؟••

وما برح السيد يبتسم بوداعة وصفاء عميقين ، دون أن يطرف له جفن ، أو تختلج على وجهه تأمة ••

وتأمل الرجل •• تأمل بعينين جائعتين • •تأمل وجـه

السيد المنعم الذي يملك عشرات الازواج من الاحذية فقط ٠٠ تأمله بعينين حمراوين جريحتين ٠ فلمح فجأة وبصورة مباغتة، كومضة البرق ، لمح وراء الابتسامة الناعمة أنيابا ، أنيابا طويلة سامـة ومشحوذة ، أنيابـا تتأهب لتغرس رؤوسـها في لحمه المسلول ٠

ان هذا السيد يسخر مني اذن ٠ انه يراني ولا شك أمامه دمية كبيرة بشعة وكريهة ٠ انه يضحك على وجوعي ، وعريي ومرضي ، وتشردي ٠٠٠

آه أيا الوحش الجميل ٠٠ أيهـا اللئيم أيهـا الـ ٠ أنت تسخر من آلامي ، وجوعي تسخر من انسانيتي ، أيها الوحش ، سأفقا عينيك انتظر ٠٠

ورفع قبضته بغتة وضمها بجماع قوته ، وراح يهزهـا عنيفا عنيفا في وجه تمثال من الشمع ٠٠٠

وبينما كانت يده تحاول تحطيم الزجاج خرج فجأة ٠٠ تمثال آخر ٠٠ خرج من المخزن الكبير ، كانت القبعة تهتز في وجهه وعلى شفتيه ابتسامة مماثلة ٠

٤٢ راكباً ونصف

لقد اعتدنا أن نرى الجماجم البشرية في المتاحف ، والقبور المنبوشة ، وخزائن الاطباء ٠٠ وان نشاهد صورها في منعطفات الطرق وعلى خزانات الكهرباء والاماكن الخطرة ٠ أما أن نراها محمولة على الصدور فذلك منظر شاذ ٠٠ غريب ٠٠ بل مرعب ٠ ولعل أول جمجمة رأيتها في حياتي ، كانت في خزانة التطبيقات في مدرستي ٠٠ واعترف بأنني حملتها بيدي ، وتفحصتها في امعان ، ودرست اقسامها جميعا ٠ وادخلت اصبعي في محجريها ، والصقت عيني مكان الاذن ، لاتتبع بالدقة ثقوب اجهزة السمع ٠ فعلت كل هذا دون أن يخطر في نفسي أدنى شعور بالخوف أو التهيب ٠ ولم أفكر في أن جمجمتي قد تحمل يوما ما بيد اطفال صغار ، يدرسون اجزاءها ، أو علماء سيكولوجيين يبحثون عن مدى ذكـاء صاحبها وعبقريتـه ٠ أو مدى اصالته بالوحشية والاجرام ٠٠ المهم ٠٠

لقد حملت في يوم ما جمجمة بيدي ، جمجمة انسان ٠٠ أو جمجمة مخلوق كان انسانا ، حملتها كما أحمل قلم الرصاص ،

دون أن اتساءل — على الاقل — ترى هل هي لذكراكم انثى ؟٠
ودون أن يخطر في بالي أي سؤال كان ٠ كان همي الوحيد هو أن أنال علامة في التشريح ٠٠ لاقفز الى الصف الخامس ٠٠ فقد كنت طفلا ٠٠

أما الآن ٠٠ وكلما تذكرت هذه الحادثة ، تعتريني هزة ترعد كياني ، فائتي على شجاعتي التي كانت ثائرة ٠ وأسف على طفولتي التي لم تخلد ٠٠

واستطيع الآن أن أعترف في جرأة ، بأن للجماجم البشرية، فلسفة خاصة ، وتعبيرات ساخرة أو مخيفة ، تنطق بشيء بليغ، أشد تأثيرا من مواعظ رجال الدين والسياسة والاخلاق ٠٠ وباختصار ، يمكنني أن أجزم ، بأن الجمجمة البشرية هي مرآة حقيقية ، نرى فيها أنفسنا ، خفايا أنفسنا في جلاء ووضوح ٠ وبصورة تعجز معجزات علماء النفس ، عن كشفها أو اماطة اللثام عنهـــا ٠٠

ان الجمجمة البشرية ، هي مكبر دقيق وحساس ، يرينا ضميرنا المسكين ، وهو يتآكل ويفنى ، وتنخر فيه ملايين الديدان الصغيرة ٠ ان جمجمة ميت تريك نفس انسان ، أليس ذلك مدهشـــا ؟٠

حدث ذلك في يوم من أيام الصيف ، وكان المصطافون في الربوة ، جالسين وسائرين يملأون أفواههم بالصياح والطعام ، وينتشرون زاحفين كالنمل في الثقوب والمنحدرات وبين غيلان الشجر ، متغلغلين في كل الاتجاهات كيوم النشور ٠ وحل المساء فانسابت كتلهم تتحرك نحو الطريق العام ، منتظرة وسائط الركوب لتعود الى البيوت ٠ ومـر الباص ، وقبل أن يتوقف

تسلقه الناس من الابواب والنوافذ · وراحوا يتدافعون بالارجل والايدي والمناكب · ولم تقصر الالسن عن الاشتراك بهذه المظاهرة · فراحت بدورها تجود بما تفيض به القرائح من ألوان السباب والشتائم ·· وبكى الاطفال المساكين المحمولون على السواعد · وتأرجحت رؤوسهم في جميع الانحاء ، كثمار ناضجة على اغصانها ، تهزها أيد شريرة · فيما كانت اجسادهم الغضة تعصر ما بـين صدور وظهور · وتصايحت الامهات وراحت الافواه تقذف الحمم · رجال بقنابيز حريرية ولفـات اغبانية ، وآخرون بشراويـل عريضة وشملات زرقاء · وشبان ببناطيل وقمصان مشمورة الاكمام · ونساء ملفوفات بملاءات سوداء محجبات الوجوه ·· وآخريات وفعن المناديل في هذه الزحمة الخانقة · واوقعت امرأة صرة طعامها ــ ما تبقى من طعامها ــ عند مدخل السيارة ، ثم انحنت لتلم الزيتون وفضلات الخبز ، فشكلت حاجزا يصعب اختراقه · وبسرعة ، ودون أن تدري ، وجدت نفسها تداس بالنعال الخشنة واللطيفة على السواء · وضاع صياحها في خضم الضجة المتلاطمة ·· وحدثت حوادث اخرى أقل أو أكثر أهمية · ثم امتلأت السيارة · وتكدس المصطافون فوق المقاعد وفي الممر على الارض ، وحجبوا النوافذ والابواب · وفوق اكتاف السائق تعلق طفل صغير اضاعته أمه ابان المعمعة فنسي أن يبكي · ولم يبق هناك مكان حتى لحشرة · وانتهى الامر · وعلى بعد خطوتين من السيارة ، اجتمعت كومة من الرجال ذوي الشهامة ، وتكفلوا بانعاش المرأة المطحونة ، وكانت فاقدة الرشد ، ونصف عارية تقريبـا ··

وظل السائق ينظر في المرآة لا يريم أو ينبث · في حين كان صراخ يتصاعد من مكان ما من الداخل ، يرجو الواقفين أن ينزلوا ،

والا تعرض السائق لكتابة ضبط • وبح صوت قاطع الاوراق ، فآثر الصمت بعد ان وجد ان وسائله الاخرى لا تجديه نفعا ، خاصة وانه هو نفسه ، أصبح يجهل أين حل به الزمان والمكان ••

وأبى السائق أن يتحرك • وعندما عيل صبره ويئس يأسا تاما من استجابة الركاب لنداءات معاونه ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع •

(•• دين هالشغلة ودين هلي علقنا فيها ••) ثم احنى رأسه ، وبصق بين قدميه بقرف شديد ••

– اسمعوا يا جماعة •• الشرطة لا ترحم أحدا • مالي مستعد آكل مخالفة ثانية •• اتفضلوا انزلوا ••

مستحيل اتحرك ومعي راكب زيادة ••

مستحيل اتحرك ومعي راكب زيادة ••

وعاد يتأمل المشهد في المرآة • رأى الركاب الواقفين ينظر بعضهم الى بعض • وضايقه كثيرا رجل لوى رقبته الرفيعة متظاهرا بالصمم • وتطلع آخرون في سقف العربة بلا أدنى اهتمام • وفي الوسط أقسمت امرأة تحمل وجها مستديرا أحمر كقرص البندورة ، بأنها لن تنزل مهما كلف الامر ، وكانت محصورة بين شابين بدا على سحنتيهما أنهما راضيان تماما عن هذا الوضع • حتى أن أحدهما غمغم بكلمات مبهمة ، فيما كانت يداه لا تكفان عن الحركة ••

وفجأة صاح رجل من الخلف بدا من صوته أنه رجل دين ••

– انزلوا يا اخوان •• انزلوا •• لا فائدة •• سنركب في الباص الثاني ••

وورد شاب من المقدمة في حنق بالغ :

ـ انزل حضرتك بالاول ٠

فتململت المرأة المحصورة وبدا عليها أنها تكاد تختنق ، أو انها في حالة يصعب تفسيرها ٠ وكانت تسد الباب الامامي امرأة أخرى سمينة مكتنزة كالفيل ، فكانت الضحية الاولى لاذعان أحد الركاب للنزول ، فقد نطحها في صدرها برأسه ، ثم سقط واياها على الطريق ٠ وبعدها حدث كما لو ان معجزة قد تحققت ٠ اذ هبط الواقفون جميعهم ٠ وفي لحظة ما ، وجدت المرأة ذات الوجه المنتفخ انها بقيت وحيدة ، فشخرت من أنفها شخرة نابية ، وقبل أن تتحرك من مكانها ألقت على السائق نظرة مسحوقة تنضح بالكيد ٠ ثم سحبت نفسها الى الباب ٠ وتنفس الجالسون الصعداء ٠ وأعطى المعاون ـ وكان قد ظهر شبحه لاول مرة ـ ايعازا الى السائق باستئناف المسير ٠

ولكن هذا لم يتحرك ، بل راح ينظر الى الباب في جمود ٠ ثم مد يده ليساعد أحدا على الصعود ٠ وظهر في المدخل شاب يسند على صدره حملا خفيفا وبسيطا للغاية ٠ كان يسند على صدره لوحا خشبيا مربوطا الى نطاق من الكاوتشوك ومعلقا في رقبته ، كما يفعل بائعو الخردوات المتجولين ٠ وعلى اللوح الخشبي كان يتكوم نموذج بشري ، أو مشروع لفكرة سقيمة عن خلق انسان ٠٠ كان النموذج عبارة عن جمجمة وساقين وأشياء أخرى ٠٠

كانت الساقان متصالبتين ، تنتهي كل منهما برجل صغيرة مكورة ، وأصابع دقيقة متقلصة غير كاملة النمو ٠ وفوق الساقين كانت الجمجمة تهتز على صورة تبدو فيها أنها غير مستندة على

شيء . وكان يظهر تحتها ، بصعوبة ، قضيب رفيع وقصير من العظم والجلد ، يفصل الجمجمه عن الساقين . ويتفرع منه كمان صغيران باليان ، ينتهي أحدهما ببراعم معقوفه شبيهة بمخالب النسر . متداخلة فيما بينها لدرجة يصعب عدها . وينتهي الكم الآخر بأصابع أخرى أطول من الاولى ، ممسكة بتفاحه ذابله متضومة من بعض جوانبها . وكان يبدو على الجمجمة أنها صماء لا تتحرك الا من الاهتزازات المتأتية من حركة الرجل حامل النموذج ..

كان قد غرس في جبهتها انف دقيق ذو فوهة واحدة مطموسة . وعلى جانبيها نبتت اذنان متناهيتا الصغر . وتحت الانف كان يوجد فم عادي مغلق ، ذو شفتين طبيعيتين تماما .. وفي الاعلى تفتح وقبان عميقان عن عينين واسعتين ثاقبتين تترجرجان كنقطة الزئبق . ولعل هذه البادرة هي كل ما يجعل هذا النموذج ينبىء بأن له صلة ما ، بعالم الاحياء .

وقف الرجل في مقدمة السيارة دون أن يكترث بأحد ، وراح بعينيه يبحث عن مكان شاغر . وبالرغم من أنه لم يكن يهدد أحدا من الركاب بأية وسيلة من وسائل الرعب أو الفناء ، الا أنه أصبح بلحظة قصيرة مهيمنا على كل شيء . اذ تعلقت أعين الركاب بهذا الشيء المحمول على صدره ، ثم تكشفت عن أعماقها أشباح ابليسية مقيتة ترقص من الفرح ولكن بصورة مفزعة . وجمدت الاعين ، وتقلصت الاجساد ، وحبست الانفاس ، كالتماثيل . أما الوجوه فقد تجسدت عليها الاثم ، وراحت ترتسم على صفحاتها أشكال رهيبة ، وظلال قائمة سوداء ، وهي تعكس بوضوح ما يتفاعل في نفوس أصحابها من استعراض للحوادث ..

كانت عظام الساقين بارزة داكنة اللون · ولولا تلك الجلدة الرقيقة المثقوبة مكان العينين والتي تغطي ذلك الهيكل ، لما ظن انسان بأن هذا مخلوق حي · ولعل ذلك الاديم الشاحب، كان هو وحده ما يمنع الاسنان عن البروز ، والا لما بقي أحد في السيارة لم يقذف بنفسه الى قارعة الطريق · وتجلد بعض الراكبين من ذوي النيات الحسنة ، وطمأنوا نفوسهم بأن هذا الهيكل ما هو الا نوع من تلك الاعلانات التحذيرية التي يكتب تحتها (احذر خطر الموت) ، ولكنه برغم ذلك كان اعلانا بغيضا، لانه حي ومتحرك ·

ظل الرجل حامل الاعلان يقف جانب السائق ، شامخ الانف ، مرتفع الرأس · وكان طويل القامة ويرتدي لباسا من النوع الخاكي ، ويحجب رأسه بغطاء من النوع نفسه ، وكانت تبدو على ملامحه سيماء الفخر والاعتزاز ، وكانه بطل قلد وسام الشرف ·

وأخلي (للبطل) مكان في الصف الخلفي · فسار بين صفي المقاعد بخطى وئيدة يلتمس مكانه · وعندما وصل اليه ، انحنى قليلا لينزع النطاق عن كتفيه ، ثم وضع حمله على الارض في الممر الضيق · جرى كل هذا والهيكل لا يتحرك · ولكنه عندما أحس ــ كان يحس ــ بأنه أصبح في مكان منخفض بدرت منه حركة مفاجئة غيرت معالم الوجوه من جديد · وحركت زناد الالسنة المبكمة · فقد اهتزت الجمجمة من تلقاء نفسها ، ورفعت وقبيها الى الاعلى وأخذت تتأمل الفراغ ··

وحشرج رجل كان قريبا من المكان ــ يارب ·· عفوك ·· آه ·· يارب ·· ثم رمي رأسه فوق ساعديه واستراح على

مسند المقعد الذي أمامه · وغطى رجل الدين وجهه بيديه العريضتين ، وشرع في قراءة دعاء ابتهالي ·· وفي مقعد اخر صرخت امرأة ، ثم صمتت فجأة · وأكبر الظن انه اغمي عليها ·· وقفزت امرأة من مكانها لتهرب ، ثم سقطت في حجر شاب الى جانبها ذاهلة خرساء · وارتسمت على سحنة شيخ ، قصة السنين الغوابر · وراح يذكر اليتيمة التي ابتزها نقودها · وبينما كان المصطافون يعترفون باثامهم ويتمثلونها خير تمثيل ، ارتفع كم الهيكل ذو التفاحة الى الفم المغلق ، وراحت الاسنان تقضم من جوانبها قضمات صغيرة · وهنا اطل الطفل الذي كان ضائعا من فوق كتف أمه ، وصاح في جذل ·

– ماما ·· شوفي ·· عم ياكل تفاح ··

وضمت الام طفلها الى صدرها · وعصرته في شدة لتخمد أنفاسه أو تسد حلقه ·· وراحت تتساءل ··

– يا ترى هل يعرف زوجي ؟·

وتقلصت زوايا فم الام واعترى وجهها شحوب قاسي المرارة ··

وكانت السيارة تدرج في ببطء شديد ، وفي داخلها تدوم الدعوات والابتهالات ، وكأن السائق نفسه كان يتوقع حلول كارثة لا يعرف كنهها ، كما لو أنه يقود سفينة غارقة الى شاطيء لا أمان فيه ·

وكان يجلس الى جانب الحمال شاب في مقتبل العمر ، قرأ بعض الكتب وحصل على شهادتين دراسيتين · فدفعه الفضول الى التمعن في تفاصيل هذا الهيكل ومحاولة دراسته عن كثب · وراح يتساءل :

لا شك في أن لهذا المخلوق حواس كاملة كحواسنا تماما ·

فله اذنان تسمعان الاغاني والضجيج ٠ وعينان تريان العالم البديع ٠ ونصف أنف يشم فيه رائحة الزهر ٠ ولسان يتذوق فيه طعم التفاح ٠ وهذه الحواس لا شك في أنها تقوم بعملها ولو على صورة غير كاملة ٠ ثم تنقل الى روح هذا المخلوق الحي تفاصيل مدهشة ٠٠

و ٠٠ تاه الشاب في دوامة من الخواطر ، فلم يستطع الاسترسال بها ٠ من أجل هذا رفع جبينه الى الحمال وسأله في تهيب :

ـ كيف يعيش هذا الانسان ؟٠

فحدجه الحمال بنظرة ساخرة ، وفضل أن لا يجيب على هذا السؤال السخيف ٠ غير أنه تمعن النظر في محدثه مليا فاشفق عليه وأجاب في اختصار :

ـ يعيش مثلما يعيش كل الناس ٠٠

قال الشاب وقد ضاعفت هذه الاجابة من فضوله :

ـ هو يسمع ويرى ويذوق طبعا ٠٠

ورد الحمال في دهشة :

ـ طبعا ٠٠ مثلك تماما ٠٠

قال الشاب في عصبية :

ـ ولكن أنا أفرح وأتألم ٠٠ وأقدر أن أعبر عن انفعالاتي ٠٠

ورد الحمال في نفاذ صبر :

ـ وهو أيضا يفرح ويتألم ٠٠

وفكر الشاب :

(ترى هل تعصف في جمجمته زوابع الالم كلما أحس بالنقص ؟)

ومن الغريب أن يخمن الحمال على الفور ما دار في رأس الشاب لانه قال :

– على كل حال ما أحد عاش في رأسه ..

وتشجع الشاب فرفع الكلفة وراح يسأل :

– والآن .. وقت صاح الطفل ..

– أما رأيت وجهه ؟..

– رأيته .. ولكن ما لاحظت شيئا ..

– على كل حال .. ما تطلعت مليح ..

وقال الشاب بلهجة حزينة :

– مسكين .. أين لقيته ؟

أجاب الحمال في نبرة غاضبة :

– لقيته ..؟ العمى .. هذا أخي .. ابن أمي وأبي ..

ويبدو أن بقية الركاب كانوا مشغولين مع ذواتهم ، فلم ينتبهوا الى هذا الحديث . ولكنهم استيقظوا دفعة واحدة على صوت صفارة الشرطي ، الذي تصدى للسيارة عند كيوان .. فضغط السائق على الشكائم ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم . وصعد الشرطي ببنوده البيضاء وبيده دفتره العتيد..

ـ أوراقك ··

ورد السائق ··

ـ لماذا يا أفندي ؟··

ـ لانك حامل زيادة ··

ـ أين يا أفندي ؟·

ـ هناك ·· واحد بين المقاعد ··

ورد السائق في دهشة :

ـ بين المقاعد ·· ما في أحد ··

ـ اخرس ·· أنا لا أكذب ··

ـ ولكن هذا ليس راكبا ·· يا سيدي ··

ورد الشرطي في استغراب :

ـ ما هو اذن ؟··

ـ طيب ·· أنت لاحظته ؟

ـ بلا فلسفة ·· هات أوراقك ··

ـ ولكن يا سيدي ·· أنا مستعد أن أعطيك أوراق حين تتأكد اني مخالف ··

ورفع الشرطي يده وراح يحصي الركاب : (واحد ·· اثنين ·· أربعة عشر ·· اثنان وأربعون ·· و ··) وعندما اقترب من الهيكل ·· رفع هذا اليه عينين دهشتين ··

فصرخ الشرطي :

ونصف ·· ونصف ··

ثم قذف بنفسه من الباب الخلفي · وراح يطلق صفيرا حادا ·· حادا كنصول السكاكين ··

ربطة عنق

كان محمود عباس ، أو محمود أفندي كما يناديه صاحب الدائرة التي يعمل فيها ، يتمشى صاعدا طريق الصالحية واضعا يديه في جيبي بنطاله ، ليخفي قصر كمي السترة ، ولشيء آخر لربما يكون برودة الطقس ٠

وكانت يداه تعملان في الوقت نفسه على رفـع البنطال وخفضه ، كي لا يتدلى من المؤخرة أو يقصر من الاسفل ٠ وهذه مشكلة جديدة وجدت عندمـا غسلت أمـه الطقم ونشرتـه في الشمس ، فكان يحاول مـا وسـعه الجهد ، أن يقلص عظامه لتتلاءم قليلا مع الطقم الذي يلبسه ٠ فيجد نفسه مضطرا لان يخضع لطبيعة ملابسه ، ما دامت هذه الملابس بطبيعتها عاجزة عن التعاون مع عظامه ٠ من أجل ذلك تقصر رقبته تارة وتطول تارة أخرى ، ويميل رأسه الى الجانبين ، ويرتفع كتفه الايسر فيبدو كاحدب نوتردام ، وينحني كاهله وتبرز مؤخرتـه ٠٠ وباختصار يظهر كأنما يحشر نفسه في بالوعة ٠٠

وهو عادة في مشواره اليومي هذا على طريق الصالحية

يبتعد ما أمكنه الابتعاد عن طريق الناس ، كيلا يصدم أحدا أو يصدمه أحد • وبصورة عامة ليتحاشى رؤية الناس منه وله • أما تفكيره فلا ينحصر عادة في أمر معين من الامور ، بل يسير تبعا للمصادفات • اذ يتجه أحيانا نحو سحنته ، وذلك عندما يراها فجأة في عيون السيدات • أو الى هيئته ، عندما تمر الى جانبه في احدى الواجهات الزجاجية • أو الى أشياء أخرى ، لا يراها بعينه ولكنه يعيشها ويحسها في أغلب الاحايين • كان يتصور نفسه رجلا ذا سلطة واسعة • أو شخصية فنان عبقري جم المواهب • أو أنه ، على علاته جميعا ، يجد نفسه يتهجم على أحد أعدائه ، ثم يحمله من ياقة قميصه المنشاة كالقطة الجربانة ويقذف به من النافذة ، ثم ينفخ على رؤوس أصابعه ليزيل عنها الغبار •

واليوم باعتبار أنه قد عزم على شراء ربطة عنق جديدة ، فقد حاول أن يفرد نفسه قليلا • اذ راحت عيناه دون وعي منه تنتقلان على صدور الناس الذين حوله ، من صدر الى آخر ، الصدر الناهد والمنبسط على السواء ، دون ما تعيين • وأخذ خياله يصور له الناس على اختلاف هيئاتهم كربطات عنق ، طويلة وقصيرة ، ملونة وسادة ، مائلة ومستقيمة ، تدرج جميعها على الارض ، مرتفعة شامخة الانوف ، كانها أشباح حقيقية •

كانت مسألة الهندام تهمه بصورة مفجعة ، تهمه من الناحية المجردة كهندام ، ثم من ناحية الحصول عليها ، ماديا ومعنويا •

ومن المؤسف أن الناحية المادية ، برغم شدة تعقيدها ، تبدو سهلة بجانب زميلتها الناحية المعنوية • فقد أصبح يؤمن – بعد تجارب لا تحصى – أن وقوفه أمام المرآة ، مهما طال ،

لا يمكن أن يخلق منه تلك الشخصية المنسجمة التـي يتوق ـ ولو ببذل الروح ـ أن يحصل عليها · من أجل هذا صار يتمنى أن يرى الشيطان ولا يرى المرآة ·

غير انه ـ برغم تجاربه العديدة ، وكونه دائما يحس أنه ما زال بحاجة الى شيء من الاشياء ـ لا يني عن البحث والعمل لرفو هيئته وتسويتها ، ليبدو على الاقل ، لا شـخصية بارزة جدا ، بل ناتئة ولو شعرة على الاقل · ومن سوء الحظ انـه يعجز دائما عن الجمع بـين حاجتين منسجمتين في آن واحد · فيصادف أحيانا أن يشتري سترة جديدة ، وما أن يرتديها أمام المرآة ، حتى يلاحظ فورا انها لا تتلاءم مع البنطال بأية حال · وفي أحيان أخرى يرى أن الحذاء الجديد يعجز عن اخفاء كعب قدمه البارز من الجراب ، وعندئذ يلعن السـترة والبنطال والحذاء جميعها ، ثم يلعن نفسه والمرآة ·· وتستمر المشكلة معلقة ، ويبدأ يفكر في شراء حاجة جديدة ·

وفي الشهر الماضي ، بدت له ربطة عنقه العتيقة تحت قبة قميصه الجديد ، كجلد فأرة مشنوقة منذ أمد بعيد · فصمم على قراره الآنف الذكر · وأثناء تجواله راحت الربطات على صدور أصحابها تتراقص أمام عينيه · تظهر وتختفي · ان هؤلاء الناس لا يسمحون له برؤيتها جيدا كما يجب ، وهو الانسان الذي لا تخدعه الامور الاعتباطية · وينبغي له أن يرى الربطات معلقة بالاعناق لا في واجهات المخازن الزجاجية ، وذلك ليكون موفقا في الاختيار · فضلا عن أنـه حـين يطل على الواجهات لا يرى شيئا ·· لا يرى غير صورته المشؤومة · وفكر والاسـى يعقد قلبه : ماذا تفيد ان كانت معلقة في أعناق الناس أو في الواجهات؟· ينبغي لهـا في الحقيقة أن تكون معلقة في رقبتي · فالحيلة في

عنق الشاب الجميل ، أكثر أناقة من ربطة عنق فاخرة على صدري • ما الفائدة في أن تعجبني من بعيد ، وعندما اشترى مثلها واربطها في عنقي ، أبدو فيها كالمحكوم الهارب من حبل المشنقة ، ويضحك علي الناس لا لشيء ، الا لاني ألبسها أنا بالذات ••

وفكر فجأة بالعدول عن شراء هذه الربطة اللعينة ، والخلاص من هذا القلق الذي بدا يسيطر على حواسه • وكاد يغلبه اليأس ، لولا أن تذكر حفلة الامس في الدائرة ، عندما افتتحها أحد زملائه صائحا :

ـ اسمعوا يا شباب محمود أفندي سيشتري كرافة جديدة ••

واستيقظ غالب وحسين زميلاه من نومهما • وصحا الباقون من شرودهم ، فقد وجدوا طريقة لقطع الوقت • فصاح غالب :

ـ كرافة ؟ • اسمعوا : بشرفي من مدة اشتريت واحدة ، وبعد عشرين كوية وغسلة ظلت جديدة ، بزهوتها • وكم دفعت ثمنها ؟ • ورقة ونصف فقط •• أرخص من الفجل ••

وأجابه حسين ، بعد أن طرد النعاس من عينيه في تثاؤب طويل :

ـ طبيعي أن تبقى ربطتك بزهوتها ، لانك لم تلبسها الا في المنام • أنا أعرفك من عشرين سنة عمرك لم تلبس كرافة •

ودافع غالب عن نفسه في خبث :

ـ أنا ؟ • أنظر ••

ومط لحمة صدره المفتوح الى الامام صائحا :

ـ هه •• فيه أحلى من هذه الكرافة •

وانفجر الموظفون ضاحكين •• ثم استدركوا فجأة ، خشية أن تفلت منهم فرصة التحدث عن ربطة محمود عباس الموعودة ، وهو الزميل الوحيد الذي يبدو رزينا ووقورا بين الجميع • لا بصفته أكثرهم تعقلا ، بل لكونه خجولا لدرجة أنه يخاف من صوته اذا تحدث • وقد أدرك زملاؤه بخبثهم نقطة الضعف هذه ، فاستغلوها أبشع استغلال ، وراحوا يستمدون من ضعفه مواد للتهريج وقطع الوقت • ويظل غالب على طول الخط بطل هذه الحفلات • فهو أكثرهم مرحا وأخفهم دما • اذ أنه يتكلم من كرشه مقلدا صوت الاوانس ، ويرفرف خديه مقلدا هدير الدبابة ، ويحرك أذنيه ، ويهز مؤخرته السمينة مغنيا خي خي • وأسف محمود عباس على البوح بسره لهذه الطغمة المتوحشة ، وتمنى لو كفر ولا نطق بتصميمه • غير أنه لا يستطيع ـ مهما حاول ـ أن يقلع عن هذه العادة ، عادة البوح بالافكار التي تأكله مهما كانت تافهة ، والتي يعيش معها محصورا في رأسه الصغير •

وقرر الجميع بعد طول بحث وتمحيص أن كرافة محمود العتيدة ، ستكون تحفة الموسم • وغدا •• غدا حتما سيعطونه علامة الذوق السليم • من أجل هذا لم يستطع أن يعدل عن فكرة الشراء ، لانه سيصبح عرضة لتندر وفكاهات ، لا تنتهي الا بانتهاء حياته ، فضلا عن أنه بحاجة ماسة اليها • يجب عليه اذن أن ينتهي من هذه المهمة ، هذه الليلة بالذات •

وألفى نفسه تحت قيادة أفكاره ، يقف أمام دكان نوفوته .
« اللهم أعطني القوة الكافية » هكذا تمتم ثم تطلع في الواجهة ..
« ان هذا الملعون لا يفارقني » . ولا يخفي أن الملعون المومأ اليه
هو خياله في الزجاج . هنا ربطات من جميع الاشكال والاحجام .
وبجانبها جرابات نسائية مع سيقانها . واستجمع شجاعته
كلها وهم بالدخول . غير أنه تراجع فجأة مبهور الانفاس .
رأى بأم عينيه سيقانا حقيقية . امرأة تجرب زوجا من الكلسات ،
وأخرى تقيس حذاء . واقنع نفسه أن الدكان صغيرة على أية
حال .. سأنتظر .. وخرجت المرأتان بعد ساعة محدثتين ضجة
صاخبة . (آه لو تصابان بالعمى والشلل ، فاقبل شفاههما
حتى الموت وأروي دمائي الثائرة .) هكذا فكر في بساطة ..
ثم دلف الى الدكان كالقطة ..

ــ أهلا وسهلا ..

صرخ البائع . وكان كامرأة ترتدي لباس رجل ، ومرآة
الى جانبه يتفقد نفسه فيها كل لحظة . ومن بين أسنانه
تطقطق علكة أميركانية ، وفي عنقه ربطة لم يخلق الله مثلها .

ــ أمر ..

وصدرت الكلمة من بين أسنانه كأنها مضغة من اللبان .
وتحسس محمود عباس النقود في جيبه ، فداخله الاطمئنان ،
واستمد منها بعض القوة . فشخر :

ــ وي بودي كرافة .

وشمله البائع الظريف بنظرة عابرة ، ساخرة ووقحة .
وكأنه يقول له : أي بيض هذه الجوهرة . وبسرعة البرق

اصطفت أمامه عشرة صناديق · فتحت جميعها ، وبحركة بهلوانية فرشت فوقها عشرات الربطات · ـ وصرصرت العلكة بين أسنان البائع ·

ـ أحسن بضاعة يا استاذ ·· أميركاني طراز أول ·

وتأمل زبونه بعينين ناعستين (لا شك في أنه سكران أو محموم) هذا ما تبادر لذهنه ·· وبعد تفكير طويل ، أو هذا ما خيل للبائع ، مد الزبون يده بحركة غامضة ، ففسر البائع ذلك تفسيرا خاطئا · اذ سرعان ما انقض على الرف ، وحمل خمسة صناديق أخرى :

ـ بضاعة جديدة ··

وفتحت الصناديق ، ولفظت محتوياتها ، وفرشت على اللوح الزجاجي · وخرجت من فم الزبون كلمة وهو يحس بالدوار ··

ـ بكم الواحدة ·

هل هو الذي سأل ·؟ والتفت الى الخلف · لم يضحك البائع · لا شك في أن سؤاله طبيعي في مثل هذه المناسبات · غير أن سببا ما جعل البائع يخطف واحدة من الربطات ، لا على التعيين ، ويطويها بحركة آلية ، ويقدمها الى الزبون بكل بساطة ويقول له :

ـ بلا مصاري يا بيك ·

والتقت فجأة عينا الرجلين ، ففهم البائع زبونه بطرفة عين · وهز رأسه وهو يفكر ·

ـ يبدو أنه زبون معتت .

فمال على الصناديق التي أمامه ، يرجع محتوياتها ، ثـم يغطيها بأصابعه اللدنـة ، وطارت الصناديق كطيور تحط على أعشاشها ، وهبطت أخرى مكانها . فتحت من جديد وفرشت محتوياتها .

ـ هذه أرخص يا أستاذ بخمس ليرات الواحدة ..

ورفع البائع رأسه :

ـ أهلا وسهلا ..

وابتسم ابتسامة خاصة . وجمد محمود عباس في مكانه . وهو يحس بالضياع . فقد دخلت فتاتان جميلتان ، وتسربت رائحتهما الى أنفـه وبـدأت ـ لضيق المكان ـ أنفاسهما تلفح وجهه . ولكيلا تبدو منه أية حركة تنبىء عن وجوده ، حبس أنفاسـه . ولـكي يغيب تمـاما ، استسلم للجمود حتى بـدا كالقنفد الذي غيب رأسه في جلده . وما حدث بعد ذلك :

ان علق له البائع في عنقه ربطة جديدة ذات لون رصاصي، تتنافر تنافرا تاما مع السترة .. أي سترة يمكن أن يلبسها . ثم دفع به أمام المرآة . وعندما وجده يطيل أمامها الوقوف دون أن يدري السبب ، سحبه من الخلف ، وتناول منه بطريقة ما خمس ليرات سورية ، ثم قذف به على قارعة الطريق ..

في الصباح الباكر ، اجتمع المقاومون في بيت القائد ، وكانوا من جميع الاعمار : شيوخا جاوزوا الخمسين ، وفتيانا في الخامسة عشرة · تسلح معظمهم بالبنادق القديمة العهد ، وأسلحة الصيد · وكانت هذه الاسلحة بمجموعها تحمل مختلف الجنسيات والاشكال · وقد اشترك أكثرها بحرب السفر برلك ، وحمل أدلة تشير الى ذلك بكل فخر · وكان المقاومون قد ارتدوا ألبسة متنوعة تناسب الحالة ، ووقفوا على شكل هلال ليستمعوا الى تعليمات القائد فريد ·· فريد كما أخذوا ينادونه دون ذكر كنية أو لقب · وكان هذا قد جلس على كرسي خشبي وراء طاولة في باحة داره الواسعة · وعلى الطاولة ، وجد خنجر فضي من أصل عربي ، ومسدسات مختلفة الاحجام ، لبعضها غلاف جلدي أجرب ، وقنبلة يدوية ، وكيس كتان طبع عليه (صابون النصر أفضل ماركة مسجلة) ويظهر بأن هذا الكيس كان ممتلئا بالخرطوش ·

ورفع القائد فريد رأسه الى الجمع ، ونظر اليهم بعينين كابيتين • ثم ما لبث أن أسدل جفنه وتمتم :

– طيب – •• عال ••

وصمت قليلا ليستجمع أفكاره • ثم وقف ساندا الطاولة بساعديه • كان في حوالي الاربعين من عمره ، ذا صلعة بيضاء ، ووجنتين شاحبتين ، وكرش نصف في مرحلة التكور • كان يبدو بقميصه الخاكي وبنطاله الكبردين ، أقرب لان يكون سائق سيارة عمومية ، غير أن له خبرة لا بأس بها بشؤون السلاح من نوع بنادق الصيد ، واطلاق النار بمهارة • فقد مارس في يوم من الايام صيد الحجل وبعض الانواع الاخرى من الطيور • ولكنه عندما وجد نفسه فجأة قائدا لحوالي خمسين رجلا ، لا يعرف معظمهم ، بدأ يشك في استطاعته أن يقود أحدا من الناس •

وعاد فريد الى الاشياء المبعثرة أمامه يقلبها بكفه السمينة، وكأنه يستمد منها العون على القاء كلمة مناسبة ، دون أن يرفع أنظاره الى الجمع المدقق أمامه • قال بصوت يشبه الهمس :

– والآن ماذا نفعل ••؟ يجب أن نقاتل •• هم الذين اعتدو علينا أولا •• أعني انهم هم كانوا البادئين بالشر •• أليس كذلك ••؟

ورفع رأسه ، ونظر الى الامام دون أن تقابل عيناه وجها معينا ، وكأنه ينتظر اجابة من كائن مجهول ، تبرر ما يمكن أن يفسر بتصرفه الجاف ، أو أوامره القاسية ، أو ما أشبه ذلك • ولما لم يعثر على الجواب الذي يعينه على متابعةالتعليمات، سعل بصوت منخفض ثم أردف •

ـ طيب ·· والآن يجب ·· أو لا يمكن ·· لا يمكننا أن نفعل غير ذلك · أعني أن ندافع عن شرفنا ·· يجب ·· أو · لا يمكننا أن نسمح لهم باحتلال هذا الشارع ونحن فيه أحياء ·· لانه اذا ·· لا سمح الله ··

وتوقف · مشيرا بيديه السمينتين القصيرتين اشـــارة عابرة · محاولا أن يجعل لها مدلولا هاما يغني عن جملة عنيفة · ثم ضحك ضحكة مبسترة ، واحمرت وجنتاه من الخجل · وقال وهو يغض الطرف ··

ـ تعلمون أنني واحد منكم ·· تقريبا مثلكم · هذا هو الواقع كلنا أبنـــاء حارة واحدة · أعني ، بلا مؤاخذة ، عندما طلبوا الي أن أكون القائد ، لم تكن لي رغبـــة أكيدة بذلك · كنت أتمنى أن أكون نفرا أقاتل بارشاد غيري ، وتحت قيادة أي واحد منكم · وأنا الآن سأقاتل كواحد مثلكم لا فرق ·· وصمت ليستذكر حادثة معينة ، ثم أردف ·

ـ بصراحة ، أقول أنني لا أطلب القيادة كما ظن ممدوح بيك ، الذي راح يذيع بين الناس بأنني نافسته عليها · وأنا بشرف عائلتي ورحمة والدي ، لم يكن لي علم أو رغبة في أن أكون قائدا · واذا ··

وانتفض من بـــين الجمع فتى لـــه رأس لامع وشاربان رفيعان وصاح ·

ـ لقد التحق ممدوح بيك بقوات الحكومة بعد أن ادعى أنه هو القائد الحقيقي ·

فأجاب فريد محتدا :

ــ ان التحق بقوات الحكومة أو قوات الشيطان على كل حال فقد برهن على أنه ٠٠

وأسعفه الشاب المتحمس ٠

ــ خائن ٠

واعجب فريد والجمع بهذه الصفة وهمسوا بالموافقة ٠

فرفع رأسه ليستطرد ، غير أنه تضرج وجهه فجأة ونضج بالعرق ٠ فاقترب أحد الشيوخ لمعونته وكان يبدو من لباسه أنه على مستوى طيب من الوجاهة ٠

ــ لا يا فريد ٠ نحن ، بصرف النظر عن أي شيء ، نريد من يدربنا ويعلمنا كيف نقوس وكيف نهجم ٠ أعني ، بالاذن من جميع الحاضرين ، ليس هذا وقت الصد والكلام ، نحن كلنا مثل بعض ، وكلنا بحاجة الى تدريب ٠

وهنا أحس فريــد بأن الشيخ أنقذه فعلا ، من الورطة الموهومة التي كان مترديا فيها ٠ فاكتسب ثقته بنفسه ٠ وتناول بندقية متآكلة من أحد المقاومين ، ويظن أنها من طراز ١٨٩٠ ، وراح يفكها ٠ بينما احتشد الجمع حوله حتى ضاقت الانفاس ٠

كانت الحياة في بيت القائدفريد تسير بشكل غير طبيعي ٠ فزوجته ذهبت الى بيت أهلها مــع الاولاد ، محتجة بأنهــا لا تستطيع أن تعيش مع الرجال ٠ ووافقها زوجها مبديا ارتياحه ٠ وأمه العجوز ، سافرت الى القرية لتكون في كنف عائلتها في هذه الظروف الحرجة ٠ وفي الواقع كان البيت أشبه ما يكون بثكنة عسكرية فقد فيها النظام ٠ يدخل اليها الرجال ويخرجون بشكل مستمر ، دونما استئذان أو حرج ٠ يتلقون التعليمات ويطلعون

على آخر الاخبار • وفي ذلك اليوم كانت الانباء تتوارد بأن الفرنسيين سيحتلون المدينة ، لينهوا الاضراب بالقوة المسلحة •• هذا الاضراب الذي دام ثلاثة أسابيع احتجاجا على بطش الحكومة وتنكيلها بأبناء الشعب الثائر • وبما أن أهالي المدينة كانوا قد قدموا عددا لا بأس به من الضحايا والمعتقلين ، فقد قرروا الاستمرار في الاضراب ، ومنع الفرنسيين من احتلال الشوارع ، والرد على النار بالنار • من أجل هذا اعتمد نائب المدينة الوطني المعارض ، في كل حارة من حاراتها ، رجلا ليكون قائدا للمقاومين • وكان فريد أحد أولئك الرجل الذين اختارهم النائب الوطني ليقود المقاومين في حارته ••

وعندما انتهى فريد من تدريب رجاله على فك البندقيه وتلقيمها بالخرطوش ، أوعز اليهم برجاء أن ينصرفوا فورا لبناء السدود والتحكيمات في الشارع • وتعالت ضجة ثورية على اثر تدافع المقاومين وراء الشيخ ذي الوجاهة لينفذوا الامر •

وتخلف الفتى المتحمس ، وكان في حوالي الثامنة عشرة يعمل أجيرا في نفس الشارع ، يرتدي سروالا عريضا ، وقميصا طويل الكمين وقد صفف شعره ودهنه بالزيت فبدا كأنه يتأهب لحفلة أنيسة • كان كبقية الناس الذين جرفهم التيار الوطني ، وألهبت نفوسهم الحوادث الدامية • فقد أضرب مع المضربين ، وسار مع المظاهرات ، وقابل الشرطة الفرنسيين بالعصي والحجارة • وأصيب بالرضوض المتسببة عن ضربات السياط وأعقاب البنادق • ونقل بيديه جريحا من رفاقه الذين سقطوا برصاص الفرنسيين ، وكان لهذه الحادثة بالذات وقع أليم في نفسه • فقد ظل يتمثل وجه رفيقه الدامي ، وهو يحمله بين ساعديه ويرى ابتسامته الواهنة وهو يقول ••

ـ اه مهلا ٠٠ مهلا ٠٠

وتقدم الفتى من القائد وطلب اليه تزويده بالسلاح ٠ فتطلع اليه هذا زوايا ما بين عينيه ، وقد استرد أمامه طبيعة القائد ـ متشككا في مقدرة هذا الطفل على مواجهة المصاعب ٠ ولكن سرعان ما توردت وجنتاه وقال له :

ـ اسمك من فضلك ٠

وأجاب الشاب بحماس ٠

ـ نهاد الصفدي ٠

ـ طيب ـ عال سأعطيك مسدسا هل تعرف استعماله٠؟

ـ لم أجرب ، ولكني سأتعلم ٠ وأفضل اذا لم يكن هناك مانع أن آخذ قنبلة ٠

ـ آه ـ هذا أفضل خذ ٠٠

وناوله القنبلة الموجودة أمامه وكانت من طراز فرنسي قديم ، وراح يعلمه استعمالها ٠

ـ أنظر هذه الحلقة ٠ تمسك القنبلة بيدك اليمنى هكذا ٠٠ ثم تدخل اصبعتك اليسرى بالحلقة وتشدها ٠ ثم تلقي بالقنبلة على الهدف بأقصى ما تستطيع من قوة ٠٠

وخرج الشاب وهو يحمل قنبلته العتيدة ٠

كان بلاط الشارع قد اقتلع ، وشكل مع سيارة كميون عتيقة حاجزا ضخما يصعب اجتيازه ٠ وقد انحنى المقاومون وراءه يحفرون لانفسهم ثغرات يطلقون منها النار ٠ كانوا

يعملون بحمية مدهشة ، حتى أن القائد وجد نفسه منساقا معهم في العمل · فراح يصدر الاوامر والتعليمات ، ويحمل الاحجار ، ويبني السدود والحواجز · وكان يهتف بين آونة وأخرى :

ـ يا سيد ·· أو يا شب وأحيانا ينادي المجموعة كلها يا اخوان ··

وتوقف الجميع عن العمل دفعة واحدة ، عندما سمعوا من وراء الحواجز صوتا يصيح بهم ·

ـ هجموا ·· المصفحات في رأس الشارع انها تتوجه الينا ·· معهم ضابط يركب سيارة جيب ·· أكثر من مائة جندي في السيارات ··

وتسلق الشاب « نهاد » المواقع الحجرية ، ثم سقط وراءها ، وهو يلهث ويمسح العرق عن جبينه ··

ودبت حركة جديدة بين المقاومين · ادخل كل منهم رأس سلاحه في الثغرة التي حفرها وراح يسدد الى رأس الشارع · وانبطح القائد فريد في أسفل الكميون الذي يشكل أحد الحواجز ، وهيأ مسدسه الرشاش من طراز انكليزي للحركة ·

وانقضت فترة من الوقت قبل أن يسمع هدير المحركات، وتظهر في رأس الشارع مصفحة رسم على مقدمتها باللون الاصفر شكلا غريبا · ثم تتبعها عربتان أخريان تحملان العلامة نفسها ، تتقدمهما سيارة جيب يقودها ضابط برتبة مقدم ··

وتوقف الرتل على بعد مائة خطوة ، ليفسح المجال أمام الضابط ليتقدم بسيارته · وتوقفت السيارة ·

وصاح من وراء الحواجز صوت يقول :

– يا شباب لا أحد يطلق النار لنرى أولا ماذا يريدون ٠

وأنطلق صوت الضابط من داخل سيارته ٠

– افتحوا الطريق بأمر الجنرال ٠

فأجاب صوت من وراء الحواجز ٠

– نحن هنا بارادة الشعب ٠

وكان القائد قد سمع بهذه العبارة من الخطاب الذي ألقي منذ يومين ، في جمع حاشد في ساحة المدينة ، دون أن يدري من هو قائلها الاول ٠٠

ورد الضابط في عصبية ونفاذ صبر :

– ان الرئيس يأمر بفتح الطرق والمحلات ٠

فرد عليه صوت آخر ، ويعتقد بأنه صوت الشيخ ذي الوجاهة ٠

– نحن لا نعترف على هذا ٠٠ الجلاد ٠٠

وسرت حركة من وراء الحاجز ٠ وهنا أطل الضابط برأسه من داخل العربة ، وأشار الى المصفحة بحركة من يده ٠ ثم جرى بسيارته الى الخلف ٠ وحدث ما لم يكن بحسبان أحد ٠ اذ انطلقت من المصفحة قذيفة مدوية ٠ انفجرت في أسفل الحواجز فدكت جزء كبيرا منها ، وأثارت حولها عاصفة من الغبار والدخان ٠ ثم انطلقت قذيفة ثانية وثالثة ، بينما راح المقاومون ينتشلون من تحت الانقاض كائنات تغيرت ملامحها ٠

وعندما انهار جزء كبير من السد ، استطاع من تبقى من المقاومين أن يرى الجنود يهبطون من السيارات وهم يطلقون النار جزافا ٠

واختلط صياح فريد بصياح رشاشه ، فلم يبق أحـــد يسمع أو يرى شيئا ٠ اذ وقف المقاومون وجها لوجه أمام العدو ، دون أن يأخذوا الارض ، كما هي العادة المتعـارف عليهـا عند العسكريين ٠ وراحوا يستعملون أسلحتهم بكل مـا أوتوا من معرفة ٠ وتساقط بضعة من جنود العدو ثم ولوا الادبار ٠

وفي هذه اللحظـــة وجد الفتى (نهـاد) نفسه لا يفعل شيئا ٠ فشد على قنبلته ، وتخطى الحاجز ، وراح يعدو باتجاه السيارة التي ظلت واقفة ٠ وعندما أحس بشيء يخرق كتفه اليسرى ، لم يخطر في باله انها رصاصة ، بل لم يخطر له غير خاطر واحد ٠ واندفع نحو السيارة في جنون والرصاص ينصب حوله كالمطر ، لم ير شـيئا ، ولم يلاحظ أثنـاء اندفاعـه أن السيارة قد بدأت تتراجع ٠ وان المصفحة الاولى يتصاعد منها اللهب ٠ وطوح بيده التي تحمل القنبلة وهم بقذفها ، الا أنه تذكر في آخر لحظة أنه نسي أن ينزع الحلقة ٠ فتوقف ٠ وحرك يده اليسرى نا آلمتــه ٠ وعندما نظـر الى اصبعه داخل الحلقة وجدها تقطر دما ٠٠

وعندها عرف هدفه ٠ ها هو ذا الضابط ينظر اليــه في جزع وهو ينتضي مسدسه ويصوبه الى صدره ٠ وشعر لاول مرة في حياته القصيرة ، بأن ذهنه أصبح في غايــة الصـفاء ٠ وخيل اليه أن ما يقوم به ، هو عمل يومي معتاد ، لا يحتاج الى عناء ٠ وأحس بقميصه يضايقه في ناحية الصدر ٠ وهم بالسقوط عله يشعر ببعض الراحة ، الا أنه أدرك بأن الشيء الذي في يده

يكاد يحرقه · فاستجمع قواه جميعها وضغط على القنبلة ، ثم قذف بها على فوهة المسدس · وسمع انفجارا كبيرا وهو يهوي· وأسند رأسه الى أرض الشارع · فأحس بحرارة البلاط يلهب خده ، فرفعه قليلا ثم أهوى به وأغمض عينيه ، ثم فتحهما · فرأى خيطا أحمر يمتد أمام وجهه يندفع كالساقية · والهب بلاط الشارع خده من جديد ، فحرك رأسه حتى صافحت عيناه السـمـاء · وهنا رأى قبل أن يغمضهما عشرات الوجوه تطل عليه ، وتبتسم فوق وجهه · وأدرك أنه أصاب الهدف · وان الضابط الحكومي قد قتل مع جميع معاونيه ··

وبينما كان رفاقه يحملونه ، تذكر رفيقه الذي نقله منذ يومين · وأراد أن يقلد ابتسامته الواهنة · وان يقول مثله ··

ـ آه ·· مهلا ·· مهلا ·· أو أي شيء آخـر يناسب هذه الحالة ·

ولـكنه لم يدر مـا فعل بعد ذلك لانـه أغمض عينيه ، ونـام ··

أزمة مالية

لم أكن في ذلك الحين فقيرا جدا كما أنا الآن ٠ الا أن ثمن بطاقة السينما كان يؤذيني على كل حال ، أو بمعنى أصح كان يؤذي جيبي ، ولا أكون مخطئا اذا قلت بأن جيبي أصبح جزءا مني لا يتجزأ ، بعد أن جمعتنا معا محن واحدة : هي البؤس والآمال الضائعة والفراغ ٠ ولا شك في أن هذه المحنة الاخيرة كانت أسوأها على الاطلاق ٠ كنت في ذلك الحين اجرؤ على التفكير بكثير من الاشياء ، بل بشراء بعضها أحيانا ٠ فقد كنت أفكر بالغرف الدافئة ، وبمحتويات الواجهات الزجاجية ، وبالسيارات ، وبالنساء أيضا ٠ ومن البديهي أن تفكيري في هذا الصنف الاخير كان جرأة ليس لها حد ٠ غير أن ما كنت أستطيع شراءه من هذه البضائع جميعا ، هي السيكارات والجرائد وأقداح قزمة من عرق مجهول الهوية ٠ أما الذهاب الى السينما فكان يحتاج الى شجاعة فائقة ٠

والآن في هذه اللحظة بالذات فانني أربت على كتف جيبي ، فاسمع فراغه كعويل في مقبرة ٠ والتفت يمنة ويسرة ،

١

فأجد ان آخرسيكارة قد تبخرت من حياتيدون أن تترك رمادا ٠ من أجل هذا أشرع في كتابة هذهالقصة ، لاسلي الناس ، ولربما لاحزنهم أيضا ، من يشعر قلبه منهم خاصة بذلـك الفـراغ المخيف ، الذي هو أرهب من العمل القاتل وأشد قسـوة من الاشغال الشاقة ٠

وفي ذلك اليوم فكرت جديا بأن أذهب الى السينما ٠ ولم تكن هذه الفكرة حلما من أحلامي الكثيرة ، التي تتبدد قبل أن تلامسها الشمس ٠ بل كانت فكرة واقعية وعملية ، لان جيبي كان يملك ثمن البطاقة ، أو بمعنى أصح لم يكن خاويا تماما ٠

كان الوقت مساء ٠ وكانت الشوارع مليئة بالناس الذين يسيرون باتجاهات مختلفة ٠ وكنت قد اعتدت أن أسلك الطرق الخالية ، لانها تشعرني بأني لست وحيدا في هذا العالم ٠ فعدا عن أني أجد فيها نفسي ، كنت التقي في بعض الاحايين بشاب يسير ملتصقا بالحائط يشير بيديه ويحدث نفسـه بصـوت مسموع ٠ غير اني في ذلك المساء أيقنت تمام اليقين ، أنني مهما تجولت فلن أعثـو على نتيجة مـا ٠ عدا أن الجو كـان جارح البرودة عجزت خيوط قميصي عن مكافحته ٠ وأحيانا عندمـا تكون الاقدام تسير في بطء يسير الرأس في سرعة ٠ فاذا لـم يجد شيئا يفكر فيه ، يخاف من شيء مجهول ٠ وأنا خفت في تلك اللحظة ٠ خفت أن يفاجئني شـخصان من وراء احـدى الزوايا ويردياني قتيلا بالرصاص ، ثم يفران الى مكان بعيد ٠٠

يا للسخف ! من أنا يا ترى ؟ وعندمـا اقتنعت بأنني لا شيء ، تصورت رجلا مسنا ينحني أمامي :

– سيدي ٠٠ هذه البناية الكبيرة مات صاحبها اليـوم

وأوصى بها لاول من يمر بهـذا الشارع · وأنت الشـخص الوحيد الذي تستحقها · وأجيبه :

ـ حسنا هيء لي حالا وسريعا غرفة دافئة وسندويشة نقـانق ·

وملأت خياشيمي رائحة توابل زكية · فاستفاقت أمعائي، وأرسلت صرخات مكتومة ، وامتلأ فمي بلعاب مائع ·· وسئمت التجوال ، فقررت الذهـاب الى السـينما · لان التدقيق في واجهات المخازن ، وفي وجوه الناس بصورة خاصة ، لا يبعث على غير المقت والكراهية والكدر · بل يزيدها أضعافا مضاعفة في نفس من يشعر بها على الدوام ·

ووقفت أمام شباك التذاكر ، وأنا أزن ثمن البطاقة بميزان شديد الحساسية يفتقر اليه البخلاء والصائغون على السواء · وقررت أخيرا أن أقامر ، لولا أن وقعت عيناي فورا ، ودون أن التفت حولي ، على أحد الاشخاص الذين كنت أعرفهم في عهود الدراسة · وكان يتأبط ذراع سيدة فائقة الروعة · أو هذا ما خيله الي جهلي الشديد بهذا الجنس الغريب من الانسـان · وكدت أتوارى عن أنظارهما ، لولا أن أمسكني بغتة وصافحني في حرارة مدهشة ·

ـ مرحبا أيها الصديق ·· كيف حالك ··؟ زوجتي ·· صديقي زكريا ·

ولو كان وحيدا لاجبته ببعض الكلمات · غير ان قيافتي المخجلة ، وتلك السيدة ، جعلا لساني ينصهر بين فكي ، فلا أبدي أية حركة · فاستعنت برأسي ، ورددت تحيته بايماءة ذليلة محزنة · وكـان صديقي كريما وشريفا ونبيلا للغايـة ·

وأنا لا أطلق عليه هذه الصفات جميعا لانني لا أملكها ، أو لاني لا أدفع لها ثمنا ، بل لانه فعلا كان في غاية النبل • فقد صافحني في حرارة واخلاص صافيين ، دون أن المح في عينيه أنه تذكر عني شيئا •

بل انني كلما تصورت انه لم يحاول أن يفكر بتلك الحادثة ، أشعر برأسي ينحني ، فأكاد أسجد له • ان رفاقي جميعا يذكرون اني سارق • وأنا أذكر ذلك أيضا • وأنا لست سارقا بالمعنى المفهوم • أي أنني لم أسرق ذلك الكتاب ، بل الكتاب هو الذي فعل ذلك •• تمهلوا قليلا أيها الاعزاء ! ان الكتاب لا يسرق ، غير أن هذا الكتاب بالذات سرق نفسه • فقد جاء الى درجي بطريقة عجيبة فاحتفظت به • هذا كل شيء ! وقد كان هذا الكتاب هو سبب طردي من المدرسة • اذ لم يشأ أحد من الاساتذة أو الطلاب أن يفهم بأنني لست سارقا ، وانما الكتاب هو الذي جاء الى درجي ، بطريقة خفية • وحتى المدير نفسه •• المدير الذي هو سيد الجميع ، استدعاني اليه ، وصب علي جام احتقاره بألفاظ شديدة القسوة •

- استدع أباك بسرعة يا لص •

- ليس لي أب •

- اذن أبحث عن أب يعلمك الامانة •

هذا كل شيء أيها الاعزاء ••

والآن أجدني بسببه أتيه في هذه الدنيا دون عمل ، غير اني اقسم بربي : انني حتى الآن لم أسرق شيئا على الاطلاق • انما وجدت الكتاب في درجي يبتسم ، في صوره الزاهية فاحتفظت به •

أفهموني بربكم ماذا افعل غير ذلك ، هل اطرده ؟ ومن يدريني أن له صاحبا · ان أحدا لم يسأل عنه وحق السماوات · وفعلا فأن حاجتي اليه أقنعتني ، ولقنتني انه ما دام ليس لـه أهل ، وجاء الى درجك من تلقاء نفسه ، فلا بأس في أن تحتفظ به · على شرط أن لا تريه أحدا · هل تسمون هذه سرقـة أيها الناس ؟

اذن اقنعوهم بربكم ·· اقنعوا اولئك الذين لا يفهمون ··

آه لقد شططت ·· ضللت الطريق · كان يجدر بي أن أمسك ببوصلة كي اسير مباشرةالى الهدف كما يقول العسكريون تبا لك أيها القلم ، انت جائع أيضا ؟ حسنا ·· وهذه السيدة التي تتأبط ذراع صديقي ، امرأة فتانةالصورة ، رائعة التمثال· ولـكنها تبدو كمن تخجل من جمالهـا · فهي تبتسم في براءة وتحمر وجنتاها ، وتطرق الرأس ·

ـ تشرفنا

أيتها السيدة ·· انظري الي قليلا · أنا من يقدم اليك وليس شخصا آخر ، ممن تخجلين يا سيدتي ؟ مني ؟ مني أنا ؟ انظري ·· انني لا أستحق ذلك · وأنا خجول اكثر منك لاسباب، أولها وآخرها ، انني شخص تافه · استودعك الله أيها الصديق· ومددت يدي دون أن أقول شيئا ·

فصاح في دهشة :

ـ الى أين ··؟

ـ الى هنا ·· الى هنا ··

ـ ولكنا قطعنا ثلاث بطاقات ·

والآن أجلس على كرسي مخملي الى جوار السيدة ، والى يسارها يجلس الزوج المجنون · لقد دفع لي ثمن البطاقة · أيها الصديق : لقد اطلقت عليك جميع الصفات الحميدة قبل أن تدفع ثمني قرشا واحدا · أما الآن فقد اشتريتني على علاتي بثمن فادح · حدث نفسك ·· فكر ·· الست مخدوعا ؟ هل نسيت انني سارق ·· سارق ··

واصطدمت قدم السيدة بقدمي · فانكمشت على نفسي وتكورت· تمنيت لو أذوب، لو اضمحل، لو اتشقق· كانت ثلاث أصابع من قدمها العارية تبرز من رأس الحذاء · أصابع بيضاء طرية طيبة · ان زاوية مافي رأسي بدأت تحرك أجنحتها · زاوية مهملة ضئيلة ميتة · وبرغم ضجيج الزوايا الاخرى ، واصطخابها، فرشت هذه الزاوية اجنحتها ، وبدأت تزحف كصوص خروج لتوه من البيضة ·

وتمنيت برغم ضآلتي ، ورخصي ، أن أعري قدميهـــا واقبلهما واضمهما الى صدري في عنف شديد · وارتعشت · وخفت أن تنظر الى وجهي فتقرأ ما افكر فيه · وهبت نسمة من الهواء ، فشعرت بالبرودة تلسع جبيني · لا شك في انه يتصبب عرقا · انها افكـــار مخيفة ، ومـــال الى الزوج ·· آه ·· ماذا سيحدث ·· همس بصوت مسموع ··

– ماذا تعمل الآن ··؟

– لا أعمل شيئا ··

– أنا معلم مدرسة ··

وارجع ظهره وأسنده الى الـكرسي · وفكر قليلا بأسى ظاهر ، لا شك في انه نادم على دفع ثمن البطاقة ··

وتحدث مع وزجته قليلا ثم صمت · وهزت هي رأسها ونظرت الي بلطف ، فسقطت عيناي وأفكاري الى الارض واستقرت جميعها على قدميها الطيبتين كالفطائر ؟ يظهر انني جائع ·· ومن سخافة الجائع انه تراود رأسه المآكل · لا بأس ماذا يخسر ما دام لا يدفع لها ثمنا ؟ لماذا يفكر بالاشياء الرخيصة ما دامت جميعها مفقودةعلىالسواء ؟ فلا فكر اذن ··؟ هذا الحذاء الابيض الناعم لا بد انه طيب أيضا · كانت يداي مشلولتين في حجري ، ساكنتين ميتتين · ورأسي وحده يغلي كالمرجل · ان الجبناء والفقراء والخجولين يسيرون رملا نحو الجنون · لانهم يكبتون غرائزهم ، ويشغلون أفكارهم ليلا نهارا على الدوام · ولكن ماذا لو كانت هذه السيدة تجربني ؟ ·

والتفتت الي ··

هل أضايقك ··؟

وابتسمت ··

لا ·· أبدا ·· بتاتا ··

ـ أراك تتململ ··

ـ لا أبدا ·· أبدا ··

من الصعب جدا ، بل من المستحيل أن أحتمل الجلوس لحظة واحدة اخرى · يجب أن أنسحب ، أن أختفي من هذا العالم · ان هذه السيدة تقرأ افكاري وتحدث زوجها أيضا ، بل لربما قد سمعاني اتحدث عن الاقدام العارية ··

ها هو ذا الرجل يستسلم الى تفكير عميق · انه يهيىء محاضرة أخلاقية · سيحدثني الآن · بل لربما سيصيح أمام الناس كلهم : انظروا ايها السادة هذا الخائن الغادر ، لقد ··

ومال على زوجته وأخذا يتحدثان ٠ الآن يجب أن أهرب ٠ ولكن كيف أنهض ؟ سوف يريانى ٠ وستقول بدهشتها المروعة الى أين ٠٠ ؟ وسيربكني صوتها الحنون ٠٠ وسوف تراني صفوف طويلة من الناس ٠ هذه الاعين المصطفة ورائي كلها تتفرس بي ٠ اني اشعر بها تزحف على ظهري ٠٠ انها عيون محرقة ، وهم جميعا يعرفون من أنا ٠٠ ستطفأ الانوار الآن ٠ قرع الجرس ٠ لا يزالان الآن يتساران ٠ انهما غارقان في حديث طويل ٠ لا شك في انهما يتحدثان عني ٠ ان ذلك يحطمني ، يشل اعصابي ٠ وسمعتها تقول له بصوت مسموع :

– وكيف نستطيع أن نستغني عن العشاء فضلا عن اننا لم نتغذ البارحة ؟

وأدنى وجهه من وجهها ، وقال لها شيئا لم يقنعها ، لانها هزت رأسها سلبا ولم تجب ٠ كنت استرق أو أسرق نظرات طويلة ، دون أن أحرك رأسي ، الى وجهيهما المتلاصقين ٠ لقد تطور حديثهما ، ودخل في مرحلة جديدة من النقاش ٠ ووصلت الى اذني هذه العبارة ٠ فاه بها بقوة :

– ماذا نفعل بها ٠٠؟

وأخذ وجيب قلبي يطغى على كل شيء ، حتى خلت صدري يبرز ويتوارى تبعا لخفقاته ٠ ودوى في اذني طنين طويل هائل ٠ واعمتني حالتي الذاهلة عن كل ما حولي ٠ وكان رأسي مسمرا باتجاه واحد ، ولكن عيني لا تريان شيئا ٠ وهذه الرؤوس المصطفة على انساق مستقيمة ، لم تكن توحي الي بشيء على الاطلاق ٠ بل كان يخيل الي أن في هذا العالم كله لا يوجد غير رأسي وحده يتضاخم في بطء لدرجة يكاد فيها أن يتمزق ٠٠ اطفئت الانوار وبدأت الصور تتلاحق على الشاشة ٠

هناك أمور رهيبة وخطيرة يبحثانها في جد واهتمام انهما لا يفكران بالشاشة ، لماذا جاءا اذن ؟ ٠٠ يبدو انني خلقت لهما مشاكل معقدة مستعصية الحل ٠٠ هل اضايقهما يا ترى ٠٠؟ وتحركت قليلا تمهيدا لهرب نهائي ، فغيرا من وضعيهما ٠ لقد أحسا بأنني أهرب وسمعته كمن نفد صبره يقول :

ـ انني لا أستطيع أن أراك شاحبة الوجه لا أستطيع ٠٠؟ افهمت ٠! انها أشياء ضرورية ٠ صدقيني اننا لسنا بحاجة الى لحمة الغد ٠

ماذا نأكل اذن ٠

ـ مجدرة ٠٠ مجدرة بالزيت مع مخلل ٠٠

ـ وهل نسيت وصايا الطبيب ٠٠

ـ اسمعي اذن : لا بد من الاستغناء عن حاجة بهذا الثمن ٠٠ ولكن ٠٠ هه ٠٠ ربما نستطيع توفيره من سهرة يوم الجمعة القادمة ٠

ـ لقد حسبنا لها ليرتين وعشرين قرشا ٠٠

ـ سنذهب الى السينما فنوفر سبعين قرشا ٠

ـ ولكننا وعدنا سعيد وفاطمة ٠٠

ـ انك تحيرينني يا سميرة ٠٠ لن أذهب معكم ٠٠

ـ لا يمكن ذلك ٠٠

يا للمسكينين انهما لا يلتفتان الى الشاشة ٠٠

ـ هل اضايقك يا زكريا ؟

فالتفت اليه وأجبت :

ـ آه لا ٠٠ عفوا أخشى أن أكون أنا ٠٠

ـ لا ٠٠ لا والله ٠٠

ومال على زوجته وحدثها في اقتضـــاب مقــدار دقيقتين ٠ فتنحنحت ولم تجب ٠ واستدار نحو الشاشة ومال علي مرة ثانيـــة ٠

ـ كنا نبحث قضية سأحدثك عنها ٠

(الحمد لله ليس لي دخل في الموضوع اذن ٠٠)

والتفتت هي الي ٠ وتأملتني بنظـرات أكثــر طراوة من سابقاتها ٠ لا شك في أن الظلام يوحي بهذه الجرأة ٠٠

سألتني بصوت خافت :

ـ ماذا حدث حتى الآن ٠٠

ـ هذا الجندي الصغير أترينه قطعت رجله في الحرب ، وعاد الى بيته فرآه مهدما ٠ وهو الآن يبحث عن زوجته ٠

ـ ولماذا يطار هذه الشحاذة ؟٠

ـ انه يظنها هي ٠٠

ـ مسكين ٠

والآن بعد ان انتهى كل شيء ، واشرفت على نهاية القصة ٠٠ ماذا أقول ٠٠؟

صدقوني أيها الناس : انني أتمنى لو أرمي بنفسي في النهر وفي مكان عميق ·· عميق ·· عمق الهوة التي أتردى فيها على رأسي · غير انه يكفيني أن أقول بأنني مخلوق صنع من حثاله الطين ·· وانني أحس بذلك كلما تصورت تلك المرأة المسكينة، التي عريت أقدامها ، تتعذب ·· لا شك في انها كانت تتعذب ·· والعذاب لا يلائم تعابير وجهها الحبيب ·· ولا أدري لماذا احس بأنني أنا سبب هذا العذاب ·· أنا ؟ يا الهي ·· هل يمكن أن أكون السبب ··؟ هل ثمن بطاقة السينما احدث أزمة مالية مستعصية الحل ·؟


طلب تشغيل

كان الشاب يستند على الحاجز الحجري لنهر بردى ، يتأمل المياه العكرية بعينين نصف مغمضتين . وقد بدا من الخلف ، بشملته الصفراء ، وسترته وسرواله الكالحين ، كمجموعة من الخرق البالية التي قذف بها الى النهر ، لتتخلص من التراب والرمل اللذين علقا بها منذ أمد بعيد .

وكاد الشاب يستسلم لاغفاءة طويلة ، لو لم يدو في اذنه نفير سيارة مسرعة ، فاستقام فورا بالقدر الذي سمح به ظهره المتعب ، وشد صرة مطوية تحت ابطه . وتأرجح في موضعه كالثمل . ثم استدار الى الخلف . وما ان فتح عينيه على سعتهما حتى اعترته دهشة مفاجئة . وفكر في بساطة .

ـ ماذا حملك الى هنا يا تيسير .

لقد كان من عادته أن يقف منذ الصباح الباكر في ساحة باب الجابية ، ينتظر رزقه المقسوم . من حمل كيس فحم يشده على ظهره ، ويقطع به مسافة كبيرة لقاء ليرة سورية أو أجزاء منها ، حسب كرم الزبون . أو أن يقاد الى سوق الحميدية ليكوم

أحد التجار فوق ظهره عشرين كرسيا ، ليوصلها الى احدى العمارات في الطابق الرابع . ثم يهمس في اذنه .

- أوع تكسرهم يا شاطر .

أما في هذا اليوم ، فلم يتقدم لاستخدامه أحد من الناس . ولعل سوء حظه يعود الى أنه أفاق متأخرا بعد الليلة المتعبة التي قضاها في نقل أثاث أحد البيوت . وعاد يسأل نفسه :

- ولكن ماذا حملك الى هنا يا تعسير

وكلمة تعسير ، يطلقها على نفسه بدلا عن تيسير ، وهو اسمه الاصلي ، في الاوقات المنحوسة التي لا يجد فيها عملا . ولما لم تجبه ذاكرته على هذا السؤال ، علل القضية انه سار هذه المسافة الطويلة في لحظة ضعف ، ليستقر هنا في المكان الذي يندر أن يستخدم فيه . وهز رأسه مفكرا ..

- المنحوس منحوس ولو علقوا على ظهره فانوس .

وتحرك قليلا يريد أن يستأنف السير ، لولا أن وقعت عيناه على ساعة المرجة ، فوجدها الثانية عشرة .

فقرر بدافع الروتين لا بدافع الجوع ، أن يتناول غذاءه . لقد اعتاد ، عندما يعمل مع أحد المتعهدين بالبناء ، أن يتغذى في مثل هذا الوقت . ولم يناقش فكرة الجوع في رأسه ، ولعله لم يكن في تلك اللحظة جائعا على الاطلاق . ولكن أليست الساعة الثانية عشرة ؟

اذن فقد ازفت ساعة الغداء .

وتلفت حوله لحظة ، ثم اتجه الى حديقة المرجة ، حيث

اغراه منظر الحشيش الاخضر بكل ما تغرى به الارض الطيبة غلاما · وقفز الحاجز الحديدي ، ثم جلس متربعا تحت النصب التذكاري الكبير نصب شهداء السادس من أيار ··

كان الشاب بشملته الصفراء يبدو كنبتة من تلك النباتات البرية ، ذات الرأس الاصفر ، والساق الاسود العريض · وفتح صرته بهدوء ، وبسط عليها رغيفا تنوريا مستديرا وبصلتين وبضع حبات زيتون عجفاء · وما أن ابتلع لقمته الاولى ، حتى ألفى نفسه على الحشيش الاخضر · دون أن يلتفت الى الضجة الصاخبة التي تحيط به من كل جانب ·

لقد أصبح العالم أمامه رقعة صغيرة خضراء ، ورغيفا وبضع حبات زيتون · وتمنى في قرارة نفسه لو انطلق في موال بلدي ميجانا وعتابا ، بصوت ندي حنون يملأ الخافقين · وأن يجلس الناس حوله يصفقون ويرقصون · وشعر برغبة أكيدة بأنه في حاجة الى رفيق ليعقد اصابعه بأصابعه ويدبك معه دبكة بلدية ، فوق هذا البساط السندسي ، وتحت هذه السماء الصافية الصغيرة ·

كان قد تناول آخر لقمة وقذف بها الى حلقه في عصبية · وقدر لهذه اللقمة أن تقف في زلعومه ، عندما هدر من ورائه صوت طغى على الضجة المتصاعدة من حوله ·

ـ على العافية يا ولد ··

كان الصوت قد انبعث من كهل طويل القامة عريض المنكبين · ووقف عامل الحديقة فوق رأس الشاب عملاقا كالحورة وأردف :

ـ أنت يا أخانا مفكر أن الجنينة مطعم الامراء · ؟

كان يبدو أن الجنائني يريد الشر ، لولا أن قاس غريمه بنظرة صاعقة ارتدت لفورها حسيرة . اذ لم يكن هذا الشاب الضئيل خصما كافيا . فقد خيل اليه أن ارتعاشة مذنبة انبعثت من جفني ضحيته فوقف كالطفل يقدم حسابه الى مدرسه .

واستعرض تيسير دفاعه في براءة : وجدت الجنينة في هذا المكان فاغراني حشيشها وشمسها وماؤها بالجلوس . وأرض الله واسعة . ولا أظن الجلوس على نباتات الارض جريمة يعاقب عليها القانون .

وعندما رفع عينيه الى وجه الرجل ليبدأ دفاعه ، فوجيء بابتسامة عريضة أبوية تقول له :

– لا تخف يا بني .

وأردف العامل وراء ابتسامته الطيبة يقول للشاب :

– أقعد يا أخا الشباب .. اقعد أهلا وسهلا ..

وفي طرفه عين اصبح الرجلان صديقين ، كأنهما يعرفان كل منهما الآخر منذ سنين .

– ابشر يا بطل . أنا أخوك تعال هل تشتغل جنايني .؟

وأحدث هذا العرض في نفس الشاب تأثيرا غامضا لذيذا يخدر الاوصال .

وأغمض عينيه يهضم العرض المغري الى ابعد حد . وكانت الحركة الصاخبة من حوله توحي اليه بأنه في مأزق حرج . وتمنى لو يهرب . ولكن .. هذه الكلمة ربطته بأحلام لم تكن لتراود رأسه حتى في أطول ساعات فراغه . وأفاق على الصوت الخشن البـــارد ..

ـ هيا انها افضل شغلة في هذه الايام · اسمع نصيحة مجرب · ولا تسمع نصيحة حكيم · ستقبض خمسين ليرة كل رأس شهر ·· لا مقطوعة ولا ممنوعة · دون تعب أو جوع أو ما يحزنون ، تقص حشيش وترش شوية ماء ·· وتنام ·· لو صحت هذه الشغلة لجدي لما مات ·· يالله سأكتب لك طلب تشغيل للمأمور ··

ورفع الجنائني يده المكسوة بالشعر الى جيب سترته ، وراح يفك أزرارها بأصابعه الغليظة ذات العقد · ثم أخرج ورقة بيضاء مطوية عدة طيات ، وقلما صغيرا من الكوبيا بحجم عقب سيكارة · وبسط الورقة على ركبتيه وتأهب للكتابة ·

ـ آه الاسم الكريم ؟

ـ تيســير ·

ـ يارب يسر ولا تعسر ·· تي‌سير ·· الكنية ··؟

ـ بوز الجدي ·

ورفع الجنايني شاربيــه عن الورقــة وهما يرتجفان من الغيظ · وتفحص وجه الشاب مستطلعا الشبه بين وجهه وكنيته · وخشي الشاب أن تحل كارثة محققة فصرخ مدافعا عن نفسه :

ـ وحق الله بوز الجدي هاي الهوية ·

ورد الرجل مستسلما للامر الواقع ·

ـ لا بلا هوية ·· بوز الجدي · سأكتب للمأمور أن كنت بوز ، الجدي أو بوز التيس لا يهم ·· ان المأمور صاحبي جدا وهو كولدي · وظفني هنا منذ عشر سنين ·

ورفع الرجل الورقة الى شاربيه · كان الخط غير واضح ، فلعقها بلسانه من أولها الى آخرها ، ثم استأنف الكتابة بخط عريض · كان الرجلان وسط الضجيج القائم من حولهما ، صامتين منحنيين أحدهما على الآخر ، فوق ورقة بالية وقطعة قلم كوبيا ، كأنهما بمعزل عن هذا العالم ، يقرران في اهتمام شديد، مصير البشرية البائسة ·

وتراءت الحروف المكسرة الكبيرة المائلة لعيني الشاب بألف لون ولون · كل حرف منها يحمل معنى من معاني السعادة الابدية : الخبز والدفء والفراش ·

وراحت الحروف تتراقص أمام عينيه ضاحكة تشع من حولها الآمال والاحلام الجميلة ·· بينما راحت صور السعادة تتلاحق في مخيلته · كان الرجل يخط على الورقة ذكريات شبابه وماضي أيامه · تذكر للمأمور خالد بيك كيف كان يخبئه وراء ظهره ليحميه من قسوة أبيه وفتكه ، وتابع :

« ولا أظنك قد نسيت يوم وقعت في بركة الماء التي كانت موجودة في باحة بيتكم الكبير وكدت تغرق لو لم أحضر في اللحظة المناسبة وانتشلتك من الماء · ويومها حضر أبوك وكاد يطردني من خدمته لانني لم أحسن القيام بحراستك ، أحسست ساعتها بأنني أصبحت صغيراً كالنملة من الخجل ، لا تنس انك كنت عفريتا وشيطانا كبيرا ، لا مؤاخذة ·· ولكن الآن ·· آه يا عيني على العقل الكبير والذكاء المنير » ·

وردد الجملة الاخيرة بصوت عال · فاعجبه فيها انغم السحري الذي جاء على طبيعته بلا تكلف أو تزويق ··

واستأنف الكتابة

« نعم انقلبت الشقاوة الى ذكاوة وتعقل وشخصية بارزة ما شاء الله ، يتحدث عنها أهل البلد بالحمد والثناء ، والا لما وصلت الى هذه الدرجة العليا والمنصب المرموق » .

وقلب الشيخ الورقة بعد ان سود الصفحة الاولى . ثم راح في صمت طويل ليتذكر حوادث أخرى طواها الزمن منذ أمد بعيد :

« وهل تذكر يوم كنت آخذك الى المدرسة في الصباح ثم أعود لارجعك في المساء ؟

آه يا عيني على تلك الايام الجميلة ، وأظنك لا تنسى ذلك اليوم الملعون الذي رأيتك فيه باكيـا ، نعم ولقد سألتك عن السبب وقلبي مخلوع من الجزع ، فاخبرتني أن الاستاذ ضربك عصايتين على قفاك لانك نقفته بالمطاطة على رقبته ، هل تذكر ..؟ هل تذكر كيف دخلت الى المدرسة وأنا اشتعل من الغضب وسحبت الاستاذ من غرفة المدير من ياقة قميصه وكدت أن أخلع رقبته الجربانة لولا أن تدخل المدير وباقي الاساتذة . نعم كنت أحبك حبا دونه العبادة ولا أزال يا صديقي وولدي العزيز .. ولا أظنك نسيت كم كانت فرحتك عندما اعلن المدير طردك من المدرسة بسبب هذه الحادثة ، ولكن ماذا يهم ؟ ألم تصبح موظفا كبيرا له مكانته الكبيرة عندي وعند كل الموظفين في البلدية ، ولكن والدك الله يرحم التراب اللي ضمه عندما عرف بالحادثة ، آه لا أريد أن أذكرك الآن بما حدث .. حتى لا يصيبك بعض الكدر .. ولكن ماذا يهم .. ألم تنل شهادةالسرتفيكا وأصبحت في منصب يطمع فيه أكابر البلد » .

واشرفت الصفحة الثانية على الانتهاء ، فقرر الشيخ أن يختمها بلب الموضوع فأضاف بخط صغير جدا :

« يحضر تسطيره شاب فقير ومسكين اسمه تيسير بوز الجدي . لا تضحك يا سيدي نعم هذا هو اسمه بوزالجدي هكذا قال لي والله العظيم يا حمادة بيك ، وقد تعهدت له بأن أجد له عملا عند جنابك واقترح تعيينه في حديقةالسبكي باعتبار أن الجنايني السابق المكلف بالاشراف عليها كان رذيلا وابن كلب . فقد سمعت بأنك ضبطه وهو يغازل خادمة نصوح بيك فقررت تقليعه .. لذلك أرجو من جناب حضرتك ألا تخجلني بهذا الطلب البسيط لاني تعهدت للشاب بهذا العمل ولكم الفضل يا سيدي » .

المخلص دائما وأبدا ...

وانتهت الورقة وانتهى معها الشيخ من تسطير طلبه البليغ والتفت الى الشاب وزجر فيه .

– هات اصبعك – أين عقلك ؟ .

وتناول ابهام الشاب ولعقه بريقه ، ثم راح يسوده بما تبقى من رصاصة القلم الذائبة . وبعد أن طبع البصمة فوق المخلص دائما وأبدا ، ناوله الرسالة ناصحا .

ولا تنسانا يا ابن الحلال فقد اصبحنا أولاد عم و ..

ولم يسمع الشاب الكلمة الاخيرة ، لانه حمل طلب التشغيل وطار به الى صندوق البريد ..

مخلوقات عجيبات



زحفت من بطن الجبل كتلتان بلون الصخر ، لهما أربع عيون سوداء كبيرة ، ارعشتا أهداب عيونهما في وجه الشمس ثم نفضتا عن هيكلهما غبار الرمل ، ودون أية معجزة أو انفعال خاص تحولتا الى آدميين ٠٠

كانا نادرا ما يرفعان رأسيهما ، ولكنهما فعلا هذه المرة ٠ فضرورة الحال كانت تقضي بذلك ٠ فقد أحسا أنهما معلقان في الفضاء والارض تحت اقدامها غير ثابتة ، وألم برأسيهما دوار غريب فاغمضا عيونهما وهما يتمثلان الموقف ٠ سأل الاول في تهيب كبير ٠٠

ـ كيف أصبحنا هنا ٠؟

ورد الآخر محاولا أن يعطي اجابة صادقة قدر المستطاع :

ـ في الحقيقة ٠٠ لا أدري ٠٠

هالهما أن يريا المدينةالجبارةعلىهذا الشكل غير الطبيعي ٠ كانت في الماضي تبدو لمداركهما رهيبة غامضة ، أما الآن فقد

استحال على عقليهما أن يجدا لهذه الظاهرة الفريدة صفة أو تفسيرا ! • وعندماطرح الاول سؤاله ، لم يكن ليعني مدلول الكلمات التي باح بها ، كان يقصد أن يقول مثلا :

(ترى هل في مقدورنا أن نرجع الى أوكارنا •؟)

أو يورد تعريفا نادرا لهذا المحيط الاسر الذي لم يألفه في حياته ، أو تعبيرا خاصا عن شعوره ازاء هذه السرمدية المطلقة • ولكن خانه الفهم قبل أن يخونه التعبير • وعندما اجاب الثاني بعدم قدرته على التفسير ، كان يدرك جيدا ما كان يقصده رفيقه • وبما انه عانى الشعور نفسه ، فقد كان موفقا عندما رد : (في الحقيقة • لا أدري) •

ان كل منهما يعرف جيدا كيف وصل الى بطن الجبل • ولم يكن ذلك بفعل أيد سحرية أو قوة خفية • فقد حمل الاول من باب الجابية على ظهر عربة يجرها بغل ، وتلاه الآخر من الزرابلية على عربة مشابهة ، ثم التقيا هنا دونما سابق خطة أو ترتيب • وقد انتقاهما متعهد بناء له خبرة واسعة بأصحاب العضلات والهياكل القوية ، ليحفرا بطن الجبل ويستخرجا منه الرمل • وعند الظهيرة استغنى فجأة عن خدماتهما بعد ان قاما بمهمتهما على خير ما يرام ••

كانا فلاحين من حوران • من تلك الجموع الزاخرة الهائمة التي هاجمها غول الجفاف سنين متعاقبة فتركت أراضيها للدود واكتسحت طرقات المدينة لتعشش في منافذها وأسواقها الضيقة • ولتقوم بالاعمال التي تكفل لها سد الرمق ، والمحافظة على استمرار الحياة ، دونما قيد أو شرط أو أي اعتبار من الاعتبارات التي تمس الشخصية والكرامة والطاقة الجسدية • فلم يكن لهذه

العناصر ـ مجتمعة أو متفرقة ـ أي شأن في حساب أحد ، فهي الرأسمال الوحيد ، الذي يمكن طرحه للبيع دون اعتبار لجدول الارباح والخسائر ٠٠

حين أفاق القرويان على آدميتهما ، وطرفا أجفانهما في وجه الشمس ٠ شاهدا السماء بمقلهما المرملة تتلون بألوان تغرى بالانطلاق من أي حيز ، وفكر كل منهما في أن يصبح شيئا خارقا لا يمكن تحديده ٠ ولو كانا على قليل من الخبرة ، لاثرا أن يتحولا الى طائرين أو شاعرين أو شيء من هذا القبيل ٠ ولكنهما رجعا الى واقعهما في أقل من لمح البصيرة :

(ينبغي لنـــا ان نكسب الوقت ونبحث عن مستأجـر جديـد) ٠

كانت شمس الظهيرة قد ارتكزت في كبد السماء لا تريم : وكأنما ادركها التعب فتوقفت لينعم بها الكون بأسره ٠ وعلى جميع الابعاد كانت المعالم تذوب بعضها ببعض لتشكل معاني جديدة لم يسبق لاي منهما أن حلم بها ٠ والى الجنوب ٠٠ أقصى الجنوب تخيلا الارض ، لم يكن هناك أفق كالافق الذي يعهدانه ٠٠ فزرقة السماء لم تكن ممتزجة بسمرة التراب كما يحدث عادة عندما كانا في الماضي يطلان بعيونهما من وراء المحراث ٠ لم يكن هناك شيء ٠٠

ظلال ٠٠ مجرد ظلال باهتة لا ألوان لها ٠ كانت ألوانا لطيفة رائعة ولكنها فارغة لا توحي بالشبع ٠ وفكر كل منهما في صمت :

(أنا ٠٠ من أنا ٠٠! وفي أي مكان أوجد ٠؟ يبدو انني عاجز عن أن أقيس نفسي الى هذا العالم ٠٠ الى هذا العدم ٠٠

لانني لا أفهمه ٠٠ لا بد من أنني عظيم وتافه بآن واحد ٠ ولهذا لا أستطيع أن أعرف اهميتي ٠٠)

ولم يدم تفكيرهما هذا غير لحظة قصيرة ، فرضاها استراحة كانا في غنى عنها ، ثم ما لبثا أن نهضا وشرعا في هبوط الجبل ٠ وكانا بمقدورهما أن يوفرا الجهد الذي بذلاه من أجل الاسراع ، فلم يدخل في حسابهما يوما أن يهبطا مرتفعا ، اذ لم يصلا أبدا الى قمة ٠٠ من أجل هذا وجدا نفسيهما يهرولان دون أن يتمالكا أو يحدا من سرعتهما المتزايدة ٠٠ وتجاوزا سطوح المنازل الاولى وهما يضحكان ويهزجان ٠ ثم سقطا في حفرة كالبالوعة نغرت أمامهما بغتة ، وجدا نفسيهما بعدها ينحدران في طريق منسكب هو الجادة السابعة من أحد أزقة المهاجرين ٠

وعند ما لمحا الترام يهدر في القاع حاولا عبثا السيطرة على اندفاعهما الجنوني ، خشيا أن يفقدا زمام ساقيهما فيجرفهما ذلك الحيوان الرهيب ٠ كانت انفاسهما تتلاحق ولكن دون جهد وفكر كل منهما : (لا شك في أن الهبوط اسهل من الصعود) ولم تطف هذه الفكرة على لسان أحد منهما ، فقد عرفا انها بديهة لا تستحق الجدل ٠

وفي تلك اللحظة لاح لاعينهما مشهد يستحق الاهتمام ٠ في منتصف الطريق تقريبا كان رجل يصرخ ويهوي بعصاه على مؤخرة كتلة كبيرة الحجم لها اذنان مميزتان ٠ وقال الاول :

ـ أظنه حمارا ٠

ورد الثاني مؤكدا ٠

ـ لا بد من أن يكون كذلك ٠٠

لم يكونا من أنصار الرفق بالحيوان وذلك لسبب بسيط ٠

هو اعتقادهما بأن لاتفه حيوان منزلة توفر له المعاملة اللائقة ، وتقيه شر الظلم والتعسف ، فضلا عن أن في صدر كل منهما ذكرى مشبوبة لا يمكن تجاهلها • فقد ترك كل منهما هناك بهيما كان صديقه ومعينه الوحيد ، يقضي معه النهار في حراثة الارض ويشكو اليه اتراحه وأحزانه • وعندما غادر الفلاحون قراهم ، سرحوا بهائمهم لترسم بحوافرها طريق رزقها المقسوم ••

وصحت ظنون الرجلين عندما وصلا الى المكان ، كان هناك حمار حقيقي غائص تحت حمل ثقيل فلم يبرز منه غير الرأس ، تسمرت قوائمه في الارض ترفض أن تتزحزح أنملة واحدة • وقد بدا واضحا أن الدابة قررت قرارا أكيدا لا محيص عنه أن تقف في مكانها • ومن الطبيعي أن هذا التصميم لم يكن قد ارتسم على وجهها ولم تبح به لاحد ، ولكن الدلائل كلها كانت تشير الى صحته • فالحمل الثقيل الباهظ والطريق الصاعدة بشكل عمودي ، والبادية للحيوان كالجدار القائم ، جعلته يتمرد بصورة عفوية وبحسن نية خالصة عن متابعة الصعود •

ورفع الحمار الى الفلاحين القادمين رأسه المكدود ، وكأنه اشتم فيهما رائحة خاصة ، ثم شخر شخرة طويلة ، ليحذرهما من مغبة الاتيان بعمل ما ، أو ليشكو اليهما أسفه الشديد على خور قواه وفل عزيمته •

كانت ساعد الحمال قد كلت ، وبح صوته من فرط الجهد الذي هدره في الشتم والدفع والضرب • وأخيرا لوح بعصاه المحطمة ثم قذف بها في الهواء وهو يغمغم في حنق :

ـ لا فائدة يجب انزال الحمولة •

واعترض رجل كان قريبا من المكان ولعله البقال صاحب البضاعة :

ـ ولكن يجب ايصال الاغراض الى الدكان ·

وهز الحمار رأسه وكأنه يرفض هذا الاحتجاج ، فطارت من اذنه ذبابة فرس ثم عادت الى مكانها دون ابطاء ، فيما شرع يتأمل المخلوقين العجيبين اللذين وقفا يستوضحان المشهد · قال أحدهما لائما :

ـ مع أن حميركم تأكل الشعير ··

وأضاف الآخر بينه وبين نفسه :

(الذي لو توفر لنا نحن الآدميين لكنا في خير حال) ·

ورد الحمال مدافعا عن حماره :

ـ القصة يا أخوان ليست قصة شعير ·· ان أي حيوان لا يمكنه صعود الجبل بهذه الصناديق الثقيلة ·

ولسبب ما ندم الحمال على هذه الاجابة برغم ضرورتها · فقد واتته فكرة واضحة وطلب الى الفلاحين انزال الحمولة · وزفر الحمار في ارتياح وهو يتلفت الى الخلف معبرا عن امتنانه لهذين المخلوقين الظريفين برمعان متلاحق من خيشومية الواسعين

وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه الحمال · فقد جرت مفاوضة بسيطة بين صاحب البضاعة والمخلوقين العجيبين ختمها الاول بهذه الحكمة البليغة :

ـ سبحان الله ·· لهذا فضل البني آدم على الحيوان ··

وضحك الحمار في سره :

(فليكن ·· ان ذلك لن يضيرني) ثم عبر عن سخريته من سائر العالم بأن رفع جحفلته الى الاعلى وراح يكشر في وجه الشمس ·

كان كل من الفلاحين قد تمنطق بحبل ، في وسطه قطعة من اللباد يلصقها على جبينه عند رفع الاثقال · وقد برزت من تحت شملته البالية قبصة من الشعر كانت تتخذ على الدوام لون آخر مهمة يقوم بها · وقد أحاطت بقدميه سيور من الكاوتشوك نزعت من اطار عجلة السيارات · أما الهيئة العامة فكانت – لتنافرها – تحض الشاهد على الاقتناع بأن صاحبها قد تخلى نهائيا عما يسمى بالذوق السليم · وعلى هذا فلا يمكن للانسان العادي أن يشعر بحضرة أمثال هذين المخلوقين بأي حرج ، كما أنه يستطيع – بكل بساطة – أن يوكل اليهم القيام بأحط الاعمال أو اصعبها دون أن يضيع وقته الثمين في المساومة أو وزن الاعتبارات ·

وانحنى الرجلان على صناديق الفاكهة والصابون والاشياء الاخرى ، يتقاسمانها الى حصتين فيما كان البقال يسائل نفسه في توجس :

– ترى هل بمقدورهما أن ينهضا بها ؟

وبسرعة فائقة ، وبخبرة من له مائة عام ، أحاط كل من الرجلين صناديقه بالحبل ، ثم جثم وراءها مسندا اياها الى ظهره ، لاصقا قطعة اللباد الى ناصيته و ·· صرخ البقال في عزم :

– يا الله ·· يا قوي ·

وكأنه استشعر بالحمولة تنقض على كاهله

وتخمد منه الانفاس · ونهد الفلاحان برأسيهما الى الامـــام ثم اندفعا واقفين ، فطقطقت مفاصلهما كما لو انها تتقصف · ومال كل منهما حـول نفسه قبل أن يتخذ وضعا تتوفر فيـه الراحة للعمل · وما أن حرك قدمه ليخطو خطوته الاولى ، حتى وجد نفسه ينآد الى نصفين ، ليصبح رأسه قريبا قريبا جدا من قدميه ، ولاول مرة لاحظ أحدهما أن ابهام قدمه اليمنى ينزف دما · فتذكر انه أحس في فترة ما من فترات النهار بألم خاص يأكل ناحية من جسده ، غير أنه ابان انشغاله في حفر الجبل ، نسي الالم وأسبابه ، ولكن الالم لم ينسه ، ظل يلح عليه طوال الوقت حتى أصبح عادة كريهة يصعب التخلص منهـا · وقال الرجل في نفسه وهو يركز أنظاره على الظفر المقلوع :

(سأصب عليـه عند عودتي قليـلا من البترول وبذلك ينتهي الالم) ومن ثم أقنع عينيه بالنظر الى مكان آخر · وتمنى لو يستطيع أن يرفع رأسه قليلا ليرى الطريق الصاعدة أمامه ، ولكنه فشل · الفى نفسه مجبرا على أن يظل منحنيا الى الاسفل· وراح يجاهد ضد عاملين قاسيين أشد القسوة ، الطريق الصاعدة على نحو عمودي والحمل الثقيل الذي يهد حيله · وفي لحظة ما ساءل نفسه :

(ترى هل ذلك حقيقة ·· ان الله فضلنا على الحيوان ؟

ومن سوء الحظ أنـه كان يفرض نفسه ادميا ، ودليله الوحيد أنه في الاحوال العادية يمكنه السير على قدمين ، ولكنه الان يكاد يمشي على أربع ·· وأنه ليتمنى ذلك بكل بساطة ، عل السير بهذه الطريقة يصبح أقل مشقة : وانتشله من خواطره صوت زميله الذي بدا مبحوحا ضائعا وسط الزفير :

ـ أظن أنهم سيعطونني دية البنت ·· ألا تظن ذلك ··؟

كان هذا قد هبط على المدينـة مع بناته الخمس ، فأجر الكبرى كخادمة وأودع الباقيات زاويـة على رصيف النهـر في الزرابلية · ومنذ يومين عاد من أحد الاعمال فقيل له بأن ابنته الوسطى قد انتشلت جثة من تحت عجلات السيارة · وقد حدث رفيقه عن القصة خلال وجودهما في بطن الجبل ، وها هو ذا الان يعود الى استئناف الموضوع الذي يقلق نفسه · كان يتكلم بصوت كالفحيح وهو يهدج بصناديقه الاربعة وفي صدره ينخر كالسوس ألم أسود :

ـ علمت بأن سائق السيارة قد اوقف ثم أخلي سبيله · وقال لي الشرطي أن أقدم دعوى ·· أنا لا أعرف شؤون هذه الدعاوى ·· ولكن لو أعطاني السائق نقودا لانحلت المشـكلة من تلقاء نفسها ··

وكان الآخر يفكر على منوال آخر :

(اذا قبضت الآن ربع ليرة أجرة حمل الصناديق فسيكون معي ليرتان ··)

كان تفكيرهما في جميع الحالات يؤدي الى نتيجة واحدة ·· النقود ·· فقد رهن كل منهما أرضه في السنة التالية للجفاف ، وهو الآن يعمل ما استطاع ليوفر قليـلا ويحـرر الارض من الدائنين · وعاد الاب يستشير صاحبه :

ـ انهم هنا ـ كما علمت يعتبرون قضية الدهس كقضية القتل ·· أليس كذلك ؟ · وعلى هذا سآخذ دية كمـا حدث عندما ذبح نواف الصالح ·· وفكر الآخر :

(ترى ألا يحس هذا الرجل مثلي بأنه يكاد ينسحق تحت وطأة الصناديق ٠٠ ؟)

وخلد الاب الى أفكاره :

(ان البنات مفيدات على أي حال ٠٠ على أن لا يمتن ميتة طبيعية) كان بدوره يشعر بأن الحمل أنقض ظهره ، وكان يعتمل في نفسه خلال الحديث : (اذا بدرت من صاحبي أية بادرة في الاستراحة فاني سأجلس على الفور ٠٠)

ولربما كان الاب يتحدث عن ابنته القتيل من قبيل التسلية واضاعة الوقت ، ولينسى حالته البائسة التي كان عليها ٠ وعندما يصمت كان يحس بان الصمت يرهق صدره أكثر مما يفعله الحمل الثقيل ٠

كان الرجلان يرقيان المرتفع مكورين على نفسيهما ، وقد ضاعت منهما المعالم الادمية ٠ كانا عبارة عن كومتين ثقيلتين مكونتين من أشياء يصعب تعريفها ٠٠ أرجل متورمة ، وسروالين مغبرين ، ومواد أخرى مجهولة ومختفية عن الانظار ، تتميز منها : أنفاس لاهثة ، وعيون يأكلها الرمد ، وقلبان يعتصرهما القلق أكثر مما يؤثر فيهما الكدح المتواصل الشاق ٠

وجرض ذو الاصبع الدامية ريقه بصعوبة ٠ كان يختمر في رأسه المكدود سؤال أو حديث غريب يصعب نطقه ٠ وفي كل مرة كان يؤثر الصمت ٠ انه لايفهم شيئا ٠ كان يقول في نفسه : (نحن كنا فلاحين ٠٠ واسمنا فلاحون ٠٠ أما الآن فمن نحن٠٠؟) ولو كان يعرف جيدا انه سيجد الاجابة عند زميله لصارحه في القضية ٠ ولكنه لم يكن واثقا من ذلك ، فضلا عن أنه في هذه الآونة ، وجد أن السؤال أو مجرد الكلام يتطلب جهدا فائقا لا

ضرورة لمعاناته ٠ وعلى هذا فقد راح يستغرق في أحلام مبهمة ٠

وأحيانا كان يوهم نفسه بأنه يحلم ، دون أن يدري بأنه يفعل ذلك ببلاهة غريبة ٠٠ وظل يتمنى ولو لحظة قصيرة ، أن يفلح في تجريد ذاكرته من هذه الحقيقة التي يدعوها جسده ٠ كان يلاحظ ـ وهو يجر قدميه أو يصغي الى زحف أقدام زميله ـ بأن الطريق ثابتة في مكانها لا ترجع الى الخلف كما هي البادرة التي يلاحظها السائر ٠ وخيل له لفترة معينة بأنه يسير على شريط يتحرك الى الوراء فلا يصل من يمشي عليه الى أي مكان ٠٠

وهناك بادرة ساءته كثيرا وراحت تعذبه بدأب ٠ فقد لاحظ بأن الكلل بدأ يتسرب الى أعماقه ٠ وأرعبته حقيقة بسيطة للغاية :

(ماذا لو بدأت أتعب من الآن ٠٠ ؟ من يطعمني ٠٠ ؟ وكيف أستطيع أن أفي ديوني وأرجع الارض ٠ ؟)

وفجأة أحس بظلم فادح يأكل ضميره ٠ فانتفض بقوة ولكن كما تنتفض نملة تحت حجر ـ وتصاعدت من جوفه حشرجة أليمة ٠ في حين كان الآخر ينقب في ذاته عن تلك النشوة التي تملكته عندما وجد نفسه منذ قليل في أحضان الجبل ، يذلل جبروت المدينة الظالمة التي تمضغه بقرف دون أن تتلذذ بطعمه ٠ وأغمض عينيه ليتخيل الابنية المرتفعة تلعق سيور حذائه المحترق ٠ وغامر ذو الاصبع الدامية بكل رصيده من أفكار ، وأطلق من جوفه صفيرا غامضا شبيها بنقيق الضفدعة :

ـ انني لا أفهم ٠

وفتح الآخر عينيه وأرهف أذنيه برغم عدم استعداده لسماع أي شيء ٠٠ واستطرد الاول قائلا :

ـ ان الفلاحين ٠٠ لهم دائرة أو ما أشبه ذلك ٠٠ على كل حال يوجد في الدولة من يهتم بأمرهم ٠٠ أما نحن فلا أجد ٠٠ أعني ٠٠ لا أدري كيف أعبر ٠٠

وفي تلك اللحظة انطلق من احدى الشرفات صوت نسائي ينادي :

ـ أنظري يا بنت هل يوجد أحد في الطريق :

وردت الخادمة بعد لحظة :

ـ لا يا ستي ٠٠ لا يوجد أحد ٠٠

وكانت الخادمة سليمة النية عندما أجابت ٠٠ فقد أطلت من الشرفة ولم تر أحدا ٠ لاحظت فقط وجود كومتين مبهمتين تتحركان كالسلاحف ٠ وسفحت المرأة صفيحة الماء من الاعلى ٠ فطار رذاذه على الارض محملا بالغبار والبصاق والنفايات وبكل ما تحمله الاحذية في نعالها ، ثم لطخ وجهين مدفونين تحت الاعماق ولعق الاول شدقيه وهم يغمغم :

ـ أظن ٠٠ قلبي يحدثني ٠٠ بأنه الله سينزل المطر ٠٠

وبعبع الآخر كالمخنوق ٠٠

ـ الله يبعث الخير ٠٠٠

وظل الطريق يمتد صعدا ٠٠

الفهرس

مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق ـ ١٩٨١

سعر النسخة

١٦ ل.س.ل